

الباب الثانى

فى حقوق الزوج على الزوجة المقدمة

* أولاً - نداء إلى المرأة :

قامت المرأة الشرقية فى القرنين الأخيرين بحركة نسائية تقلد بها الحركة القائمة فى الغرب، تبغى بذلك كسر الأغلال التى قيدتها زمناً طويلاً، وإسكات الرياح الهائجة التى عصفت بكرامتها فى القرون الخالية، وكان لهذه الحركة فى العالم الغربى والشرقى تاريخ وخطوات وضحتها فى بحث «الحجاب» وبينت الآثار السيئة التى ترتبت على جموع المرأة وتجاوزها الحدود المشروعة، وسوء استغلالها لحقوقها التى نالتها وكان من أهم هذه الآثار ارتباك الحياة الزوجية التى انعكست آثاره على الحياة العامة، ولو نظرنا نظرة إجمالية إلى الحركة النسائية فى أى بلد إسلامى لوجدنا أن أهم مطالب المرأة هو فسخ المجال لها لتساوى الرجل فى تقلد المناصب الحكومية ومباشرة النشاط الاجتماعى والسياسى فى كل ميادينه .

ودفع الشطط بكثير منهن ومن يشجعونهن إلى التهجم على النصوص الدينية والإلحاد فى تأويلها لتتفق وأغراضها، مع أن هذه النصوص هى لصالحها فى الحقيقة، جاءت لتصون هذه الجوهرة الثمينة، وتحفظها من أن تلتاث فى سوق المعروضات كالسلع التى تقلبها الأيدى وتساوم على شرائها، وقد بينت موقف الشرع من هذه المطالب، وذكرت أن الإسلام ضمن لها حقوقاً لو أنصفت هى لتمسكت بها، وحافظت عليها، ونفذتها بجملتها، ولكنها جهلت دينها فتطلبت حقوقاً من مصادر أخرى، ولو فهمت ما جاء به الدين نحوها لعكفت

على نصوصه تستوحى منها نظاما لسلوكها، ولكنها فى جهلها بذلك على ما يقول الشاعر:

ومن العجائب والعجائب جملة قرب الشفاء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الزما والماء فوق ظهورها محمول

أيتها المرأة:

ها هوذا منزلك، تولّى فيه كل ما تشائين من المناصب والأعمال، أظهرى فيه براعتك وقدرتك فى توفير الأمن والاستقرار له إن كنت تتطلعين إلى أحد مناصب الأمن والنظام.

أظهرى فيه ثقافتك وتوجيهاتك التربوية إن كنت تتطلعين إلى أحد مناصب التربية والتعليم. أظهرى فيه ذكاءك وحسن تدبيرك ونظرك الثاقب فى المجال الاقتصادى إن كنت تتطلعين إلى أحد المناصب المالية والاقتصادية.

أظهرى فيه حسن رعايتك ومقدار ذوقك فى تنظيمه وتنسيقه وصيانته من غزو الأمراض والحالات الطارئة إن كنت تتطلعين إلى أحد مناصب الصحة والنظام.

أظهرى فيه عقلك الواسع وقدرتك الجدلية واستنباط الحقائق وحل المشكلات إن كنت تتطلعين إلى أحد مناصب القضاء والنيابة والتشريع.

وهكذا يمكنك أن تشفى حاجة نفسك إن شغلت بهذه المهام الخطيرة، التى هوّن حظرها عليك غشاوة الهوى وقصر النظر وبهرج التقليد:

فى بيتهن شئونهن كثيرة كشئون رب السيف والمزراق

أيتها المرأة:

انظرى بعين الفكر إلى تكوينك الطبيعى، ومواهبك العقلية والعاطفية، فدعى المحيط الخارجى الواسع لمن سلحه الله بأسلحة أقوى وأشد، واشكرى إنعام الله عليك بحمايتك من هذا الحمل الثقيل، وتوجيه نشاطك إلى هذه المملكة

الضيقة فى حدودها الواسعة فى آثارها، إنها بيتك معهد تخريج الأبطال إن أحسنت التوجيه، ومصنع إنتاج الأسلحة إن أحكمت صناعة القلوب. وقد أشاد بخطر هذه المهمة الفلاسفة والأدباء، وصدرت به عدة شهادات من كبار القادة وعظماء الملوك، تقدم كثير منها فى بحث الحجاب.

قالت « مسز روزفلت » لإحدى الشرقيات: إننا نلغى اسمنا الأول لنحمل اسم زوجنا، فليست لنا حياة مستقلة، ومع ذلك أنتجنا إنتاجاً عظيماً، ولكن أيتها الشرقيات حرية مكفولة فالواجب عليكم عظيم، لا بد أن تكون المرأة أما لبطل أو زوجة لبطل، فمهمتها خطيرة فى هاتين الناحيتين^(١).

ارجعى إلى بحث الحجاب وما فيه من شهادات بخطورة مهمة المرأة، وضعيها أمام عينيك، فهى صادرة عن حطبت فى حبالهم، وساعدى فى تقدم الوطن بإخلاصك فى وظيفتك التى هياها الله لك، وتناسبت مع تكوينك الطبيعى.

ثم أديرى وجهك إلى الناحية الأخرى التى أشرقت منها شمس الحضارة الحققة والرقى الصحيح، إلى الإسلام، وضعى يدك على هذا الأثر النبوى، لترى إلى أى حد بلغ به تكريم الإسلام لك، ومن أى منبع استقت أفكار القادة والمصلحين الإسلاميين، إن الجهاد فى سبيل الله لحماية الحريات والأعراض والعقائد والأموال والمقدسات أعظم شرف يحمل وسامه المجاهد المخلص. والمرأة فى حسن إدارتها للمنزل لا تقل شأناً عنه فى هذا المجال، فهى التى تشيع الأمن والاستقرار والسعادة فى هذا الحمى الذى يسكن إليه الرجل المكافح المجالد، ويأوى إليه زغب الخواصل فى دور التكوين.

هذا المعنى السامى الكريم جاء على لسان الأمى، خريج مدرسة الوحى، والحائز لشهادة التقدير بالرسالة العامة، مهوره باسم مالك الملك العلى العظيم. فقد أرسل السيدات المسلمات نائبة عنهن هى السيدة أسماء بنت يزيد بن

(١) الأهرام ٢١/١١/١٩٥١.

السَّكَنَ^(١) خطيبة النساء، كما لقبت بذلك، لأن لها عدة مقابلات مع الرسول ﷺ، كما ذكره النووي في شرح مسلم^(٢)، أرسلنها إلى النبي ﷺ، فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فأمننا بك وبإهلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم، وأنتم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أنشركم في هذا الأجر؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه ثم قال «هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها» فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها ثم قال «افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حُسْنَ تَبَعْلِ المرأة لزوجها - أي قيامها بواجب الزوجية - وطلبها مرضاته واتباعها موافقته تعدل ذلك» ذكره الحافظ ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب» وروى البزار مثل ذلك مختصراً. وفي لفظ الطبراني: ثم جاءته امرأة فقالت: إني رسول النساء إليك، وما من امرأة علمت أو لم تعلم، إلا وهى تهوى مخرجي إليك، الله رب الرجال والنساء وإلهن، وأنت رسول الله إلى الرجال والنساء، كتب الله الجهاد على الرجال، فإن أصابوا أثروا، وإن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال «طاعة أزواجهن والمعرفة بحقوقهم، وقليل منكن من يفعله»^(٣).

(١) شهدت موقعة اليرموك وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها «أعلام النساء لعمر كحالة» رواه الطبراني عن مهاجر. وقال الهيثمي «ج ٩، ص ٢٦٠»: رجاله ثقات «حياة الصحابة، ج ١، ص ٥٨٢» وهى بنت عم معاذ بن جبل كما فى المرجع المذكور. فيه كلام فى التشابه بينها وبين الأشهلية فى هذه الواقعة، انظر «أسد الغاية» ج ٧ ص ١٨.

(٢) ج ٤، ص ١٦. (٣) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٩.

وعن أنس قال: قلن النساء: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل في الجهاد، فهل لنا من أعمالنا شيء نبلغ به فضل الجهاد؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم، مهنة إحدان في بيتها تبلغ به فضل الجهاد» رواه أبو بكر بن شيبه، ورواه البزار أيضاً، قال الهيثمي: فيه روح بين المسيب، وثقه ابن معين والبزار، وضعفه ابن حبان وابن عدى، وقال البوصيري: هو ضعيف^(١) والمهنة هي الحالة، والماهن هو الخادم، ومهّن كخدم.

إن إدارة المنزل والوفاء بحقوق الزوجية في حاجة ماسة إلى ثقافة متخصصة، وهذه الإدارة تختلف باختلاف العصور والبيئات، لكل منها ما يناسبه، والمنزل الحديث يستلزم ثقافة ممتازة، نظراً لتعدد مطالب الحاضر، فهي تريد من المرأة أن تكون على بصيرة بفنون التربية وبوسائل النظافة والنظام، وبفنون التسميرض والإسعافات الأولية لمواجهة الاحتمالات، وغير ذلك مما تمس الحاجة إليه، وكلما كملت المرأة في هذه النواحي انتظمت الحياة الزوجية.

وعلى العكس من ذلك يكون منزل المرأة الجاهلة بهذه الفنون أشبه بالخرابة وسط القصور الزاخرة بالحياة والحركة والبهجة والسرور.

والإسلام في تعلم هذه الفنون رحب الصدر من القواعد، ما دام ذلك كله في حدود المشروع، ومن أجل ذلك ندعو البنت في سنيها المبكرة إلى التعلم في المعاهد والمؤسسات التي تعنى بالتربية النسوية لتهيئتها للحياة المستقبلية، والغرب قد اهتم أخيراً بهذا النوع من التعليم، وأتت مؤسساته بنتائج طيبة، بل رأينا في بعض دويلات البلطيق «الدانمارك» وزيرة خاصة بالشئون الزوجية.

وهذه كلها، وإن أتت في ظلال الغرب وبوحي من ثقافته، فيها الشيء الكثير الذي لا يرى الإسلام فيه بأساً، بل إن الدين الإسلامي ومآثورات العرب زاخرة بمثل هذه الأصول القيمة، التي سيأتى تفصيلها فيما بعد، وإليك شيئاً من مآثور العرب في الجاهلية، خاصاً بهذه الثقافة الزوجية:

(١) المطالب العالية، ج ٢، ص ٣٩.

ذكر مؤرخو الأدب العربي^(١) أن عمرو بن حُجْر خطب إلى عوف بن محمَّم الشيباني ابنته، أم إياس، فلما كان بناؤه بها خلت بها أمها^(٢) فقالت: إن الوصية لو تركت لعقل أو أدب أو مكرمة وحسب لتركك لك، ولكن الوصية تذكرة للعافل، ومنبهة للعافل، يا بنية، إنه لو استغنت المرأة عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عن الزواج، ولكن الرجال خلقوا للنساء، كما هن خلقن للرجال، أى بنية، إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت، وعشك الذى فيه درجت، إلى بيت لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكونى له أمة يكن لك عبداً، واحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع والطاعة، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمن منك إلا أطيب ريح، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه ووعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير، وأما التاسعة والعاشرة فلا تَعَصَنَّ له أمراً، ولا تُفْشِنَنَّ له سرّاً، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً، واعلمى أنك لن تبلغى رضاه حتى تؤثرى هواه على هواك.

وقد ذكر الغزالي^(٣) مثل هذا عن أسماء بن خارجة الفزارى وهو ينصح ابنته عند الزواج، إذ قال: إنك خرجت من العش الذى فيه درجت، فصرت إلى فراش لم تألفيه، فكونى له أرضاً يكن لك سماء، وكونى له مهاداً يكن لك

(١) العقد الفريد، ج ٣، ص ١٩١، المستطرف، ج ٢، ص ١٨٤، مجلة العربى، مايو ١٩٧٢، عيون الأخبار، ج ٤، ص ١٧.
(٢) أمامة بنت الحارث.
(٣) الإحياء، ج ٢، ص ٥٤.

عمادا، وكوني له أمة يكن لك عبدا، لا تلحفي به فيقلاك^(١)، ولا تباعدى عنه
فينسالك، إن دنا منك فأقربى منه، وإن نأى عنك فأبعدي عنه، واحفظى أنفه وأذنه
وعينه، فلا يشمن منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً.

قيل إن هذه النصيحة عندما زفت إلى الحجاج، وأسماء هذا رجل وليس
امرأة، وهو القائل لأمها:

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرك الدف مرة فإنك لا تدرين كيف المغيب
فإنى رأيت الحب فى الصدر والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب^(٢)

وقد وصف أعرابى المرأة السوء بعدة أوصاف تدل على معرفة وخبرة واسعة
بطبائع النساء، فقال كما فى «المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى»^(٣).

شهرن النحيقة الجسم، القليلة اللحم، المحياض الممرض، المصفرة الميشومة،
والعسرة الميشومة، السلطة البطرة النفرة، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة،
تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب،
أنف فى السماء واست فى الماء، عرقوبها حديد، منتفخة كالوريد، كلامها
وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات وتفشى السيئات، تعين الزمان على
بعلها، ولا تعين بعلمها على الزمان، ليس فى قلبها عليه رافة، ولا عليها منه
مخافة، إن دخل خرجت وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت وإن بكى
ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء، تأكل كما، وتوسع ذمما، ضيقة الباع،
منهوكة القناع، صبيها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع، وتبكي
بالمجامع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكى وهى ظالمة، وتشهد وهى
غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور
وعظائم الأمور.

(١) يعنى لا تكثرى النوم معه فى لحاف واحد فيكرهك ويملك، هذا إذا كانت التاء فى
«تلحفى» مفتوحة، أما إن كانت مضمونة فالمراد لا تكثرى سؤاله، والأولى أولى لمناسبة ما بعده.

(٢) منبر الإسلام، جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ. (٣) ج ٢، ص ١٨٩.

* ثانيا - القواعد الأساسية لحقوق الزوج :

إن حق الزوج على زوجته خطير، والتقصير فيه عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة على السواء، فبعد أن كان برها بوالديها مفتاحاً لدخول الجنة أصبح الآن بعد زواجها رضاه هو أساس دخولها الجنة، فعن حصين بن محصن أن عمه له أتت النبي ﷺ فقال لها: «أذات زوج؟» قالت: نعم، قال: «فأين أنت منه؟» قالت: ما آله إلا ما عجزت عنه، فقال «فكيف أنت فإنه جنتك نارك»^(١).

وحق الزوج مقدم على حق والديها، كما سيأتى فى حديث البزار، وقد أفتت بذلك لجنة الفتوى بالأزهر الشريف برياسة الشيخ عبد المجيد سليم^(٢).

كما أن طاعتها وعبادتها لربها لا تقبل حتى تطيع زوجها وتوفيه حقه، وسيأتى دليله، وهذا المعنى يكاد يجمع عليه كل العقلاء، حتى من لا يدينون بدين سماوى، إن المرأة اليابانية تتعلم منذ الطفولة أن الرجل هو أهم شيء فى حياتها، وأن زوجها هو فردوسها الوحيد، تتعلم أن الجنة والنار لا يعرفهما إلا الرجال فقط، وأن جنة المرأة الحقيقية هى رضاء الرجل عنها، ونارها هى سخطه عليها، تتعلم أيضاً أن أمامها ثلاثة أبواب تدخل منها الجنة، الباب الأول هو طاعة الأب وذلك قبل الزواج، والباب الثانى هو طاعة الزوج، والباب الثالث هو طاعة الأم لابنها إذا تاملت، لأنها تعتقد أن طاعة ابن الزوج طاعة للزوج، ومن هنا نعرف السرفى أن المرأة اليابانية أحرص النساء على سعادة زوجها، ولا يستطيع أن يباريها فى ذلك نساء العالم^(٣).

روى ابن ماجه وابن حبان عن ابن أبى أوفى قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي ﷺ، فقال: «ما هذا؟» قال يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك، قال «لا تفعل، فإنى

(١) رواه أحمد والنسائي بإسنادين جيدين، والحاكم وقال: صحيح الإسناد - الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٩.

(٢) مجلة الأزهر، مجلد ١٩، ص ٥٥٦. (٣) الأهرام، ١٩٦٢/٨/٥.

لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها، ولو سألتها نفسها وهى على قتب لم تمنعه» (١).

وروى مسلم (٢) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ خطب أم هانئ بنت أبى طالب، فقالت: يا رسول الله: إني قد كبرت ولى عيال، فقال رسول الله ﷺ « نساء قريش خير نساء ركن الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج فى ذات يده » فخافت أم هانئ أن تقصر فى حق زوجها لكبر سنها ولوجود أطفال معها، فأثرت العزبة، ومدحها النبى ﷺ . وقد ذكر ابن منده وغيره أن النبى ﷺ أراد أن يتزوج سودة القرشية، وكانت لها أولاد، فقالت: إنك أحب البرية إلى، وإن لى صبية وأكره أن يتضاغوا عند رأسك، فقال النبى ﷺ « خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره، وأرعاه ليعمل فى ذات يده » (٣). وأورد هذه القصة ابن عبد ربه (٤) فقال: إن علياً عرض على الرسول ﷺ زواج أخته أم هانئ، فخطبها النبى ﷺ، فقالت: والله لهو أحب إلى من سمعى وبصرى، ولكن حقه عظيم وأنا مؤتممة - أى ذات أيتام - فإن قمت بحقه خفت أن أضيع أيتامى، وإن قمت بأمرهم قصرت عن حقه، فقال النبى ﷺ هذا الحديث، والحديث عنها طويل فى الزرقانى على المواهب (٥).

وعن عائشة قالت: أتت فتاة إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني فتاة أخطب. فأكره التزويج، فما حق الزوج على المرأة؟ قال « لو كان من فرقته إلى قدمه صديد فلحسته ما أدت شكره » قالت: أفلا أتزوج؟ قال « بلى، تزوجى فإنه خير » رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبى هريرة، دون قوله « بلى فتزوجى فإنه خير » قال العراقى: ولم أره من حديث عائشة (٦).

(١) الزرقانى على المواهب، ج ٥، ص ١٠٤ . (٢) شرح النووى، ج ١٦، ص ٨٠ .

(٣) الزرقانى، ج ٣، ص ٢٦٩ . (٤) ج ٣، ص ١٩٣ .

(٥) ج ٣، ص ٢٦٩، ٢٧٠ . (٦) الإحياء، ج ٢، ص ٥٣ .

جاء فى «المطالب العالفة»^(١) أن رجلاً أتى بابنة له إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، هذه ابنتى أبت أن تتزوج، فقال لها «أطيعى أباك» كل ذلك ترد عليه مقالته، فقالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرنى ما حق الزوج على امرأته، فقال لها «لو كان به قرح أو ابتدر منخراه دماً أو صديداً، ثم لحسته بلسانك ما أدبت حقه» فقالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج أبداً، فقال «لا تنكحوهن إلا بإذنهن» رواه أبو بكر بن أبى شعبة، وأخرجه البزار، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح، وهو مروى عن أبى سعيد وعن جعفر بن عون .

وإذا كان حق الزوج بهذه الخطورة فإنى سأضع بين يدى المرأة بعض القواعد الأساسية فى معاملتها لزوجها ورعايتها لأسرتها، تتفرع عنها الحقوق التى سأفصلها فى الفصول الآتية :

١- المسئولية المنزلية يقع جزء كبير منها على عاتق الزوجة، بل قد تفوق مسئوليتها فى بعض النواحي مسئولية الزوج، لأنها تكون بالمنزل أشد اتصالاً وأكثر معرفة، وهى بالأطفال ألصق وأعرف بميولهم من أبيهم الذى يمضى أكثر وقته خارج البيت لكسب القوت .

ولا يمكن للمرأة أن تهرب من هذه المسئولية، فهى إن لم تكن مباشرة لأعمال البيت فعلى الأقل مشرفة رقيقة شاهدة على من يقومون بهذه الشئون من الخدم وغيرهم، ولتعلم المرأة أنه سيوازن حتماً بين بيت منظم هادى يثير البهجة فى النفس، ويوحى بالأمن والطمأنينة، وبين بيت تنقبض النفس لرؤيته، ويوحى بالقلق والاضطراب، ويحس من فيه كأنه فى قبر ضيقت عليه جدرانها، أو سجن أطبقت عليه ظلماته، وأول ما يتبادر إلى الذهن فى هذا الشأن هو المرأة، فينسب ذلك إليها، إن حقاً وإن باطلاً، وسمعة الزوجة لها مكانتها وخطورتها، ولهذا كان من حقها أن تسأل أولاً عن الخطة التى يحب الزوج منها أن تسير عليها حتى

(١) ج ٢، ص ٤٦ .

تتشرف بعد بالنتيجة التي تترتب على نشاطها، انظر قصة شريح وزوجته التي ستأتى بعد .

٢- الرجل بحكم تكوينه الطبيعي ووضعه الأدبي له القوامة على المرأة، وقد مر توضيح ذلك فى بحث الحجاب، فلتعامل الزوجة زوجها على ضوء هذه الحقيقة، فلا تحاول أن تسلبه هذا الحق أو تمس قدسيته، ولتعلم أن الرجل الحق لا يقبل أن يهان فى هذه الناحية، وأن الرئيس يجب احترامه كيفما كانت رئاسته، ففى ذلك نظام البيت وهدوء الحياة والحديث الشريف يقول: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة» كما رواه البخارى^(١) ويكفى هذه القوامة قوة وعلو شأن الحديث السابق «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» رواه الترمذى عن أبى هريرة وقال: حسن صحيح^(٢). ومن المتبع عند عقد القران فى روما أن يأمر القسيس الزوجة بطاعة زوجها. وقد قامت حملة نسائية تطلب حذف هذه الجملة عند عقد القران، لأن عهد سيادة الرجل قد ولى، وأصبح الزواج قائماً على التفاهم^(٣). لكن شرع الله لعباده لا يجوز أن يترك من أجل متغيرات جنت البشرية منها ثماراً مرة.

٣- إن الزوجة جعلت للزوج وحده، لا يشركه فيها أحد، والرياسة عليها هى من جهة واحدة فقط، وهى جهة الزواج. وحكمة التشريع فى ذلك هى ضمان النظام والإخلاص فى العمل، وعدم تنازع جهات متعددة لشيء واحد، ليتمكن تحديد المسؤولية، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]. ولهذا يجب على الزوجة أن تكون تصرفاتها كلها من أجله هو، لا من أجل غيره، حتى إن الحق المقدس للوالدين لو تضارب مع حق الزوج كان الحكم له، عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ: أى الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٤.

(١) رياض الصالحين، ص ٢٩٥.

(٣) الأهرام ١٢/٥/١٩٦١.

«زوجها» قلت: فأى الناس أعظم حقاً على الرجل؟ قال «أمه» رواه الحاكم والبخاري، وإسناد البزار حسن^(١) وصححه الحاكم وأقره الذهبي، كما في جمع الجوامع^(٢).

إن الزوج لا يقبل أن تكون هناك جهة أخرى، مهما كانت صلتها به أو بها، تنازعه هذا الحق أو تتدخل فيه بأى قدر كان، ولهذا يجب عليها أن تكون كل خطواتها التي يظن أن فيها مساساً بهذا الحق متوقفة على إذنه وتحت رقابته.

٤- من السهل على الزوج إذا لم يلائمه الجو الذي يعيش فيه أن يغيره في أى وقت شاء، بما يملكه من حق الطلاق وتعدد الزوجات، وليس ذلك بميسور للمرأة، فطريق التغيير صعب، والإجراءات معقدة، وقد ينتهي بها الأمر إلى جو لا يقل في مرارته وشدته عن الجو السابق، والمرأة في احتياجها إلى الرجل أشد من احتياجها إليها، فبصرف النظر عن المتعة الجنسية، يمكن للرجل أن يحصل حاجات المعيشة بكده وسعيه، فقد خلق لذلك أصلاً، لكنها، وهى الضعيفة العاجزة التي لم تخلق للكفاح في تحصيل العيش إلا عند الضرورة، إن انقطعت ولاية الأب عليها ولم تجد زوجاً يكفلها، تعقدت سبل الحياة أمامها، وعزّ عليها كسب العيش من طريق آمن شريف. ومن أجل هذا كان عليها أن تشكر زوجها على حسن عشرته، وألا تجحد معروفه، وأن تعمل جهد طاقتها على جذب قلبه إليها وتهيئة الجو الملائم له، حتى لا يفر إلى عش جديد، ففي يدها مفتاح سعادتها، كما قالت العربية لبنتها: كوني له أمة يكن لك عبداً.

٥- خلق الرجل بطبيعته للكفاح والعمل كما أشرنا من قبل، وهو ما يفهم من قوله تعالى لآدم عليه السلام ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] ولم يقل فتشقياً مع أن النهي موجه إليهما، فالشقاء له وحده لراحتها هى، والقسط الأكبر من مهام الحياة على عاتقه، وهو فى هذا السبيل يتعرض

(١) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٩.

(٢) ج ١، ص ١١٠٦، ورقم الحديث ١٢١ / ٣٥٥٩ طبعة الأزهر.

لعقبات ومتاعب جسمية ونفسية، فلتكن الزوجة له سكوناً يسرى عنه ويهدى من روعه، ويفتح باب الأمل أمامه، ويزيح كابوس الهم واليأس عن نفسه، لتحقيق قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]. وأن تشاركه وجدانياً فيما ينتابه من هذه الأعراض، ليخف وقع الألم على نفسه، وأن تتحمل ما عساه يصدر منه في حال انفعاله من كلمة شديدة أو إشارة مؤلمة، أو نحو ذلك، فهذه كلها متنفس لما يكتب في نفسه من آلام، والمرء لا يحكم عقله دائماً، فللعواطف أوقات تثور وتقوى فيه، ولتتدبر المرأة حالها عند انفعالها وتصرفاتها عند غضبها، وموقف الرجل منها في محاولة تهدئة ثورتها، ولتعتقد تماماً أن أى رجل في الدنيا ليس كما تتصوره هي، فتى أحلامها ثروة وخلقاً، علي ضوء الأشعة البراقة التي انبعثت من معاملته لها قبل أن يضمها إليه، فالرجل بحكم وجوده في معترك الحياة الدنيا معرض لكثير من المؤثرات.

٩- إن الغرض الظاهر للرجل من زواجه هو المتعة، إلى جانب مساعدته في تحمل أعباء الحياة وإنجاب الذرية، وهذا ما جعله يسعى راضياً مشوقاً يطلب يدها من أهلها، باذلاً عن طيب خاطر وسخاء نفس كل ما يفرض عليه من أجلها، وبهذا يجب عليها أن تكون رهن إشارته في هذه الناحية بالذات، متوسلة إليه بكل ما يمكنها لتدخل السرور على قلبه، من حسن هيئة وظرف حديث وسمو أدب. وألا تدخر وسعاً في معونته على الخير لإسعاده دنيا وأخرى، حتى يستطيع متابعة السير بالحياة الزوجية إلى الأمام.

٧- وأخيراً وليس آخراً، لتعلم المرأة أن الرجل الذي وهبها قلبه، وانعطف بكليته نحوها حتى أثر ذلك في الواجبات الأخرى المفروضة عليه، يجب أن تهبه قلبها، وتقصر نظرها عليه وحده، وتسلم إليه روحها فتبادلها حباً بحب، ووفاء بوفاء، وهذا الشعور القلبي المنصهر بحرارة العاطفة النبيلة، والمغلف بغلاف النظرة المثالية، موصل جيد بين قطبي الأسرة، يضمن لتيار السعادة أن ينير البيت

كله، ويبعث الحركة والنشاط في جميع جوانبه « كوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً » .

ولعل مما يشير إلى أهمية الرجل في حياة المرأة ما روى أن « حمنة بنت جحش » جاءها نعى أبيها فقالت: إنا لله . ثم جاءها نعى أخيها فقالت: إنا لله، ثم جاء نعى ابنها فقالت: إنا لله، ثم جاء نعى زوجها فقالت: واحزنناه . ويقال: إن ذلك بلغ النبي ﷺ فقال « إن للزوج من المرأة موقعاً »^(١)، ولا أعلم سنداً لهذا الحديث ولا حكماً عليه .

وعلى ضوء ذلك جاءت وصية اليابانية لبناتها ليلة الزفاف حيث قالت: ضعي زوجك في قدر من العناية، وأحكميه بغطاء الشفقة، وقربيه من نار الحب المتأججة الهينة، تحضلي على وجبة شهية لذيدة^(٢) .

- وعلى ضوء هذه القواعد سأحدث عن حقوق الزوج علي الزوجة محاولاً أن أجعلها في المجموعات الآتية: طاعته، المحافظة على كرامته، المحافظة على شعوره، حسن تدبير المنزل، رعاية الأولاد، الوفاء والإحدااد.. وإليك التفصيل ..

* * *

(١) مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي، ص ٢٠٧ .

(٢) برنامج صباح الخير بإذاعة القاهرة ١٣/٣/١٩٧١ .

الفصل الأول

طاعته

طاعة الزوجة لزوجها واجب عليها بحكم الطبيعة والعقل والدين، وذلك لقوة جسمه وعقله واتزان عواطفه، بقدر أكبر مما عندها، على ما شرحناه في بحث الحجاب، ودولة المنزل لا بد لها من ضابط يضبط شئونها، ومن كبير يرجع إليه، وحاكم يسوس أمرها، ويرشد ضالتها ويحميها من السوء، والرجل بذلك أولى.

كما أنه ليس من الإنصاف أن نحمل الرجل مسؤولية الإنفاق على البيت وحمايته ثم تهمل المرأة شأنه، لا تستجيب لندائه، ولا تلبى دعوته، فتكون هي سبباً في شقاء من يسعى لسعادتها، والمرأة بحكم تكوينها في حاجة ماسة إلى من يعينها ويدفع عنها ويأخذ بيدها لتساير الحضارة والتقدم.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] ويقول ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] وجاء في التوراة قوله للمرأة: «وهو يسود عليك»^(١).

وعلى ضوء هذه النصوص وغيرها مما تقدم توضيحه في الجزء الثاني من هذه الموسوعة يجب على المرأة أن تأتمر بأمر الرجل، وتسارع إلى مرضاته ما أمكنها ذلك، وتضرب عرض الحائط بكل ما يُوحى إليها مما يمس قدسية هذا الحق، فلا تلقى بالألهمسات والدتها أو قريبتها مثلاً، وكذلك لا ينكبها الطريق ما تراه

(١) سفر التكوين، إصحاح ٣: ١٦.

الزوجة في نفسها من ثراء أو حسب فتدلّ عليه بذلك، فإن هذا يوجد عقدة نفسية عند الرجل ربما لا تحل، وهنا يكون الشقاء السريع والخراب الأكيد.

هذه الطاعة لها أثرها البعيد في انتظام سير الحياة الزوجية، وتكون بها الزوجة سكناً أنعم به من سكن، وراحة لا تعدلها راحة، ورحمة شاملة وعزاء لما يلاقيه الرجل في حياته من متاعب، قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١].. وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ومن المشاهد أن الزوجة المطيعة تسرر زوجها، وتقوى حرارة حبه لها في قلبه، فيسارع هو بالتالي إلى تلبية رغباتها وإمتاعها بما تهوى، وربما لا ينتظر حتى تطلب منه ذلك، فإن الرسالة قد وصلت إلى قلبه ممهورة بطاعتها، ومسطراً فيها ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، «كوني له أمة يكن لك عبداً».

إن الأديان السماوية كلها، بل وغير السماوية أيضاً تحذر المرأة من عصيان زوجها، فالكتاب الهندي القديم «بنج تنترا» الذي يقال: إن كتاب «كليلة ودمنة» مأخوذ منه فيه ما يأتي:

إن المرأة التي تتمتع برضا زوجها تعطف عليها جميع الآلهة، أما التي تعصى زوجها وتحرم من رضاه فتعذب في نار جهنم خمسة و ثلاثين مليوناً من السنوات، بعدد المسام التي فوق جسدها^(١).

وجاء في بحث قام به جماعة من المهتمين بالدراسة الاجتماعية في جامعة كولومبيا: أن المرأة اليابانية هي أكثر نساء العالم طاعة لزوجها، وذلك راجع إلى العقيدة الدينية البوذية التي تنص تعاليمها علي أن الزوجة تتجسد روح زوجها بعد الوفاة، وتعود إلى الدنيا من جديد في هيئة رجل، ويفسر ذلك كثرة حالات الانتحار بين النساء اليابانيات^(٢).

(٢) جريدة الشعب: ١٩٥٨/١٢/٣.

(١) مجلة المصور: ١٩٥٥/٢/٥.

ولأهمية هذه الطاعة رتب عليها الإسلام جزاء يعدل جزاء العبادات كالصلاة والحج والجهاد، كما يتبين ذلك من حديث أسماء وافدة النساء الذي تقدم، كما رتب على المعصية عقاباً شديداً، ويتبين كل ذلك من النصوص التالية:

١- حديث أم سلمة عن النبي ﷺ «أبما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة» رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه^(١).

٢- حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت בעلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت» رواه ابن حبان في صحيحه^(٢).

٣- حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرتة، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله» رواه ابن ماجه^(٣).

٤- حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرتة، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله» رواه ابن ماجه وأحمد، ورواه مسلم بدون قوله «نظر إليها.. إلخ»^(٤) ويرجع إلى تفسير ابن كثير^(٥).

٥- حديث ابن عباس عن النبي ﷺ «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً، رجل أم قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان» رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وروى الترمذى نحوه من حديث أبي أمامة وحسنه^(٦).

٦- حديث ابن عمر عن النبي ﷺ «اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما،

(١) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٩.

(٢) الترغيب، ج ٣، ص ٥.

(٣) الترغيب، ج ٣، ص ٥٦.

(٤) الترغيب، ج ٣، ص ١٣.

عبد أبق من مواليه حتى يرجع، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع» رواه الطبراني بإسناد جيد، والحاكم^(١).

٧- خرج رجل في سفر وعهد إلى امرأته ألا تنزل من العلو إلى السفل، وكان أبوها في السفل، فمرض، فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذنه في النزول إلي أبيها، فقال عليه الصلاة والسلام «أطيعي زوجك» فمات. فاستأذنته، فقال لها «أطيعي زوجك» فدفن أبوها، فأرسل الرسول ﷺ إليها يخبرها «أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها» رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف^(٢). كما حكم بضعفه في تعليقات «المطالب العالية»^(٣).

٨- حديث ابن عمر عن النبي ﷺ «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس» وورد مثله عن سهل بن سعد، رواه البخاري^(٤)، وفسر النبي ﷺ شؤم المرأة بأنها تعرف غير زوجها، فتحن إلى الأول، كما رواه ابن عمر وأخرجه الحافظ الدمياطي بسند صحيح^(٥). وفسر شؤمها بعدم ولادتها وسلطة لسانها وتعرضها للريب ولا مانع من إرادة عدم طاعتها، ويراجع توضيحه في «غذاء الألباب»^(٦).

٩- حديث عائشة أن أبا هريرة كان يقول: إن النبي ﷺ قال «الشؤم في ثلاثة أشياء، في الدار والمرأة والفرس» فقالت عائشة: لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله ﷺ يقول «قاتل الله اليهود، يقولون: الشؤم في ثلاثة، في الدار والمرأة والفرس» فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله، رواه أحمد من طريق أبي حسان، قال البوصيري: رجاله ثقات، ومثله لأبي داود الطيالسي عن مكحول عن عائشة^(٧). ويراجع في نيل الأوطار^(٨).

(١) المرجع السابق.

(٢) الإحياء، ج ٢، ص ٥٢.

(٣) ج ٢، ص ٤٧.

(٤) ج ٧، ص ١٠ طبعة الشعب.

(٥) حياة الحيوان الكبرى، ج ٢، ص ١٤١ مادة فرس.

(٦) ج ٢، ص ٣٤٢.

(٧) المطالب العالية، ج ٢، ص ٨.

(٨) ج ٧، ص ١٩٥.

١٠- حديث قرّة أو معاوية بن قرّة عن النبي ﷺ « ثلاث من نعيم الدنيا وإن كان لا نعيم لها، مركب وطيء، والمرأة الصالحة، والمنزل الواسع » أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بسند رجاله ثقات (١).

إلى غير ذلك من النصوص التي ستأتى فى تمكينه من التمتع وفى غيره من الفصول، وقد تقدم فى بحث الإنفاق عليها فى الباب الأول أن الشرع أباح لها الكذب فى سبيل إرضاء زوجها.

وبلغ من احترام الزوجة فى العصر الأول لهذا الحق أن آثرت طاعة زوجها على كل متعة فى الدنيا، مهما بلغ حرص بنات جنسها عليها، بل امتد هذا الاحترام إلى ما بعد موت الزوج تقديساً للرابطة السابقة، وخوفاً من أن يكون غرض الزوج فى هذا الأمر ممتداً إلى هذه الفترة.

ومن أعظم ما يؤثر فى ذلك ما نقله السيوطى فى تاريخ الخلفاء (٢) عن فرات بن السائب قال: قال عمر بن العزيز لامرأته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله: اختارى، إما أن تردى حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذنى لى فى فراقك، فإنى أكره أن أكون أنا وهو وأنت فى بيت واحد، فقالت: لا، بل أختارك عليه وعلى أضعافه. فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين، فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك أخوها قال لأخته: إن شئت رددته إليك، قالت: لا، والله لا أطيب به نفساً فى حياته وأرجع فيه بعد موته.

بل بلغ من حرص المسلمة الأولى على هذا الحق أن نفذته تنفيذاً حرفياً، خوفاً من أن يغير التأويل ما قصد إليه الزوج من الأمر، وهو أشبه بالطاعة العمياء التى يجرى ذكرها على الألسنة فى العصر الحديث. وإليك هذا المثل الرائع من نساء سلفنا الصالح الذى وعدتك به عدة مرات.

(٢) ص ١٥٤.

(١) المطالب العالية، ج ٢، ص ١٥٥.

ذكر ابن عبد ربه في «العقد الفريد»^(١) والأبشيهي في المستطرف^(٢) عن الهيثم بن عدى الطائي أن الشعبي قال له شريح القاضي^(٣): عليك يا شعبي بنساء بنى تميم، فيأني رأيت لهن عقولاً، قال: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهم، فإذا أنا بعجوز على باب دار، وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى، فعدلت فاستسقيت وما بي من عطش، فقالت: أى الشراب أحب إليك؟ فقلت: ما تيسر، قالت: ويحك، يا جارية أتتبه بلبن فيأني أظن الرجل غريباً، قلت: من هذه الجارية؟ قالت: زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة، قلت: فارغة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة، قلت: زوجينيها، قالت: إن كنت لها كفاء، ولم تقل: كفوا، وهى لغة تميم، فمضيت إلى المنزل، فذهبت لأقيل، فامتنعت منى القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بأيدى إخوانى من القراء الأشراف، علقمة والأسود والمسيب وموسى بن عرفطة، ومضيت أريد عمها، فاستقبل، فقال: يا أبا أمية، حاجتك؟ قلت: زينب بنت أخيك، قال: ما بها رغبة عنك. فأنكحنيها، فلما صارت فى حبالى ندمت وقلت: أى شىء صنعت بنساء بنى تميم؟ وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أضمها إلى، فإن رأيت ما أحب، وإلا كان ذلك، فلو رأيتنى يا شعبي، وقد أقبل نساؤهم يهدينها حتى أدخلت على، فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلى ركعتين، فيسأله الله من خيرها، ويعود به من شرها، فصليت وسلمت، فإذا هى من خلفى تصلى بصلاتى، فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريتها، فأخذن بثيابى، وألبستنى ملحفة قد صبغت فى عكر العصفور، فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلى

(١) ج ٢، ص ١٩٢.

(٢) ج ٢، ص ١٨٤.

(٣) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر، أبو أمية قاضى الكوفة، فى عام وفاته خلاف، وهو مذكور فى طبقات ابن سعد، قيل: إنه توفى سنة ٧٥هـ، كما فى النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٩٤.

ناحيتهأ فقالت : على رسلك يا أبا أمية، كما أنت، ثم قالت : الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلى على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأزجر عنه، وقالت : إنه قد كان لك في قومك منكح، وفي قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمراً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولك .

قال : فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت : الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلى على النبي وآله وأسلم، وبعد فإنك قد قلت كلاماً إن تثبتني عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقي، وما رأيت من حسنة فأنشرها، وما رأيت من سيئة فاستريها، وقالت شيئاً لم أذكره، كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت : ما أحب أن يملني أصهارى، قالت : فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن لهم، ومن تكرهه أكرهه، قلت : بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء، قال :

فبت يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حولاً لا أرى إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء فإذا أنا بعجوز تأمر وتنهى في الدار، فقلت : من هذه؟ قالوا : فلانة ختنك، فسرى عنى ما كنت أجد، فلما جلست أقبلت العجوز فقالت : السلام عليك يا أبا أمية، قلت : وعليك السلام، من أنت؟ قالت : أنا فلانة ختنك، قلت : قربك الله، قالت : كيف رأيت زوجتك؟ قلت : خير زوجة، فقالت لى : يا أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالتين، إذا ولدت غلاماً، أو حظيت عند زوجها، فإن رابك ريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتها شراً من المرأة المدللة، قلت : أما والله لقد أدبت فأحسن الألب، ورُضت فأحسن الرياضة، قالت : تحب أن يزورك أختانك؟ قلت : متى شاءوا، قال : فكانت تأتيني في رأس كل حول توصيني تلك الوصية، فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة،

وكنت لها ظالماً، أخذ المؤذن فى الإقامة، بعدما صليت ركعتى الفجر، وكنت إمام الحى، فإذا بعقرب تدب، فأخذت الإناء فكفاته عليها، ثم قلت : يا زينب لا تتحركى حتى آتى، فلو شهدتنى يا شعبى وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها، فدعوت بالكُست والملح، فجعلت أمغث أصبعها، وأقرأ بالحمد والمعوذتين، وكان لى جار من كندة يفرع امرأته ويضربها، فقلت فى ذلك :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يمينى حين أضرب زينبا
أضربها من غير ذنب أتت به فما العدل عندى ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تبد منهن كوكبا

هذا، ولكن إلى أى حد تطيع الزوجة زوجها، هل الطاعة لها مجال محدود، أو تتخطى كل حد فيكون الزوج حاكماً بأمره، والمرأة خادماً منفذة؟ على ضوء الكلام الذى أسلفناه فى حق تأديب الزوج زوجته عند خوف النشوز نبحث هنا فيما يجب عليها أن تطيعه فيه، ومهما يكن من شىء فإن مدى الطاعة يمكن أن يكون بالصورة الآتية :

(أ) الطاعة فى كل ما تؤمر به ما دام الزوج يرى أنه يدخل السرور على قلبه، حتى لو كان هذا الشىء لا يقره الدين، ولا توافق عليه التقاليد الكريمة، بل حتى لو كان يحملها ما لا طاقة لها به .

(ب) الطاعة المحددة بحددين، أن يكون المأمور به فى حيز الإمكان والقدرة، وألا يعارض الدين أو التقليد الكريم، سواء أكان المأمور به يتصل بالحياة الزوجية أو لا يتصل بها .

(ج) الطاعة فى المقدور عليه والذى لا يعارض الدين أو التقليد، والذى يتعلق بالحياة الزوجية، كالمتمتع وتربية الأولاد وخدمة الزوج وما شاكل ذلك، دون ما يكون له جهة اختصاص أخرى تطلبه كالعبادات الخالصة لوجه الله تعالى، وما يخوله لها حرية التصرف .

(د) الطاعة فى أمرين اثنين مما تقتضيه الحياة الزوجية، أو مما يتصل بها، وهما ما تسقط بالمخالفة فيهما النفقة الواجبة لها على الزوج، وهما المتعة الخالصة ولزوم البيت، دون غيرهما من الخدمة ونحوها، فذلك تبرع ومعروف، يقول النووى فى شرح صحيح مسلم^(١) عند ذكر غسل السيدة عائشة لرأس النبى ﷺ: وفيه جواز استخدام الزوجة فى الغسل والطبخ والخبز وغيرها برضاها، وعلى هذا تظاهرت دلائل السنّة وعمل السلف وإجماع الأمة. وأما بغير رضاها فلا يجوز. لأن الواجب عليها تمكين الزوج من نفسها وملازمة بيته فقط.

وفى موضع آخر^(٢) قال عند التعليق على حديث أسماء بنت أبى بكر فى خدمة زوجها الزبير: هذا كله من المعروف والمروءات التى أطبق الناس عليها، وهو أن المرأة تخدم زوجها بهذه الأمور المذكورة ونحوها من الخبز والطبخ وغسل الثياب وغير ذلك، وكله تبرع من المرأة وإحسان منها إالى زوجها وحسن معاشرة وفعل معروف معه، ولا يجب عليها شىء من ذلك، بل لو امتنعت من جميع هذا لم تأثم، ويلزمه هو تحصيل هذه الأمور لها، ولا يحل له إلزامها بشىء من هذا، وإنما تفعله المرأة تبرعاً، وهى عادة جميلة استمر عليها النساء من الزمن الأول إالى الآن، وإنما الواجب شيئان، تمكينها زوجها من نفسها وملازمة بيته. اهـ.

إن الصورة الأولى لا يقول بها إلا المتحللون من قيود الدين والتقاليد الصحيحة، يريدون أن يشبعوا من كأس الحياة المترعة بكل أنواع اللهو والزينة، فنرى بعضهم يلزم زوجته أن تغشى معه المجتمعات الصاخبة، وتصحبه فى كل تنقلاته المرحمة الممتعة، بكامل زينتها التى يسعى جاهداً متفنناً فى إحضارها لها، حتى يُدلى على الناس بغزاله المكحول المدلل، وهذا - بالطبع - أمر لا يقره الدين، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، كما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد والحاكم عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري، وقد ورد بالفاظ أخرى من طرق صحيحة، مثل «إنما الطاعة فى المعروف».

(١) ج ٣، ص ٢٠٩.

(٢) ج ١٤، ص ١٦٤.

وقد أفسدت المدنية المزاج الدينى، ونظر هؤلاء إلى الحياة من خلال منظار مزخرف، يريهم الحياة كألوان الطيف التى يرسمها المنشور البلورى، فعندما توجد مصادمات بين زوج من هذا الطراز وزوجة قد تكون محافظة نوعاً على تقاليد الشرف والدين، رأينا تيار الاعتراض عليها شديداً قوياً من قوم كرعوا من كؤوس التمدن الحديث، ويودون أن يُترك هذا الصيد الطيب حراً طليقاً من كل قيد لتنهشه سباع البشر الضارية بالنظرات المغرضة وتتقاذفه بالغمزات الدنيئة، إن لم يكن شىء أكبر من ذلك.

وهذه النظرة تكشف القناع عن قوم نرعت من قلوبهم الرحمة، يعيشون فى البيوت كالوحوش الكاسرة، يفرضون سلطانهم الذى لا يقهر بهذا الشكل دين أو عقل سليم. فيكلفون الزوجة بتنفيذ كل ما يروونه حتى لو كان فوق الطاقة، ومثل هذه الحالة لا تؤدى إلا إلى انفجار قوى يأتى على العقدة الزوجية، وعلى السعادة المرتقبة من الزواج.

والصورة الثانية وحى من طلب الكمال فى أرقى أشكاله وصوره للحياة الزوجية، فهى تقضى على المرأة أن تنفذ كل ما يهواه زوجها من كل ممكن لا يناقض ديناً ولا عقلاً سليماً، وهذه هى المرتبة السامية التى لا تتحقق إلا فى البيوت النموذجية والزوجية المثالية، والمرأة بهذا تكون قد بلغت حداً من الرقى الخلقى والسمو الروحى يصح أن تكون فيه هى المعنية بقول رسول الله ﷺ لوافدة النساء «وقليل منكن من يفعله» وهو حسن تبعل الزوجة لزوجها، أى المعاشرة بالمعروف.

والمعقول الذى لا يجافى الحياة الواقعية، ويقارب بينها وبين الزوجية المثالية أن تطيع زوجها حتماً فيما هو من أغراض الزوجية، وما فوق ذلك فهو من المستحسن الذى تؤديه بقدر الإمكان، وهو ما يفيد كلام النووى السابق، ونحن حين نتحدث عن حقوق الزوجية لا نريد منها خصوص المفروض، بل نريد ما يشمل المندوب، تعميماً للمعروف الموصى به، وهو ما يسمو بالحياة الزوجية، لا ما يجعلها تسير سيراً بطيئاً أو تعيش عيشة غير مرموقة.

والصورة الثالثة نظرة طيبة أيضاً ولاشك، إلا أن السعادة الزوجية المترتبة عليها تكون دون المرتبة السابقة، فإن الأمور الخارجة عن حدود المقتضيات الزوجية كثيرة ومتشعبة، وهي وإن كانت لها جهات اختصاص أخرى فإنه يصعب فصلها بوجه خالص عن اختصاصه فيها كزوج، فهو على الأقل يتصل بها كفرد عادى مع امرأة عادية، كلاهما عضو فى المجتمع الإسلامى العام، فعصيانهما فى هذه الأمور يقع اللوم عليها إلى حد ما، وهو ما يجدر بالمرأة أن تتلافاه بقدر الإمكان، لأن الزوج يجب أن تكون زوجته كاملة بقدر المستطاع، وهذا أدعى إلى الإنسجام والتعاون الكامل فى خدمة الحياة الزوجية.

والصورة الرابعة هى فى الحقيقة مراعاة للحد الأدنى فى تكييف ارتباط الزوجة بزوجها، فإن المقصود الأهم من الزواج هو المتعة وما يتصل بها لتؤدى على الوجه الصحيح، وهو ما كان مبرراً لنقل اختصاص الإنفاق عليها من ولى أمرها إلى الزوج، فإن عصته فى ذلك لم تستحق أن تكافأ بالإنفاق على شىء لم يكن هناك ما يقابله.

والوقوف عند هذا الحد من الطاعة حرص الإسلام عليه أشد الحرص، فإن الإخلال به يهوى بالأسرة إلى الحضيض، ولكن لا أراه مبشراً بالخير الذى نرجوه للأسرة التى تستحق أن تسجل فى سجلات العوامل الفعالة فى إسعاد المجتمع، فإن السعادة طرقها متشعبة، ينبغى أن تسلك المرأة منها ما تستطيع، وأن تسابق البيوت الأخرى فى جعل البيت روضة يفيض عبيرها، ومنازة يشع ضياؤها، فيهدى إلى خير الطرق لرفعة الوطن ومجد الإنسانية.

هذه هى النظرات واضحة أمامك، وتلك هى النصوص الدينية وروحها، فطبقتها بما يميل بك نحو الكمال.

وحد الطاعة ومداهما محله إذا لم يكن هناك شروط بين الزوجين، فإن كانت فلا بد من مراعاتها، فالمؤمنون عند شروطهم.

يقول الشعراني فى كتابه «كشف الغمة»^(١): كان عمر يقول: إذا تزوج

(١) ج ٢، ص ١١١.

الرجل المرأة وشرط لها ألا يخرجها من مصرها فليس له أن يخرجها بغير رضاها، وكان عليّ إذا سئل عن ذلك قال: شرط الله قبل شرطها، يعني قوله تعالى: «أسكنوهن من حيث سكنتم» [أخرج الترمذي هذين القولين، كما جاء في كتاب: حسن الأسوة].

وقال عمر: لا يتزوج الأعرابي المهاجرة ليخرجها من دار هجرتها، وجاءته امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين إن هذا تزوجني وشرطت عليه داري، فقال: لك شرطك، فقال الرجل: هلكت الرجال إذا، لا تشاء امرأة أن تطلق زوجها إلا طلقت، فقال عمر: المسلمون علي شروطهم عند مقاطع حقوقهم. لكن قال ابن عمر: رفع إلي عمر رجل وامرأة أراد زوجها أن يسافر بها، فمنعه أهلها، فقال: المرأة مع زوجها، ولو شرط عليه أهلها ألا يخرجها.

قال المصنف: الأمر في ذلك راجع إلي الحاكم، فان رأى ضرر المرأة بالنقلة أشد من ضرر الزوج حكم لها بعدمها، أو ضرر الزوج بعدم النقلة أشد حكم له بنقلها، وهذا توفيق حسن، يطبق على كل ما يشرط بين الزوجين، فيما لا يعارض كتاب الله وشروطه، فيقدم أفخهما ضرراً ويتحمل.

هذا، وقد حكم شريح بتنفيذ شرط البقاء في دارها وعدم رحيلها مع زوجها^(١)، وذلك في حكاية طريفة مع عدى بن أرطاة، وحكى عن أبي حنيفة أنه رأى خروجها مع زوجها^(٢). وقد تحدث ابن بطوطة عن نساء جزر مالديف وسهولة الزواج بهن، وحسن خدمتهن للأزواج، ورغبتهن في زواج الأجانب القادمين بالمراكب، وطلاقهن منهم عند سفرهم، لعدم الموافقة علي خروجهن من بلادهم أبداً، وقال: إن المرأة لا تكل خدمة زوجها لغيرها، ومن عادتتهن ألا تأكل معه، ولا يعرف هو ما تأكله^(٣). وتحدث أيضاً عن نساء «زبيد» باليمن، غير أنهن يوافقن على سفر الزوج دون طلاق، ويتعهدن بتربية الأولاد حتى يرجع،

(١) العقد الفريد، ج ١، ص ٢١٤. (٢) هامش المستطرف: كتاب الأذكياء.

(٣) مهذب ابن بطوطة، ج ٢، ص ١٩٧.

ولا توافق أبداً على مفارقة وطنها . وقد تقدم فى الجزء الأول حكم الاشتراط فى عقد الزواج «ص ٣٨٤» .

ولأهمية حق التمتع سأحدث عنه بشيء من التفصيل :

لقد وردت فيه آثار كبيرة تشيد بأهميته، وتحث على الوفاء به، وتحذر أشد التحذير من التقصير فيه، وفى الآثار السابقة فى وجوب طاعة الزوجة لزوجها ما يدل على هذا الحق بطريق العموم، وهذه بعض الأدلة الخاصة التى تنص عليه صراحة أو من وجه قريب .

١- عن أبى علي طلق بن على عن النبى ﷺ أنه قال «إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور» رواه النسائى والترمذى، وقال : حسن صحيح، ورواه ابن حبان فى صحيحه^(١) .

٢- عن زيد بن أرقم عن النبى ﷺ قال «المرأة لا تؤدى حق الله حتى تؤدى حق زوجها كله، لو سألها وهى على ظهر قتب لم تمنعه نفسها» رواه الطبرانى بإسناد جيد^(٢) والقتب هو رحل البعير، وذلك كناية عن السفر. ورواه أبو داود من طريق الأفريقى وهو ضعيف لضعف الأفريقى، كما فى المطالب العالية^(٣) .

٣- عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح» رواه البخارى ومسلم^(٤) .

٤ - وفى رواية لهما «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح»^(٥) .

٥ - وفى رواية أخرى «والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»^(٦) .

(١) رياض الصالحين، ص ١٤٤، الترغيب، ج ٣، ص ١٣ .

(٢) الترغيب، ج ٣، ص ١٣ . (٣) ج ٢، ص ٤٨ .

(٤) (٥، ٦) رياض الصالحين، ص ١٤٣، الترغيب، ج ٣، ص ١٣ .

٦- عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال « لا تؤذى امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه - قاتلك الله - فإنما هو دخيل عندك، يوشك أن يفارقك إلينا» رواه الترمذى: وقال حديث حسن^(١).

٧- روى أن النبي ﷺ كان يقول «لعن الله المسوفات، التي يدعوها زوجها إلى فراشه فتقول: سوف، حتى تغلبه عيناه»^(٢).

ولتعلم الزوجة خطورة التقصير في هذا الحق، فإن ذلك بمثابة قطع دائرة التيار الكهربى، والحيلولة دون سريانه لإشاعة النور والحركة، والرجل عند التقصير في هذا الحق سيكون بين أمرين، إما أن يستبدل بها زوجة أخرى، ليتم وجود المجال المغناطيسى أو مرور التيار الكهربى، وإما أن يضم إليها أخرى، تكمل له النقص الذى أحدثه عصيانها، وتعيش هي كمية مهملة، لا تعامل بما كانت تحب أن تعامل به، وفي هذه الحالة تكون الضرة قذى في عينها أو شجا في حلقها، شاركتها عطف الزوج إن لم تستبد به وحدتها.

على أن هذا ربما كان صورة خفيفة للنتيجة الحتمية بالنسبة إلى ما جعله الشرع من حق الزوج في معاملة زوجته الناشز، وهو سقوط نفقتها وسقوط القسم لها مع الضرة على ما سبق بيانه، وهذان أمران لا طعم للحياة الزوجية معهما، والمرأة العاصية حينئذ تكون هي المعلقة الحقيقية، التي لا هي مطلقة حتى يأويها زوج آخر، ولا هي متزوجة تنعم بالنفقة والمبيت في المضجع مع الرجل.

هذا هو الأثر المتوقع من عصيانها. على أن الأمر ربما يصيب الزوج بضرر بالغ إن اشتدت شهوته وتحكمت، ولم يكن هناك منفذ سريع لها بطاعة زوجته، وذلك أمر معروف طبياً ونفسياً، أما الأثر الدينى فقد سبق بيانه فى الأحاديث، وناهيك بلعنة الله لها ولعنة الملائكة والحور العين.

لكن إيجاب التمكين عليها قد يسقط فى حالات، بل لا يجوز لها أن تؤذيه، وقد قال ابن تيمية فى «السياسة الشرعية»^(٣): وللرجل عليها أن يستمتع

(٢) كشف الغمة للشعرانى، ج ٢، ص ١٠٦.

(١) رياض الصالحين، ص ١٤٥.

(٣) ص ١٧٧، طبعة الشعب.

بها متى شاء، ما لم يضربها، أو يشغلها عن واجب آخر، ويظهر ذلك فى الصور الآتية:

١- وجود حالة الحيض أو النفاس، وقد سبق بيان ذلك فى الباب السابق عند الكلام عن حق الإعفاف.

٢- أن يكون أحدهما صائماً صوماً واجباً، وذلك أن الجماع محرم ويفسد الصوم باتفاق الأئمة، ويوجب كفارة مغلظة: عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، ووجوبها عند أبى حنيفة مشروط بالاختيار والتعمد، وعند المالكية مشروط بصيام رمضان مع التعمد والاختيار والعلم بحرمة الفطر، وعند الحنابلة، واجبة على الواطئ من غير فارق بين العالم والمتعمد والمختار وبين غيرهم، وعلى الموطوء بشرط الاختيار والعلم بالحكم، وعند الشافعية مع العمد والاختيار والعلم بالتحريم، وذلك مع شروط أخرى مفصلة فى كتب الفقه.

أما الصوم المندوب فلا يمنع من وجوب التمكين، فإن الواجب، وهو إجابة الزوج - مقدم على المندوب وهو الصيام، وفى ذلك حديث سيأتى.

وعند وجود حالة الحيض والنفاس والصوم يجب تغييره بما يستطيع من فعل أو قول، فإن أكرهت - وذلك موكول إلى تقديرها وتدينها - فلا يلحقها إثم بالتمكين.

لكن لو اشتد شبق الزوج وخاف أن يحدث له ضرر بحبس الماء، وهو فى نهار رمضان، كما يحدث فى الأيام الأولى للزواج، جاز له أن يستخرج ماءه بأية وسيلة غير الجماع، بشرط ألا يكون فيها إفساد الصوم لغيره، كما نص عليه الإمام أحمد، بل قد روى عنه إباحة الفطر له والتكفير عنه، لكن لو اتفق له مثل هذا الحال فى فترة الحيض لم يجز له الوطء قولاً واحداً، كما ذكره ابن القيم فى «بدائع الفوائد»^(١) وتقدم ذكره فى الباب الأول ويراجع الجزء الأول من هذه الموسوعة «ص ١٥٦».

(١) ج ٢، ص ٩٦.

٣- أن يكون أحدهما محرماً بحج أو عمرة، فإن الجماع يفسدها، وهو يفسد إحرام أحد الطرفين عند المالكية إن وقع قبل رمى جمرة العقبة يوم النحر وقبل طواف الإفاضة، وقبل مضى يوم النحر، سواء وقع بعرفة أو بعده، وسواء وقع الجماع عن عمد أو سهو أو جهل، ويلزمه إتمام أعمال الحج وقضاؤه ونحر الهدى عند زمن القضاء، وعند الحنفية يفسد حجها معاً إن وقع قبل الوقوف بعرفة من البالغ العاقل، ويستوي فيه العمد والنسيان والاختيار والإكراه، ويجب الإتمام والقضاء والنحر، وعند الشافعية يفسده إذا كان مع العلم والعمد والاختيار، وكان قبل التحلل الأول، وإن كان محرماً أيضاً قبل التحلل الثاني وإن لم يفسده، وعليه مع ذلك الإتمام والقضاء والنحر.

٤- أن يكون بأحدهما مرض مُعد ينتقل بوساطة المباشرة الجنسية، وتقدم ذلك في الباب الأول.

٥- أن تكون الزوجة مريضة مرضاً لا تتحمل معه المباشرة الجنسية، أو تضاعفه بخطورة، فلها الامتناع عن إجابة رغبته، نزولاً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقول النبي ﷺ «لا ضرر ولا ضرار»، وتقدم ذلك في الباب الأول. ومن الواجب على الزوج أن يراعى هذه الحالة، فلا يحتم طلبه، ومن الوفاء أن يشاركها في شعور الألم، وقد يخفف ذلك من حدة ما يجده، والراحمون يرحمهم الرحمن.

٦- أن تتألم المرأة من الجماع تألماً ظاهراً لا يحتمل، كما لو كانت صغيرة وهو عيّل - طويل الذكر - فلها حينئذ الامتناع، بل لها أن ترفع الأمر إلى الحاكم تمهيداً لفسخ النكاح.

٧- إعسار الزوج بالنفقة الواجبة عليه لها، كما تقدم ذكره في بحث الإنفاق عليها.

هذه هي الأعذار الشرعية التي تسوغ للمرأة عدم الوفاء بهذا الحق للزوج، أما ما وراء ذلك من أعذار فلا وزن له، وذلك في مثل الأحوال الآتية:

١- انشغالها بأمر مهم، كإعداد الطعام الذى لو تركته لفسد، وقد علمت من النصوص أن الشرع لا يعتبره مسوغاً للامتناع، فعليها إجابته ولو كانت أمام التنور، أو على ظهر قتب، والمهم الذى تخشى هى فساد لو أجابت الزوج، تقع مسئوليته كلها على عاتقه لأنه تسبب فيه، على أن التلف الدنيوى لا يساوى شيئاً أمام رضا الله لرضاء زوجها عليها، فلتؤثر ما يبقى على ما يفنى .

٢- زهداها فى الجماع لإجهاد نفسها فى عمل أو سفر أو فكر شاغل أو إرضاع يقلل من رغبتها الجنسية أو وحم أو ما إلى ذلك من الأمور الطارئة المؤقتة، فهذه ليست من المسوغات للامتناع، لأنها إن كانت زاهدة فى المباشرة فلا تقس حالة الزوج على حالتها، ولتتحمل هى بعض الألم حتى تفادى آلاماً قد تسبب أخطاراً للزوج عند غلبة شهوته، وارتكاب أخف الضررين واجب أن يراعى، ولتخش لعنة الله للمسوفات كما سبق فى الحديث .

على أنى أنصح الزوج بمراعاة ظروف الزوجة فى هذه الناحية، فيختار الأوقات والظروف المناسبة لتهيؤ نفسها للمباشرة، فذلك أدعى لتمام المتعة، كما نصح به الأطباء وأكده الواقع، ولا يعجلن بالثورة عليها إن تباطأت عنه، حتى لا يقع فيما وقع فيه أوس بن الصامت مع زوجته خولة، وقد تقدم .

٣- بقيت مسألة يكثر السؤال عنها واختلاف الرأى فيها، وهى تعلق المرأة لعدم التمكين بالحياء من أولاد كبار يجمعهم مع أبويهم مكان واحد لا معدل عنه إلى مكان آخر، كالمساكنين فى حجرة واحدة، أو الحياء من ضررتها التى تشاركها هذا المكان الوحيد، مع العلم بأن المباشرة لا تتم إلا تحت سمع هؤلاء أو بصرهم، فهل هذا مسوغ شرعى للامتناع؟

أما وجود الضرة فقط فالأمر فيه هين، إذ جعله بعض العلماء غير مانع من المباشرة، فهى ليست امرأ غريباً عليها، حيث قد ألفته الضرتان . لكن البعض الآخر جعله مسوغاً للامتناع، متعللاً بمنافاته للذوف الإسلامى الذى ينصح بستر

الجماع عن الغير، أياً كان هذا الغير، وعدم إفشائه بأى وجه من الوجوه، عن طريق السمع أو البصر أو الكلام، وهو لا يتناسب مع مراعاة شعور الضرة التي قد تتحرك فيها العوامل الجنسية حينذاك ولا سبيل لما تريد. وهذه وجهة نظر لها وزنها، لأنها تعتمد على مراعاة الذوق والأدب وتقدير شعور الغير، وهى أحرى أن تندرج تحت حكم المستحب والمكروه، ولا تتعداه إلى دائرة الواجب والحرام، وكان الصحابة يتخرجون منه^(١). وجاء فى معجم المغنى لابن قدامة الحنبلى^(٢) أنه لا يجوز أن يجامع واحدة بحيث تراه الأخرى حتى عند رضاها، وجاء فى دليل الطالب على مذهب أحمد بن حنبل للشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى وحاشية الشيخ محمد بن مانع^(٣) أنه مكروه، وقيل: حرام، وهو المختار، سواء تراه الأخرى أو غيرها.

وعند المالكية: قال الشيخ خليل فى المختصر: ولا يجوز جمعهما فى فراش ولو بلا وطء، فيلزمه لهذا، ومراعاة للعدل بينهما الواجب عليه أن يجعل لكل واحدة فراشاً مستقلاً، ثم إن كانتا فى بيتين أو فى دارين فالأمر واضح، وإن كانتا فى بيت واحد لزمه أن يفصل بينهما بفاصل، بشرط أن يكون صفيقاً، بحيث لا تسمع منه إحدى الضرتين ما يقع من الزوج مع الضرة الأخرى مما هو مثار الغيرة بينهما، ولأنه يجب ستر ما يقع بين الزوجين ولو عن زوجة أخرى^(٤).

وأما وجود الأولاد الذين يعقلون معنى المباشرة الجنسية، ويتأثرون برؤيتها أو سماع ملابسها أو حكاية حالها، فالوجه الحق أنه مانع من وجوب التمكين على الزوجة، بل لا يليق بالزوج أن يقوم به، أو يقدم عليه، وذلك لأن الرسول ﷺ أمر بستر الجماع بكل الوسائل الممكنة، ووردت فى ذلك عدة أحاديث تشنع على الذين لا يتخرجون من إفشائه، ومن أوضحها ما ورد عن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله ﷺ، والرجال والنساء قعود عنده، فقال «لعل رجلاً

(١) كشف الغمة، ج ٢، ص ١٠٢.

(٢) ص ١٠٥٣، طبعة الكويت.

(٣) ص ٢٥٠.

(٤) مجلة الإسلام، مجلد ٤، عدد ٥.

يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها « فأرّم القوم - سكتوا - فقلت: أى والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن، قال « فلا تفعلوا، وإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون » رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب، وروى البزار مثله عن أبى سعيد الخدرى، وله شواهد تقويه^(١).

ويقول ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يتسافد الناس فى الطريق تسافد الحمير، فيأتىهم إبليس فيصرفهم إلى عبادة الأوثان^(٢). فلو أمكن أن يتم الاتصال بالزوجة سرّاً دون أن يشعر بذلك أحد وجب عليها التمكين.

وهنا وجه يمانع فى اعتبار هذه الحالة من مسوغات الامتناع، ويرى أن الستر مطلوب من الزوجين، لكن يعارضه مطلوب آخر وهو التمكين من جهة الزوجة، وهو واجب، فيقدم الواجب الثانى لتعلقه بحق العبد، على الواجب الأول - إن كان واجباً لا مستحباً - لتعلقه بحق الله، وحقوق العباد مبنية على المشاحة - كما يقولون - وحقوق الله مبنية على المسامحة، لكن يعارض ذلك بأن الستر أيضاً فيه شائبة اتصال بحقوق العباد، وهى مراعاة ظروف الغريزة عند الحاضرين، ورحمتهم بعدم إثارتها خشية ضرر يترتب عليها، فالأولى أن يقال: إن الواجب الثانى - وهو التمكين - مشروط بالواجب الأول - إن قلنا بوجوبه - وهو الستر، منعاً للتعارض بين الواجبين، فيكون هناك واجب واحد تجب مراعاة شروطه^(٣).

وإذ قد تبين أن عصيان الزوجة لزوجها فى هذه الناحية بالذات حظر عليها ديناً ودنياً، حرم الشرع عليها أن تعلق - كذباً - للامتناع عن التمكين بوجود حالة من الحالات السابقة التى عدها مبرراً لعدم وجوب التمكين.

(١) (٢، ١) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٢٨، وكشف الغمة، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) يقارن هذا بما هو موجود فى الغرب، من بيوت الدعارة التى تتم فيها العمليات الجنسية مع وجود مرايا عاكسة لمن أراد أن يشاهدها.

(أ) فحرم عليها أن تنشىء صوم تطوع بدون إذن زوجها إذا كان حاضراً،
فربما مالت نفسه إليها وهى صائمة، فتأبى خوفاً على صيامها، وقد يكون من وراء
الرفض ما لا تحمد عقباه، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « لا يحل لامرأة أن
تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه » رواه البخارى
ومسلم (١).

وألحق بعض العلماء بصوم النفل الصوم الواجب الذى لم يضق وقته، كالنذر
والقضاء، وإن أنشأت صوم التطوع وجب عليها قطعه لتمكين الزوج، أما الثانى
فلا يجب عليها قطعه، لأن إتمامه واجب، وإن كان إنشاؤه بدون إذن الزوج حراماً
علي رأى البعض. روى أبو سعيد الخدرى، قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ،
ونحن عنده، فقالت: يا رسول الله، إن زوجى صفوان بن المعطل يضربنى إذا
صليت، ويفطرنى إذا صمت، ولا يصلى الفجر حتى تطلع الشمس، فأرسل
وراءه، فجاء فسأله عما قالت، فقال: يا رسول الله أما قولها: يضربنى إذا صليت،
فإنها تصلى بسورتين طوال، وقد نهيتها، فقال الرسول ﷺ « لو كان بسورة
واحدة لكفت الناس ».. وأما قولها: يفطرنى إذا صمت، فإنها تنطلق تصوم،
وأنا رجل شاب لا أصبر، فقال الرسول ﷺ « لا يحل لامرأة... »، وأما قولها: إنى
لا أصلى حتى تطلع الشمس، فإننا أهل بيت صغير عرف لنا ذلك، لا نكاد
نستيقظ حتى تطلع الشمس، فقال النبي ﷺ « فإذا استيقظت يا صفوان
فصل » (٢) رواه أحمد فى مسنده (٣).

(ب) حرم عليها التعلل بأمر يخفى عليه، لا يعلمه إلا هى، ككونها
حائضاً مثلاً، قال عمر: كانت لى امرأة تكره الرجال، فكنت كلما أردتها اعتلت

(١) رياض الصالحين، ص ١٤٤، شرح مسلم، ج ٧، ص ١١٥.

(٢) كشف الغمة، ج ٢، ص ١٠٨.

(٣) الوعى الإسلامى، جمادى الأولى، ١٣٩١هـ، ص ٢٠.

بالحيضة، فظننت أنها كاذبة، فأتيها فوجدتها صادقة، فأتيت رسول الله ﷺ، فأمرني أن أتصدق بخمس دينار وحيس، وقال « يغفر الله لك يا أبا حفص » إنساده صحيح، وفي رواية بنصف دينار^(١).

وكان الرسول ﷺ يقول « لعن الله المعتلة التي إذا أراد زوجها أن يأتيها قالت: إني حائض^(٢) »، وتقدم حديث المسوفات.

هذا، ويتصل بالتمتع تزين المرأة لزوجها، وسأتحدث عنه في الفصل الثالث في المحافظة على شعوره.

* * *

(١) المطالب العالية، ج ١، ص ٦١.

(٢) كشف الغمة، ج ١، ص ٨٢.

الفصل الثانى

المحافظة على شرفه

أقصد بالشرف هنا ما يتصل بالعفة، فإن حفاظ الزوجة عليه تكريم لزوجها وحفظ لشرفه، وهذا الأمر وإن كان واجباً عليها حتى لو لم تكن زوجة فهو هنا أوجب وأكد، لأنها قبل الزواج كانت ترعى حق الله فى عفتها، وبعده ترعى حق الله وحق الزوج، وهو مسئول عنها فى محافظتها على شرفها، فلتكن هى مقدره للمسئولية.

والمحافظة على الشرف تكون بأمرين، أحدهما البعد عن الفاحشة وهى الزنى، والثانى البعد عن مقدماتها وما يجبر إليها، وما يثير الشكوك حولها، ويدخل الريبة فى قلب زوجها، وذلك كالتبرج والاختلاط المحرم، وما إلى ذلك مما هو مفصل فى بحث الحجاب.

أما الزنى فهو جريمة تتنافى تماماً مع طبيعة الزواج وحكمته، فالزواج فيه تخصيص المرأة برجل تقيم معه أسرة مستقرة تنتج ذرية معروفة النسب إليها ولها حقوقها المشروعة ونظامها المعروف، واتصال الزوجة بغير زوجها يتنافى مع ذلك كله، كما أنه يتنافى مع سكن النفس الذى هو من أهم مقاصد الزواج.

والزنى - فى حد ذاته وبصرف النظر عن الحقوق الزوجية - أمر مستنكر من أقدم العصور، وأجمعت على تحريمه الشرائع السماوية، ووضعت له العقوبات الرادعة، ولم يشذ عن ذلك من الجماعات البشرية إلا القبائل الموغلة فى الهيجية، وإلا بعض الذين انتكست أفكارهم وأضلهم الهوى فوقعوا تحت سلطان الغريزة الثائرة، ومع ذلك لم يدم إقراره، بل كان إلى حين، مع استنكار الكثيرين له.

لقد حرمه قدماء المصريين منذ ٥٥٠٠ سنة، كما قرره الفيلسوف «كاجمنا» الوزير الأول للملك «موني» من الأسرة الثالثة، وكما وجد في كتاب ثان للفيلسوف «بتاح حتب» وزير الملك «آسى» من الأسرة الخامسة^(١)، وكما كان محرماً أيضاً في الدولة الحديثة كما يقول حكيمها «آنى» في تحذيره لولده من الزنا^(٢)، وكما هو معروف في نظام المحاكمة الأخروية التي يتبرأ فيها المسعول عن جريمة الزنى، وكما ذكره «ديودور الصقلي»^(٣) من أن قوانين المصريين تنص على أن من زنى بامرأة كرها قُطعت أعضائه تناسله^(٤) وإن كان بالرضا يجلد ألف جلدة، ويقطع أنف المرأة، وله قتلها ورميها للكلاب^(٥)، وإن كان هذا لا يعدم وجود خيانة فيها لقيت عقابها الأليم، كما في حادثة وقعت أيام «خوفو» مع شاب وزوجة كبير أمنائه «أوبا أنير»^(٦) حكم فيها على الشاب بأن يأكله التمساح، وعلى الزوجة بالإحراق وسحقها وإلقائها في اليم^(٧). (بردية اسمها «ورقة وستكار» بمتحف برلين يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة، أى منذ ٤٠٠٠ سنة، وكذلك في بردية اشترتها السيدة «أوربيني» وهي بالخط الهيراطيقى، وباعتها لمتحف بريطانيا سنة ١٨٥٣م، وترجع إلى وقت منذ ٣٠٠٠ سنة، فيها قصة الأخوين «أنوبو، بوتو» التي أحببت فيها زوجة الأول أخاه، ولما علم بالخيانة قص الزانى ذكره ومات، وأما أخوه فقُتِل زوجته وأُطعم لحمها الكلاب].

والذى يدلنا بصدق على بشاعة الزنى عند قدماء المصريين قصة «زليخا» مع يوسف واستنكار النساء لها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]. كذلك كان الزنى محرماً في شريعة بابل وآشور، وعقابه الموت بالسيف

-
- (١) كتاب تحريم البغاء لأنطوان زكرى أمين، مكتبة المتحف المصرى ١٩٣٢م.
(٢) تاريخ الحضارة المصرية، ج ١، ص ١٤٦، ٤٤٤، مجلة الإسلام، مجلد ٣، عدد ١٤.
(٣) كتاب تحريم البغاء عند قدماء المصريين لأنطوان زكرى.
(٤) تاريخ الحضارة المصرية، فصل بقلم محرم كمال، ج ١، ص ١٤٦، وفصل بقلم د. أحمد فخرى، ج ١، ص ٤٤٤.
(٥) المرجع السابق.
(٦) تاريخ الحضارة المصرية، ج ١، ص ٣٩٧.
(٧) كتاب تحريم البغاء لأنطوان زكرى.

أو قطع الرأس . وكما تنص عليه قوانين حمورابي^(١) كان يحكم بإغراق الزانيين إذا ضبطا متلبسين، وعند عدم التلبس تبرئ المرأة نفسها بأغلق الأيمان، ثم تعود إلى بيت أبيها، فإن كثرت الشائعات باتهامها غطست في نهر، فإن غاصت إلى القاع اعتبرت مجرمة، وإن طفت دل ذلك على براءتها . وكان هذا الضرب من التحكيم بالماء البارد مرعياً عند الجرمان وعند اليهود في عهد «مانو»^(٢) .

جاء في جريدة الشعب^(٣) أن المرأة الزانية والخائنة لزوجها تعاقب بقطع أنفها في بعض قرى الهند، وقد انتهز تاجر أجنبي هذه الفرصة فأنشأ تجارة للأنوف الصناعية لأمثال هؤلاء فأثرى جداً .

وفي العهد القديم لأوروبا كان التفريط في العرض من أكبر الخيانات، وكان على الزوجة أن تحافظ على عفتها، فإن أخلّت بذلك ترك للزوج عقابها، وكان ذلك بمطارتها بالسوط في الطرق العامة حتي تموت، وله طردها من منزل الزوجية، ويمكن استخلاص قاعدة عامة من التشريع البربري الجرمانى هي : أن للزوج حق قتل امرأته الزانية، وكذلك شريكها في الجريمة حال التلبس المفاجئ، كما أنه في حالة عدم التلبس كانت المحاكم تقضى بإعدام الزوجة الزانية .

هذا في الشرائع الوضعية، ولا يعدم - كما قلت - أن يكون هناك إقرار للزنى عند بعض القبائل أو المفكرين، ولم يدم طويلاً، كما في التشريع الكلدانى الذى عده مشروعاً، وكانوا يسمون المومس «أخت الإله»^(٤) . وكما حدث في اليونان عند تطور مجتمعاتهم، فعلاً شأن العاهرات، وعداً فلاسفتهم الزنى غير معيب، وعبدوا «أفروديت» التى تقول أساطيرهم: إنها خانت ثلاثة آلهة مع كونها زوجة إله، ويقول «محمد فريد وحدى» فى كتابه «تاريخ الحجاب»: إن أفلاطون يوجب فى جمهوريته أن يكون النساء دولة بين الرجال ككل شيء،

(١) حمورابى، ص ١٥ .

(٢) سفر العدد ٥ - ١٧ وهو أشبه باللعان عند المسلمين «حمورابى، ص ٥١، ٨٣» .

(٣) (٢/١٢/١٩٥٨) .

(٤) حمورابى، ص ١٥، ١٠٣ .

وسقراط يستصوب تقارض الأصدقاء لزوجاتهم، وتقدم ذكر ذلك فى بحث الحجاب^(١). وفى القرون الوسطى بعد ظهور الإسلام بنحو ستة قرون كان أجمل الفتيات يتقربن إلى الآلهة فى المعبد، بأن يؤجرن أنفسهن لكل راغب، ويضعن الأجر فى صندوق الندور، جاء ذلك فى كتاب تاريخ العالم مجلد ١ ص ٦١٠ - ٦١٣ لهامرتون، وكتاب «المسألة الجنسية» لأوجست فوريل، وكتاب «الأسرة والمجتمع» للدكتور علي وافى، ص ٦٣، ٦٤، ٨٧، ٨٨، ونقله عنهم الأستاذ على منصور فى كتابه «مقارنات»^(٢).

وكان البغاء منتشراً لدى قدماء العبريين كوضع شاذ، ولهذا ينص سفر اللاويين علي أنه لايجوز للأب أن يخصص ابنته للبغاء «إصحاح ٩ : ٢٩» وكان كثير من سرة اليونان فى العصور القديمة يستخدمون إماءهم للبغاء فى مقابل أجور، وأقر المشرعون هذا الاستغلال، فقد نظم «سولون» نفسه، وهو كبير مشرعى أثينا وحاكمها، شئون البغاء الرسمى لا نتفاع الدولة بأجورهن. وفى روما كان ينظر إلى البغاء نظرة احتقار، لكنه كان منتشراً فى معظم المدن الرومانية، ولم يصدر أمر صريح بتحريمه إلا فى السنة التاسعة بعد الميلاد، وكان التحريم خاصاً بالحررة المنحدرة من أبوين رومانيين، ومن تكون زوجة لرومانى أصيل^(٣).

وكما حرّمته الشرائع الوضعية حرّمته الأديان السماوية. ففى شريعة اليهود، من زنى بمحرم له كأم زوجته أو ربيبتها أو امرأة أبيه أو امرأة ابنه يحرق، والمُحصَنُ إذا زنى أو لاط يجرم، ومن زنى بامرأة متزوجة قتلاً جميعاً «سفر تثنية الإشرع ف ٢٢ - ٢٢»^(٤).

ويدل على ذلك ما ورد فى كتب الحديث النبوى أن رسول الله ﷺ أتى

(١) ص ١٤٣ - ١٤٥.

(٢) ملخص من كتاب الدكتور علي عبد الواحد، وافى فى بحث أنواع الأنكحة الجاهلية.

(٣) حمورابى، ص ٥٢، خطط المقرئى، ج ٤، ص ٣٧٤.

بيهودية ويهودى قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى أتى يهود، فقال « ما تجدون فى التوراة على من زنى؟ » فقالوا: نسود وجوههما، ونحملهما ونخالف بين وجوههما، ويظاف بهما. قال « فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » فجاءوا بها فقرءوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذى كان يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده، فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما (١).

وحد الزنى عند النصارى هو رجم المحصن، كما فى نصوص المسيح: الذى لا ذنب له هو الذى يبدأ بإلقاء الحجر (٢). وأما غير المحصن فيلزم أن يتزوج ممن زنى بها إن حملت منه، كما يقول المقرئى (٣) ويعد من الخيانة الزوجية التى يحق بها الطلاق (٤).

وكانت الكنيسة فى أوروبا تحكم برجم الزانية، ثم خفضت ذلك بعقوبات أخرى مثل الحرمان الكنسى، وعندما اختصت محاكم الدولة بالنظر فى جريمة الزنى وضعت لها عقوبات اقتبسها من مجموعة « جوستينيان » وغيرها من التشريع الرومانى، وهى تتلخص فى حبس الزوجة الزانية فى دير وحرمانها من فوائد الزواج، ولم يعد من حق الزوج إعدام زوجته كما كان من قبل.

وجاء التشريع الحديث فأوجب على الزوجين الأمانة وعدم الخيانة بالزنى، وذلك بنص المادة ٢١٣ من القانون المدنى الفرنسى، وإن كانت العقوبة على الزنى قد خفضت إلى حد كبير، وفى قانون العقوبات الفرنسى، تعاقب الزوجة الزانية بالحبس أو الغرامة، والقضاء يكتفى بغرامة بسيطة، وهى خمسة وعشرون فرنكاً، لا تكفى للزجر عن ارتكاب هذه الفاحشة (٥).

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر. (٢) مجلة الأزهر، مجلد ١٩، ص ٢٤١.

(٣) ج ٤، ص ٤٠٨. (٤) محاضرات فى النصرانية لأبى زهرة.

(٥) مجلة الأزهر، مجلد ١٩، ص ٢٤٥.

وكان الحفاظ على العرض مما يفخر به العرب في جاهليتهم، ولعل من آثاره كراهية ذرية البنات ووأدهن مخافة العار أو الفقر، وتحريمهم تزويج بنت ممن عقد معها صلة حب تشيع في الناس، كما حدث بين قيس وليلى .

ومما يدل على قيمة الحفاظ على العرض عندهم حكاية هند بنت عتبة واحتكامها إلى الكاهن لتبرئة نفسها من الزنى الذى رماها به الفاكه بن المغيرة^(١)، وكذلك حكاية طسم وجديس^(٢)، وإن كان عندهم نوع من الاتصال الجنسى مشروع، بالبغاء الذى تحترفه الإماء لصالح مواليتهم، وهو مفصل فى بحث أنكحة الجاهلية فى الجزء الأول من هذه الموسوعة . ولكنه كان ممقوتاً لا يمارسه إلا السفلة، وكانوا يجرون أطراف مآزرهم لتعفى على آثامهم، وأطلق على البغايا اسم «مظلمات» ومن صيغ المدح قولهم: فلان لا يُرُخى لمظلمة إزاره .

يقول أبو الأعلى المودودى فى تفسير سورة النور:

الزنى قديماً - إن كان من غير امرأة متزوجة يسمى الزنى المحض «Pronication» وإن كان من متزوجة يسمى «Adultery» ويعتبر الأول زلة يسيرة، أما الثانى فجريمة يعاقب عليها .

والأولى اعتبرها اليهود صغيرة، وعقوبتها تعويض يدفع للمرأة كمهر للعذارى ويتزوجان «سفر الخروج - اصحاح ٢٢: ١٦ - ١٧، وسفر الاستثناء - اصحاح ٢٢: ٢٨ - ٢٩» ولكن إذا زنى بنت القسيس يعاقب بالشنق، وتعاقب هى بالإحراق، كما فى القانون اليهودى وفى التلمود .

وكذلك فى شريعة «مانو» عند الهنادك: إذا زنى بنت من طبقتة يعطى والدها عوضاً ويتزوجها إن رضى، أما إن كانت من طبقة أعلى فتخرج البنت من بيتها، ويعاقب الرجل بقطع الأعضاء، ويجوز تغيير العقوبة بإحراق البنت حية إن كانت من الطبقة البرهمية .

- وعند المصريين يضرب الرجل بشدة ويجدع أنف المرأة، وكذلك مثل

(١) العقد الفريد، ج ٣، ص ١٩٢، ومثلها فاطمة بنت الخرشب المذكورة فى بحث الحجاب .

(٢) الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٣٢٦ .

هذه العقوبة فى بابل وآشور وفارس القديمة، أما الهنود فكانت عقوبة المرأة أن تطرح أمام الكلاب لتمزقها، والرجل يوضع على سرير محمى من الحديد، وتشعل حوله النار.

وفى اليونان والرومان: كان فى بادىء الأمر من حق الرجل إذا وجد أحداً يزنى بامرأته أن يقتله، أو يأخذ منه غرامة، ثم أصدر قيصر أغسطس فى القرن الأول الميلادى مرسوماً بأن يصادر الرجل بنصف ما يملك من مال وبيوت، وينفى من وطنه، وتحرم المرأة من نصف صداقها، وتصادر بثلث ما تملك من المال، وتنفى إلى بقعة أخرى، ثم جاء قسطنطين وغير القانون، فحكم بإعدام الرجل والمرأة. ثم تغيير القانون فى عهد «ليو»، Leo، مارسين Marcian بالحبس المؤبد، ثم جاء جوستنيان وخففها بضرب المرأة بالأسواط وحبسها فى دير الراهبات، وأعطاء الزوج الحق فى أنه إن شاء استخرجها من الدير فى مدة سنتين، أو تركها إلى نهاية حياتها.

والزنى بامرأة الغير، أى المتزوجة، فى القانون اليهودى جاء فيه سفر التثنية «إصحاح ٢٢ - ٢٦» أن الزنى بامرأة متزوجة يقتل فيه الرجل والمرأة إذا وجد مضطجعا معها، أما المخطوبة التى لم تدخل واضطجع معها فى المدينة فيخرجان إلى باب المدينة ويرجمان حتى الموت - وكان سبب ذلك بالنسبة للفتاة أنها لم تصرخ فى المدينة مستغيثة، وبالنسبة للرجل أنه أذل امرأة صاحبه - لكن إذا وجد المخطوبة فى الحقل فيحكم بموته هو وحده إن زنى بها، وليس عليها شىء.

ولما جاء عيسى لليهود أرادوا إخراجهم، فرفعوا إليه قضية امرأة زانية، قاصدين أنه إذا حكم برجمها صادموه بالقانون الرومانى وقالوا للناس: تعالوا إلى هذا الرجل الذى يريد أن ينفذ فيكم شريعة التوراة، وإن قضى بغير الرجم قالوا: إنه غير التوراة مراعاة للمصالح الدنيوية، لكنه قال لهم: من كان منكم عفيفاً فليقدم ويرميها بالحجارة، فانفضوا من حوله، ونصح المرأة واستتابها.

ولم يكن عيسى فى هذه الحادثة قاضياً، بل محبطاً لكيد اليهود، واستنتج

المسيحيون منها ومن غيرها أن الزنى بالبنت البكر لا عقوبة فيه، أما إن كان أحد الطرفين متزوجاً كان الزنى جريمة، وذلك لنقضه العهد مع زوجته أو مع زوجها، وعقوبة هذه الجريمة أن تقيم زوجة الزانى عليه دعوى للتفريق، ويقيم زوج الزانية دعوى عليها، كذلك، بل له أيضاً أن يأخذ غرامة من الزانى.

ومن العجيب أن المرأة التى طلبت التفريق من زوجها الزانى بغيرها لا يجوز لها بعد ذلك أن تتزوج، والرجل الذى طلب التفريق بينه وبين زوجته الزانية لا يجوز له أبداً أن يتزوج، ومن هنا كان التغاضى عن المحاكمة، والسكوت على الزنى من زوج الزانية ومن زوجة الزانى، لأن الحكم أشد.

جاء الإسلام، وهو دين الفطرة السليمة والمنطق الصحيح، فأمر بصيانة الأعضاء وحفظ الفروج، ووضع التشريعات الكافية لتوفير الاحترام لها، وحرّم الزنى أشد التحريم، فجعله من أكبر الكبائر التى تستوجب غضب الله وعقابه الشديد، وقرر له فى الدنيا عقوبات رادعة، وكانت خطواته فى ذلك على النحو التالى:

﴿ أولاً - الوصية بصيانة الأعضاء، ويظهر ذلك فيما يلى: ﴾

١- جعل الله حفظ الفروج من صفات المؤمنين المفلحين، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧]. وفى آية أخرى وعد على ذلك بالمغفرة والأجر العظيم، فقال سبحانه ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وجعله من صفات المرأة الصالحة، فقال ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤] وقال ﷺ « إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلمها دخلت من أى أبواب الجنة شاءت »^(١) وأحاديث أخرى مذكورة فى طاعة

(١) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٩.

الزوجة لزوجها، وفي الحديث أيضاً يبين الرسول ﷺ أن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله من دعت امرأه ذات منصب وجمال فقال «إني أخاف الله» رواه البخاري ومسلم (١).

٢- أوجب الإسلام الدفاع عن العرض، وجعل الموت في سبيل الله شهادة، ففي الحديث «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» رواه أبو داود والترمذي وصححه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (٢).

٣- حرم إصاق تهمة الزنى بمن هو برىء منها، ولعن من اقترف هذا الإثم وتوعد عليه بالعذاب الأليم، كما وضع له عقوبة رادعة تتناسب وخطره، وقد مر ذلك في الباب الأول.

وإلى جانب ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وقد حدّ عمر رضی الله عنه من اتهموا المغيرة بن شعبة بالزنى، حيث لم يكمل عددهم أربعة، وجاء في «أسد الغابة» في ترجمة شبل بن معبد: روى أبو عثمان النهدي قال: شهد أبو بكره ونافع، يعنى ابن علقمة، وشبل بن معبد، على المغيرة أنهم نظروا إليه كما ينظرون إلى المروء في المكحلة، فجاء زياد فقال عمر: جاء رجل لا يشهد إلا بحق، فقال: رأيت مجلساً قبيحاً وانتهازاً، فجلدهم عمر. والانتهاز جاء بلفظ «نهزا» في بعض النسخ، وفي ترجمة أبي بكره قول زياد: رأيت أسناً تنبو، ونفساً يعلو، وساقين كأنهما أذنا حمار، ولا أعلم ما وراء ذلك. وجاء في الأحكام السلطانية للماوردي (٣) أنه كانت تختلف إليه بالبصرة امرأة من بنى هلال يقال لها: أم جميل بنت محجم بن الأفقم، وكان لها زوج من

(٢) رياض الصالحين، ص ٤٩٣.

(١) رياض الصالحين، ص ٢٩٢.

(٣) ص ٢٥٢.

ثقيف يقال له : الحجاج بن عبيد، فبلغ ذلك أبا بكرة بن مسروح وسهل بن معبد ونافع بن الحرث وزياذ بن عبيد، فرصدوه حتى إذا دخلت عليه هجموا عليهما .

وجاء فى كتاب «أحكام القرآن» لابن العربى، أن المغيرة كان يناغى أبا بكرة وينافره، وكانا متجاورين بالبصرة، بينهما طريق فى مشربتين متقابلتين - المشربة هى الغرفة التى يشربون فيها - فى داريهما، فى كل واحدة منهما كوة تقابل الأخرى، فاجتمع إلى أبى بكرة نفر يتحدثون فى مشربته، فهبت ريح ففتحت باب الكوة، فقام أبو بكرة ليصفقه - يرده - فبصر بالمغيرة وقد فتحت الريح باب الكوة فى مشربته وهو بين رجلى امرأة قد توسطها، فقال للنفر: قوموا فانظروا ثم اشهدوا، فقاموا فنظروا، فقالوا: من هذه؟ فقال: أم جميل بنت الأرقم، وكانت أم جميل غاشية للمغيرة، والأشراف والأمراء - تتردد عليهم كثيراً - وكان بعض النساء يفعل ذلك فى زمانها. فلما خرج المغيرة إلى الصلاة حال أبو بكرة بينه وبين الصلاة، وقال: لا تصل بنا، فكتبوا إلى عمر بذلك، فبعث عمر إلى أبى موسى واستعمله، ثم خرج أبو موسى حتى أناخ بالبصرة، وبلغ المغيرة وصوله، فناوله كتاب عمر، وارتحل المغيرة وأبو بكرة ونافع بن كلدة وزياذ وشيل بن معبد حتى قدموا على عمر، فجمع بينهم وبين المغيرة، فقال المغيرة لعمر: سل هؤلاء الأعداء، كيف رأونى، مستقبلهم أو مستدبرهم، وكيف رأوا المرأة، وهل عرفوها، فإن كانوا مستقبلى فكيف لم أستتر، أو مستدبرى فبأى شىء استحلوا النظر إلى امرأتى، والله ما أتيت إلا زوجتى، وكانت تشبهها، فبدأ أبى بكرة فشهد عليه أنه رآه بين رجلى أم جميل، وهو يدخله كالميل فى المكحلة، قال: وكيف رأيتهما؟ قال: مستدبرهما، قال: وكيف استثبت رأسها؟ قال: تحاملت حتى رأيتها، ثم دعا شيل بن معبد، فشهد بمثل ذلك، وشهد نافع كأبى بكرة، ولم يشهد زياذ مثلهم، ولكنه قال: رأيت جالساً بين رجلى امرأة، فرأيت قدمين مخضوبتين يخفقان، وأستين مكشوفين، وسمعت حفزاناً شديداً، قال: وهل رأيت كالميل فى المكحلة؟ قال: لا، قال: فهل تعرف المرأة؟ قال: لا ولكن

أشبهها، قال له : تَنَحَّ، فأمر بالثلاثة فجلدوا الحد، وقرأ ﴿ فَاذْ لَمَّ يَأْتُوا بِالشَّهْدَاءِ
فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣].

❖ ثانياً - حرم الإسلام الزنى، وورد ذلك فى القرآن الكريم والسنة النبوية
الصحيحة، بعبارات تحمل معها فى الغالب دواعى التحريم، ويظهر ذلك فيما
يلى :

١- ورد النهى عنه بعبارة عدم القربان، تأكيداً لتحريمه، ونهياً عن
الأسباب المؤدية إليه، فقال سبحانه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ
سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

٢- وصفه الله بأنه فاحشة، وهى كل منكر بلغ النهاية فى القبح، وبأنه
طريق سيئ للاتصال الجنسى، ولا يصلح لحياة طيبة مستقرة، كما فى الآية
السابقة .

٣- وصف الزناة بأنهم عادون متجاوزون للحدود المشروعة، ظالمون
لأنفسهم ولغيرهم، فقال سبحانه : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾
بعد أن ذكر من صفات المؤمنين المفلحين حفظ الفروج، كما جاء فى الآيات
الأولى من سورة « المؤمنون » .

٤- وضع من شأن الزناة، وخطَّ من قدرهم، فجعل الإشراك بالله قسيم
الزنى، وجعل الزانى غير كفاء ليتزوج عفيفة، فقال سبحانه ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا
زَانِيَةً أَوْ مَشْرُكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾
[النور: ٣] وقال : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ [النور: ٢٦].

٥- نفى النبى ﷺ عن الزانى وصف الإيمان، فقال « لا يزنى الزانى حين
يزنى وهو مؤمن » رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة^(١)، ولا يعود إليه الإيمان
إلا بعد توبته وإفلاعه عن المعصية، كما فى قوله ﷺ « إذا زنى الرجل خرج منه

(١) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ١١٠ .

الإيمان فكان عليه كائظلة، فإذا أفلح رجع إليه الإيمان» رواه أبو داود والترمذى عن أبي هريرة^(١).

٦- أهدر الإسلام دم الزانى المحصن، وجعله كالمرتد والقاتل، ففي الحديث «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا فى إحدى ثلاث، الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود^(٢).

٧- تَوَعَد عليه بالآثار السيئة فى الدنيا من المرض والفقر والخزى والمهانة وما شابه ذلك، ففي الحديث «ما ظهرت الفاحشة فى قوم يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم» رواه البيهقى عن ابن عمر^(٣). وقال أيضاً «الزنى يورث الفقر» رواه البيهقى عن ابن عمر أيضاً^(٤)، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «يا معشر المسلمين، اتقوا الزنى، فإن فيه ست خصال، ثلاثا فى الدنيا وثلاثا فى الآخرة، أما التى فى الدنيا فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر. وأما التى فى الآخرة فسخط الله وسوء الحساب وعذاب النار»^(٥)، وقد أثبت الأطباء أن السيلان والزهرى من الأمراض الوافدة التى لم يصب بها المسلمون إلا بعد الاتصال بالبيئات غير المحافظة على أعراضها، كما ورد مرض نقص المناعة «الإيدز» من البلاد التى كثر فيها الاتصال الجنسى الشاذ.

٨- بين النبى ﷺ أن الزنى من الأنانية التى لا يصح أن يتلوث بها المسلم، إذ كيف يرضى أن يلحق العار بغيره ولا يرضاه هو لنفسه فى أمه أو بنته أو أخته مثلاً؟ جاء شاب إلى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله أتأذن لى فى الزنى؟ فصاح الناس به، فقال النبى ﷺ «قربوه، ادن» فدنا حيث يجلس بين يديه، فقال ﷺ «أتحبه

(١) الترغيب، ج ٣، ص ١١١.

(٢) الترغيب، ج ٣، ص ١١٠.

(٣) الترغيب، ج ٣، ص ١١٧.

(٤) الترغيب، ج ٣، ص ١١٠.

(٥) ذكره ابن القيم فى «روضة المحبين» عن حذيفة مرفوعاً - غذاء الالباب، ج ٢، ص ٣٦٣.

لأملك؟ قال: لا، جعلنى الله فداك، قال «وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتجبه لابنتك؟ قال: لا، جعلنى الله فداك، قال «وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتجبه لأختك؟ وزاد ابن عوف أنه ذكر العممة والحالة وهو يقول فى كل واحدة: جعلنى الله فداك. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره - صدر الشاب - وقال «اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه» فلم يكن شىء أبغض إليه منه - أى الزنا - رواه أحمد عن أبى أمامة بسند جيد (١).

٩- أوعد الإسلام عليه بالعقاب الشديد فى الآخرة، فقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يَضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. وفى الحديث «رأيت الليلة رجلين أتياى فأخرجانى إلى الأرض...» إلى أن قال «فانطلقا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق، وأسفله واسع، يتوقد تحته نار، فإذا ارتفعت ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، وإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة...» وفى آخر الحديث «وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزوانى» رواه البخارى عن سمرة بن جندب (٢).

١٠- جعل الإسلام من يقر هذا المنكر ويرضى به شريكاً فى الإثم، يقول النبى ﷺ «ثلاثة لا يدخلون الجنة، العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء» رواه النسائى والحاكم عن عبد الله بن عمر (٣). والديوث هو الذى يعلم الفاحشة فى أهله ويقرهم عليها، وإذا كان الراضى شريكاً فكيف بمن يأمر به ويحث عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]. وقد تقدم فى الجزء الأول سبب نزول هذه الآية (٤).

(٢) رياض الصالحين، ص ٥٦١.
(٤) وانظر صحيح مسلم، ج ١٨، ص ١٦٣.

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٢٩٣.
(٣) الترغيب، ج ٣، ص ١٠٤.

وإكراه النساء على البغاء محرم مطلقاً، سواء أردن التحصن أم لا، والنص عليه في الآية كان لبيان الواقع وتسجيل الحادثة التي نزل فيها التحريم، والله غفور رحيم بهن إذا أكرهن على ذلك. كما ورد في شأن البغاء قوله ﷺ «إن الله يدنو من خلقه فيغفر لمن يستغفر إلا لبغى بفرجها» وفي رواية «تسعى بفرجها» رواه أحمد والطبراني عن عثمان بن أبي العاص^(١).

وقد ورد عن عائشة رضی الله عنها، في بيان أنواع الأنكحة في الجاهلية، أنه كان يتجمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، ينصبن على أبوابهن الرايات، وتكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحدهن ووضعت جمعوا لها ودعوا القافة، ثم أحلقوا ولدها بالذى يرون،، فالتاط به - أى التصق ولحقه - ودعى ابنه، لا يمتنع عن ذلك. وهدمه النبي ﷺ فيما هدم من نكاح الجاهلية، رواه البخارى، وتقدم في الجزء الأول من هذه الموسوعة.

وكان تحريم الإسلام للزنى عموماً لحفظ الأنساب وحماية النسل من الضياع، وتشجيعاً على الزواج وتكوين الأسر، وصيانة لها من الانهيار، وتقوية لروابط المجتمع، الذى تحترم فيه الحقوق، وكذلك لصون الأفراد والجماعات من الأمراض التى تنقل عن هذا الاتصال، وتلافياً للأضرار المادية والاجتماعية والخلقية الناجمة عن هذه الفوضى، ومنعاً للشحناء والتباغض والتقاتل بسبب هتك الأعراض.

✽ **ثالثاً** - التشريعات الوقائية، وضع الإسلام بهذا الصدد تشريعات وقائية، وفرض التزامات يجب على الرجل والمرأة الوفاء بها، وعلى أولى الأمر رقابة تنفيذها، وكان دور المرأة فى هذه الالتزامات كبيراً، نظراً لما عندها من عوامل واستعدادات تغرى بالتردى فى هذه الهاوية.

(١) الترغيب، ج ٣، ص ١١٠.

فمن واجبات المرأة الغَضُّ من البصر وستر العورة، والاستقرار في البيت، وعدم الخضوع بالقول، وعدم تمكين الأجنبية من دخول بيت زوجها، وعدم سفرها وحدها، والبعد عن كل ما يلفت النظر إليها إن خرجت، وتجنب أماكن الزحام، وقد فصلنا ذلك كله في بحث الحجاب .

كما أن الإسلام نهاها عن وصف محاسن امرأة أخرى إلى زوجها أو إلى رجل آخر، وصفاً يكون فيه إغراء أو فتنة، لقول النبي ﷺ « لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها » رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود^(١) .

وجعل من واجبات الرجل الغض من البصر وعدم لمس المرأة الأجنبية أو التعرض لها بأي أذى في الطريق أو غيره، وعدم الخلوة بها، كما نهى عن الحلف على هجر امرأته أكثر من أربعة أشهر، ورغب في مباشرتها إن رأى امرأة أجنبية ومال إليها، وقد فصلنا ذلك كله في بحث الحجاب . كما رغب في الزواج عند القدرة، وقد مر ذلك في الجزء الأول .

* رابعاً - وضع الإسلام لجريمة الزنى عقوبة بدنية إلى جانب العقوبة الأدبية المبينة فيما سبق، وهي جريمة يقول فيها ابن القيم في كتابه « زاد المعاد »^(٢) : إن كانت الزنى بها ذات زوج ففي وطئها حقان، حق لله وحق للزوج، فإن كانت مكرهة ففيه ثلاثة حقوق - يعنى حقها مع حق الله وحق زوجها - وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العار بذلك صار فيه أربعة حقوق، فإن كانت ذات محرم منه صار فيه خمسة حقوق^(٣) .

وعقوبة الزنى هي الرجم للمحصن والمحصنة، أى من سبق لهما زواج، وجلدٌ غير المحصن مائة جلدة وتعريب سنة، وذلك إذا ثبت الزنى بطرق الإثبات الشرعية، التى منها الإقرار والبينة والإمارات الحقيقية مع اختلاف للفقهاء فى

(١) رياض الصالحين، ص ٦٢٧ . (٢) ج ٣، ص ١٥٠ .

(٣) العقوبة مفصلة فى تفسير ابن كثير لسورة النور .

بعضها، فإن لم يجد الزوج ثباتاً إلا نفسه حيث لا إقرار منها ولا شهود مثلاً، أقيم اللعان بينهما، على ما تقدم في الباب الأول.

والإحصان يكون باجتماع أربعة شروط، العقل والبلوغ والحرية والإصابة، أى الدخول بالمباشرة الجنسية في زواج صحيح، وزاد أبو حنيفة شرط الإسلام.

وجلد الزانى ثابت بالقرآن والسنة والإجماع، قال تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وقال ﷺ «البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة» رواه مسلم عن عبادة بن الصامت^(١). ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين.

أما رجم الزانى فقد ثبت بالسنة الصحيحة منها ما رواه مسلم عن عبادة بن الصامت «والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» على خلاف بين الفقهاء في الجمع بين الرجم والجلد، وما رواه ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب، وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف. رواه مسلم.

وقد رجم النبي ﷺ ما عز بن مالك لما أقر بالزنى بإحدى الجوارى عند غيبة الرجال في الغزو، وقال النبي ﷺ في ذلك «أو كلما انطلقنا غزاة في سبيل الله تخلف رجل في عيالنا، ينبُ كنيب التيس، على ألا أوتى برجل فعل ذلك إلا نكلت به» كما رجم امرأة من غامد، وهى بطن من جهينة، لما جاءت إليه مقرة بالزنى، طالبة إقامة الحد عليها، فرجمها بعد أن وضعت وفطمت رضيها. رواه مسلم^(٢).

(١) ج ١١، ص ١٩١.

(٢) ج ١١، ص ٢٠١.

جاء في الموطأ عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: اقض بيننا يا رسول الله بكتاب الله تعالى، وقال الآخر - وكان أفقهما - أجل يا رسول الله، اقض بيننا بكتاب الله واأذن لي أن أتكلم، فقال له «تكلم» فقال: إن ابني كان عسيفاً على هذا - أجيروا - فزني بامرأته، فأخبروني أن علي ابنى الرجم، فافتديته من غنمي بمائة شاة وبجارية لي، ثم إنني سألت أهل العلم فأخبروني أن علي ابنى جلد مائة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال له ﷺ «أما والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى، أما غنمك وجاريتك فرد عليك، ويجلد ابنك ويعرب عاما»، وأمر ﷺ أنيساً الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر، فإن اعترفت فليرجمها، فاعترفت فرجمها. رواه البخاري ومسلم (١).

والرجم نسخت تلاوته وبقي حكمه، ولذلك قضى به النبي ﷺ، ورجم من تقدم ذكره. ولم يخالف في مشروعية الرجم أحد إلا بعض العجاردة من الخوارج، فالحد عندهم هو الجلد كما حكاه ابن العربي عنهم، وكذلك حكاه عن بعض المعتزلة، كالنظام وأصحابه الشوكاني في نيل الأوطار.

ويرى بعض علماء العصر، كالشيخ عبد الوهاب خلاف (٢)، أن الحديث الوارد في الرجم ليس نصاً قطعياً فيه، وأن رجم النبي ﷺ لما عزر كان رجماً سياسياً، وليس حداً على الزنى، كما يقول في حديث «الطيب الزاني» المذكور فيما سبق فيمن يحل دمه، أنه للتهويل والتشنيع، وليس لبيان الحد، وخرج بعضهم كونه سياسياً على أن الزناة كقطاع الطرق المطبق عليهم قوله تعالى ﴿إِنَّمَا

(١) قال ابن تيمية في «السياسة الشرعية»: إن اليهوديين الذين رجمنا كانا من خبير، والمرأة اسمها بُسْرَة، ولم يسم الرجل، وهو أول رجم، وكان عند باب مسجده. وفي كتاب «الأوائل» لعلی دادة أن أول من رجم في الإسلام ماعز، وعزاه لشرح المصابيح، ويجمع بينهما بأن أول من رجم من المسلمين ماعز، وأول رجم كان في الإسلام مطلقاً رجم اليهوديين.

(٢) نواء الإسلام - أكتوبر ١٩٥٤م.

جَزَاءَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴿٣٣﴾
[المائدة: ٣٣].

هذا، والتغريب للزاني غير المحصن ثبت بالحديث النبوي كما تقدم، وقال أبو حنيفة: إنه منسوخ في حق البكر، وعامة أهل العلم على أنه ثابت، لما روى ابن عمر أن النبي ﷺ ضرب وغرّب، وأن أبا بكر ضرب وغرّب، وأن عمر ضرب وغرّب، والجمع بين الجلد والرجم فيه خلاف للعلماء، وقد مر فيه حديث مسلم عن عبادة بن الصامت.

ويلاحظ في عقوبة الزنا أن الله شدد في تنفيذها، ونهى عن الرأفة والرحمة فيها، لأن ذلك مقتضى الإيمان الذي يغار صاحبه على العرض، ويغضب للشرف، وطلب أن يكون تنفيذ العقوبة في جمع حاشد للعبرة والموعظة، وذلك في الوقت الذي حيب فيه في الرحمة في جنايات أخرى، كما قال في شأن القصاص ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وذلك بعد رفع الأمر إلى الحاكم، أما قبل ذلك فالأتجاه إلى الستر وعدم الفضيحة، من الفاعل وممن علم به أو شاهده، لحديث «من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإنه من يئد لنا صفحته نُقِمَ عليه كتاب الله» رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم^(١) وكان ذلك بعد رجم ماعز الأسلمي، قال الذهبي في المذهب: إسناده جيد، وصححه الحاكم وابن السكن، وفيه كلام ذكره الزرقاني على المواهب^(٢) وفي حديث البخاري ومسلم في مبايعة النبي ﷺ لأصحابه على عدم الشرك والزنى والسرقه والقتل، قال «ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه».

وعن سعيد بن المسيب قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أسلم يقال له «هزأل» وقد جاء يشكو رجلاً بالزنا، وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى:

(١) الموطأ، ص ٢٢٢.

(٢) تنزيه الأنبياء عن المطاعن، ص ٥٠.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾
«يا هزال، لو سترته بردائك كان خيراً لك» قال يحيى بن سعيد: فحدثت بهذا
الحديث في مجلس فيه يزيد بن نعيم بن هزال الأسلمي، فقال يزيد: هزال جدى،
هذا الحديث حق. رواه أبو داود والنسائي.

ويتأكد الستر في حالتين، إحداهما عدم اكتمال نصاب الشهادة على
الزنى، حتى لا يحد الشهود بحد القذف، كما فعل عمر في قضية المغيرة بن
شعبة، على ما قاله مالك وأحمد وأبو حنيفة، والراجح من مذهب الشافعى،
وقيل: لا يحدون لأن قصدهم الشهادة لا قذف المشهود عليه، وهو المرجوح عند
الأحناف والشافعية، ولعل حد عمر للشهود كان لقذفهم للمغيرة لا للشهادة.

والحالة الثانية لتأكيد الستر إذا كان المخطيء من ذوى السمعة الطيبة. غير
معتادى الخطأ، وذلك لحديث «أقبلوا ذى الهيئات عثراتهم إلا الحدود» رواه
أحمد وأبو داود(*) . وحمل الاستثناء في الحديث على ما بعد الوصول إلى
الحاكم، فلا شفاعاة ولا عفو، أما قبل ذلك فالسنة الستر.

كما يلاحظ أن الله سبحانه ذكر التوبة مع بعض الجرائم وتأثيرها في العفو،
كما قال في قطع يد السارق ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]. ولكنه في عقوبة الزنى في سورة النور لم
يتعرض لذكر التوبة للدلالة على شناعة هذا الجرم، وعلى وجوب الشدة في
المعاقبة عليها، وقد ذكرت التوبة عن الزنى في جملة ذنوب سابقة معها في سورة
الفرقان^(١).

ولا ينبغي أن تعاب هذه العقوبة بأنها منافية للكرامة الإنسانية وتطور
البشرية، كما قالوا ذلك عن قطع يد السارق وعقوبة الإعدام للقصاص. فهل
الزنى والسرقة والقتل لا تنافى الكرامة الإنسانية، وهل تطور البشرية يكون
بالفوضى والانحلال؟

(١) الآية ٧٠.

(*) نيل الأوطار، ج ٧، ص ١٤٣.

إن هذه الجرائم البشعة لا يناسبها ولا يردع عنها إلا العقوبات الشديدة، والعضو الفاسد إذا بلغ فساد هذا الحد يجب أن يبتز حتى لا يتعدى فساده إلى بقية الأعضاء، وقد رأينا أن تساهل القوانين الوضعية لم يحل المشكلة، بل زادها تعقيداً، وساعد على شيوع الفاحشة وآثارها السيئة.

على أن عقوبة الرجم هي إعدام في احتقار، والاحتقار عقاب أدبي يضاف إلى أنواع العقاب الأخرى، والإعدام مبدأ مقرر في الشرائع الوضعية على جرائم تقل شأنًا عن الزنى، وما زال يمارس إلى اليوم في الدول التي تعدُّ من أرقى الدول. إن الرجم صورة من صور إزهاق الروح للزاني وإعدامه، وهو مبدأ مقرر في الشرائع السابقة الوضعية والسماوية، وبخاصة اليهودية والنصرانية - كما سبق بيانه - فكيف يعاب الإسلام إذا جعله عقوبة لهذه الفاحشة المنكرة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

* خامساً - رقابة التنفيذ للتشريع: إن الرقابة تكون بالتوعية الصحيحة، والعمل في تعاون على صيانة الحرمات ومنع التعدي عليها، والراعى والرعية وكل المسلمين متضامنون في ذلك، وقد تقدم تفصيل كل هذا في بحث الحجاب، وقيمة المرأة ذات الدين تظهر في هذه الناحية، ولهذا يحث الشرع على اختيارها عند الزواج، ويدعو بالفقر والتعب على من يؤثر عليها ذات الحسب والمال والجمال، والخالية من العصمة الدينية، ويحذر من خضراء الدمن، وتقدم توضيح ذلك في الجزء الأول.

وقلب المرأة مثل قلب الرجل قد يتعلق بشخص آخر، فإذا لم يكن هناك دين حصل المحذور، والمسلمة الأولى كان قلبها مزموماً بالتقوى، فحمت شرفها أن يدنس، انظر ص ٥١٣، من الجزء الثانى، يحكى أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه «الأذكياء» أن رجلاً قعد على جسر بغداد فأقبلت امرأة من جهة الرصافة إلى الجانب الغربى، فاستقبلها شاب فقال لها: رحم الله على بن الجهم، فقالت المرأة: رحم الله أبا العلاء المعرى، وما وقفاً، ومرّاً مشرقاً ومغرباً، قال: فتعقبت المرأة فقلت لها: إن لم تقولى لى ما قلتما فضحتك، فقالت: أراد قول على بن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت أنا قول أبي العلاء المعري

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريب، ولكن دون ذلك أهوال^(١)

وحفظ عفاف المرأة وشرفها الذى يحفظ للزوج شرفه بلغ من تقديس الإسلام له أنه يمتد إلى ما بعد وفاة الزوج، ويظهر ذلك فى غسله ودفنه على ما ذكرناه فى بحث الحجاب، كما يظهر فى إحداها عليه بملازمة المسكن وعدم الخروج منه والامتناع عن الزينة وما إلى ذلك مما هو مفصل فى موضعه.

إن عقل المرأة وحكمتها درع يقى من الوقوع فى الخطأ ومن المآثرات الأدبية أن بعض أولاد الملوك دخل منزل امرأة وحيدة فراودها، فقالت: حتى نتغذى، فوضعت له خوانا عليه عشرون سكرجة «إناء» كلها كامخ «نوع من الطعام» فذاقها فوجدها ذات طعم واحد، فظنن إلى أنها تشير إلى أن النساء لون واحد، وأن الذى معها هو ما مع زوجته فانكف عنها^(٢).

ولما أكثر الشاعر الأحموس التشبيب بأُم جعفر بنت عبد الله بن عرقطة الأنصارية الخظمية، جاءته يوماً منتقبة، وهو فى نادى قومه، فقالت له: ادفع لى ثمن الأنعام التى ابتعتها منى، فقال: والله ما ابتعت منك شيئاً، فقالت لقومه: قولوا له: لا تجحد الحق، فقالوا: إن كان حق لا تجحدنه، فقال: والله ما عرفتها قط، فكشفت عن وجهها وقالت: لعلك لا تستثبتنى، فقولوا له: يستثبت، فقالوا له، فقال: والله ما عرفتها قط ولا رأيتها ولا شاهدتها، فقالت: مالك تشيب بى وتفضحنى؟ فخرجل وانزجر، ولم يعد كذبه عشيرته.

* تكملة:

روى أن رجلاً - قيل: اسمه حسان بن عطية - جاء إلى النبى ﷺ وقال له:

(١) حياة الحيوان الكبرى للذميرى (مها).

(٢) محاضرات الأدباء للأصبهاني، ج ٢، ص ١٣٤، ١٣٦.

يارسول الله، إن امرأتى لا تردُّ يدَ لأمس، فقال له «غربها» فقال: أخاف أن تتبعها نفسى، قال «فاستمتع بها» رواه أبو داود عن ابن عباس، والترمذى والبخارى، ورجاله ثقات، وأخرجه النسائى من آخر بلفظ «طلّقها» قال: لا أصبر عليها، قال «فأمسكها» قال النسائى عن هذا الحديث: ليس بثابت، وهو مرسل. وقال أحمد: حديث منكر، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات^(١)، وجاء فى المطالب العالية^(٢): رواه أحمد بن منيع بسند ضعيف كما قاله البوصيرى، وروى عن أبى الزبير عن جابر كما فى السنن الكبرى للبيهقى، ورجاله لا بأس بهم.

وعلى فرض ثبوته فما معنى «لا ترد يد لأمس» وكيف يفسر موقف النبى ﷺ من ذلك؟

لقد اختلف المفسرون فى المراد من قوله «لا ترد يد لأمس» فقال جماعة: يعنى أنها تستجيب لمن يطلب منها الفاحشة، ولكن كيف يأمره النبى ﷺ بإمساکها وهو يعلم أنها تفجر؟ وذلك ينافى نعيه على الديوث الذى يقر الخبث فى أهله^(٣)، وأجيب بأن النبى ﷺ أمره أولاً أن يطلقها، ولم يسمح بإمساکه لها إلا بعد أن علم أن قلب زوجها متعلق بها حتى لا يستطيع الصبر عنها، لجمالها أو لوجود أولاد بينهما مثلاً، وهذه موازنة بين ضررين فيرتكب أخفهما، فقد يفجر الرجل بعد تطليقها ما دام لا يصبر عنها، فرؤى إمساكها لها لعلها تصلح بعد ذلك إذا أحكم الرقابة عليها. قاله الخوارزمى فى كتابه مفيد العلوم ومبيد الهموم^(٤).

وقيل: إن المعنى أن سجيتها هذه، لا أن المراد أن هذا وقع منها وأنها تفعل الفاحشة، فإن الرسول ﷺ لا يسمح بمصاحبة من هذه صفتها حتى لا يكون ديوثاً، ولكن لما كانت سجيتها عدم ممانعة من أراد أن يخلو بها أمره النبى ﷺ

(١) الإحياء ج ٢، ص ٣٤.

(٢) (٢) ج ٢، ص ٥٣.

(٣) الديوث يطلق عليه اسم القُنْدَع كما فى صحاح الجوهري.

(٤) ص ٢٠٨.

بفراقها، فلما ذكر له أنه يحبها أباح البقاء معها، لأن محبته لها محققة، ووقوع الفاحشة منها متوهم، فلا يصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل^(١).

وقال جماعة آخرون: معنى العبارة أنها تعطى من ماله ما يطلب منها، فأمره النبي ﷺ أن يطلقها، لأنها سيئة التدبير، وكان المراعى فى ذلك العامل الاقتصادى، بخلاف التفسير الأول المراعى فيه العامل الخلقى. ولما علم النبي ﷺ بتعلق قلب الزوج بها أمره بإمسакها. فإن تعلقه قد يجره إلى المعصية التى يهون سوء التصرف المالى بجانبها، وهو من باب: ارتكاب أخف الضررين. وهذا التفسير يميل إليه أحمد، فقد ورد فى نهاية ابن الأثير فى مادة «لمس» عن الإمام أحمد: لم يكن ليأمره بإمسأكها وهى تفجر، كما جاء فى تفسير ابن كثير فى سورة النور. ويقول فيه على وابن مسعود: إذا جاءكم الحديث عن رسول الله ﷺ فظنوا به الذى هو اهدى وأتقى.

وتقدم أن أعرابياً كانت له زوجة معيبة ولكن فى غير العرض، فأمره عمر بإمسأكها بعد أن أشار عليه بطلاقها^(٢).

* تنبيه:

لو زنت المرأة لا يبطل عقد النكاح بينها وبين زوجها، عند جميع العلماء، سوى مذهب على كرم الله وجهه والحسن البصرى فإنهما قالوا: يفسخ. يقول الخوارزمى: أبشرن نساء الروافض، و سئل الأوزاعى عن رجل اطلع على امرأته بالزنى، أ يصلح له إمساكها؟ قال: لا يحرم إمساكها، وقال أبو قلابة: إذا اطلع الرجل من امرأته بالزنى أ يصلح له إمساكها على فاحشة؟ قال: لا بأس أن يضاررها ويشق عليها حتى تختلع منه^(٣).

* * *

(١) تفسير ابن كثير لسورة النور، ج ١، ص ١٠، طبعة الشعب.
(٢) ص ٤٢.
(٣) مفيد العلوم، ص ٢١٢.

الفصل الثالث

المحافظة على شعوره

المحافظة على شعور الزوج أمر يحتاج إلى دراسة لنفسية الإنسان والزوج بوجه خاص، لتعرف الزوجة طباعه، وتقف على ما يسره ويسيئه، وهو من لوازم كون الزوجة سكناً لزوجها، توفر له الراحة والهدوء، وتتجنب ما يثير أعصابه ويمس شعوره بسوء، ويظهر ذلك مبدئياً في الوصية التي أوصت بها الأعرابية بنتها عند زفافها، من تفقد موضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منها على قبيح، ولا يشم منها إلا أطيب ريح، وتفقد وقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، وعدم الفرح أمامه إن كان مهتماً، وعدم الكتابة إن كان فرحاً.

وكذلك فيما قاله عامر بن الظرب - وهو من حكماء العرب - لامرأته: مَرَى ابنتك أن تكثر من استعمال الماء فإنه أطيب الطيب، ولا تكثر من مضاجعة زوجها، فإن الجسد إذ ملّ ملّ القلب، ولتخبيء سواتها منه. وقد تقدم ذلك في الباب الأول في تسلية الزوجة.

ولو عرفت الزوجة خطر التقصير في مراعاة شعور زوجها لعملت كل وسيلة لجلب رضاه واتقاء غضبه مهما كان قدر هذا الغضب، فإن إغضابها له يطيح بكثير مما قدمته من خير، ويكفي في ذلك قول النبي ﷺ في شأن النساء «حاملات والذات مرضعات رحيمات بأولادهن، لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة» رواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمامة دون قوله «مرضعات» وهي عند الطبراني في الصغير^(١).

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٥٢.

ويمكن أن نضرب أمثلة لمراعاة الزوجة لشعور زوجها فيما يلي :

* **تجملها** - ولأهمية هذا الموضوع سأتوسع قليلاً في الحديث عنه :

إن تجمل المرأة لزوجها من أهم الوسائل لكَمال تمتعه بها وأنسه وحبه وتقوية الرابطة بينهما، وهو متعلق بناحية يرتاح لها القلب، وتنشط لها النفس، وهي الجمال الذي كثيراً ما تجولت الأدباء في رياضه النظرة التي خلقتها الآداب القديمة وما تزال تزخر بها الآداب الحديثة.

والجمال محبوب للنفس إذا وسم به أى كائن فى الوجود، ويتسع بدائرتة فيشمل الحسيات والمعنويات، والماديات والأدبيات، وله حاسة جعلها الفلاسفة مستقلة عن الحواس الخمس، وجالت فى فنونه أقلام الكتّاب وآراء الباحثين، ولا عجب فى ذلك فإن الله جميل يحب الجمال، كما نص عليه الحديث الذى رواه مسلم عن ابن مسعود^(١). وروى الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن محمد بن قيس عن أبيه «أحسِن علاقة سوطك، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال»^(٢).

والجمال الذى نقصر الحديث عليه الآن هو جمال الزوجة فى نظر زوجها، وهو أمر يشمل كل صفاتها المحببة من خَلْق وخلق، وبنود الخُلُق كثيرة عولجت فى موضع هذه الموسوعة، أما جمال الخُلُق فهو موضوع بحثنا الآن.

وقد اهتم الناس به من قديم الزمان، وما يزالون يهتمون، ذلك لأنه - كما قلت - قيس ينير الطريق للحب حتى يستقر فى القلب، ومغناطيس قوى يجذب الأفتدة، ويرهف الإحساس ويوقظ الأعصاب. ذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء^(٣) أن الخليفة المتوكل العباسى المتوفى سنة ٢٤٧هـ كان شغوفاً بقبيحة أم ولده المعتز، لا يصبر عليها، فوقفت له يوماً وقد كتبت على خديها بالغالية - نوع من الطيب - «جعفر» فتأملها وأنشأ يقول :

(١) رياض الصالحين، ص ٢٧٦.

(٢) الجامع الكبير، طبعة مجمع البحوث، ج ١، ص ٢٢٩.

(٣) ص ٢٣٢.

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرًا بنفسى محطّ المسك من حيث أثرا
لئن أودعت سطرًا من المسك خدها فقد أودعت قلبي من الحب أسطرًا

والمتتبع لأحداث التاريخ قديمه وحديثه يجد آثار الجمال واضحة في نواح عدة، فكم ربط بين جماعتين على أثر إعجاب تم بزواج، وكم فرق بينهما أثر تنافس انتهى بقتال، وكم جدت في الأسر مشكلات غيرة منه وتحزباً ضده. وكم رفع نساء بسيطات إلى العروش، وزلزل عروشاً تحت ملوك، وكم أسال لعاب القديسين، وفتن العباد والزاهدين، وكم أطلق ألسنة العشاق بروائع المنظوم وجيد المنثور، وكم خلدت آثار في الفن والأدب كان هو ملهمها الأول، وواضع قصتها ومخرج روايتها على مسرح الوجود.

أشادت به كل الجماعات حتى أذناها نظاماً، وتغنى به كل إنسان حتى أقربهم إلى البداوة وألصقهم بالجمال. وجاءت الأديان بدورها تعالج منه ما عالج غيرها، ولسنا في حاجة إلى إثبات ذلك من مدونات الأديان السابقة، فيكفي أن ذلك وصل إلينا فأقر الإسلام أثره. يقول القرآن الكريم للنبي ﷺ ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ [الأحزاب: ٥٢]. ويقول النبي ﷺ « خير نساءكم من إذا نظر إليها زوجها سرتة، وإن أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله » رواه النسائي بسند صحيح عن أبي هريرة، ومثله عن أحمد وأبي داود بسند صحيح^(١).

وجاء في كشف الغمة^(٢) أن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ وعندنا امرأة في خباء، فأخرجت يدها من تحت الستارة تسلم على النبي ﷺ، فقال « كأن كفها كف سبع، لتخضب إحداكن يديها ولا تتشبه بالرجال ».

وفي «أسد الغابة» في ترجمة مسلم بن عبد الرحمن أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يبائع النساء على الفتح، فجاءت امرأة كأن يدها يد الرجل فأبى أن يبايعها حتى ذهبت فغيرت يدها بصفرة.

(١) انظر ص ٢٤٧.

(٢) ج ٢، ص ١٠٢.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة أتت النبي ﷺ تباعه ولم تكن مخضبة فلم يبايعها حتى اختضبت . يقول الألبانى فى كتابه « حجاب المرأة المسلمة ، ص ٣٢ » : حديث حسن أو صحيح أخرجه أبو داود (٢ / ١٩٠) وعنه البيهقى (٧ / ٨٦) وله شواهد كثيرة أوردتها فى « الثمر المستطاب فى فقه السنة والكتاب » .

وجاء فى كتاب « حسن الأسوة »^(١) عن عائشة قالت : أمأت امرأة من وراء ستر بيدها كتاب إلى رسول الله ﷺ ، فقبض يده ، فقال « ما أدرى أيد رجل أم يد امرأة » فقالت : بل يد امرأة ، فقال « لو كنت امرأة لغيرت أظفارك » يعنى بالحناء . أخرجه أبو داود والنسائى ، وعنهما أن هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله بايعنى ، فقال « لا أبايعك حتى تغيرى كفيك ، كأنهما كفا سبع » أخرجه أبو داود . فالرسول ﷺ يمدح المرأة المتزينة أو الجميلة بطبعها ، ويقر أن المرأة تستعمل الخضاب لتظهر به أظافرها ملونة ، ويكره أن تكون المرأة كالرجل ، وهو يتضمن الرغبة فى إظهار أنوثتها بنحو التزين ، فى الحدود المشروعة .

- اختلاف الأمم فى مقاييس الجمال :

الجمال الذى هو من آثار التجمل ، أو الجمال الكسبى أمر نسبى يختلف باختلاف الأذواق ، ويتنوع بتنوع العادات وتباين البيئات ، وإليك طوفة حول العالم نقطف فيها من ورود الجمال جملة متنوعة نحس فيها ذوق من يستعملها بصرف النظر عن حلها وحرمتها .

الاستراليون القدماء والنيوزيلانديون يفضلون من التجمل الوشم عن طريق جراحة بسيطة تطبع بمسحوق الفحم ، وكان فى مبدئه علامة يميزون بها بين القبائل ، لكنه اتخذ وساماً للجمال بعد ، يحرصون عليه ويتفننون فى أشكاله . وأصل اتخاذه هو ما عليه نساء الهندوس ، فإنهن يُنْقِشْنَ بنقوش تخالف نقوش القبائل الأخرى ، والهنود الحمر يضمون إلى حلية الوشم أنواعاً من الريش .

(١) ص ١٤٩ .

والوشم على الشفاه أو تلوينها باللون الأزرق حلية نساء النوبة والسودان، للجمال وللدلالة على أنها متزوجة، وكذلك تشريط الحدود يعتبر نوعاً من الجمال للمرأة، وهو للرجال علامة على القبيلة التي ينتسب إليها، ولكل قبيلة تشريط بوضع خاص، ثلاثة أشرطة (///) أو (/ - /) أو... .

وأطواق النحاس تحظى بنصيب كبير من التقدير كحلية ممتازة في استراليا، حيث تلف حول العنق عدة أطواق. وفي كارن Karen على حدود بورما تطوق الرقاب بما يقرب من خمس وعشرين حلقة، وتوجد في مجلة المصور^(١) صور لبعض النساء بهذه الحلقات التي لا يستطعن نزعها، وإلا هوت رءوسهن أو مالت، وذلك لضعف العنق عن حملها.

وتوضع أيضاً حلقات فوق العرقوبين حتى لا تتمكن من الجلوس، وتزيّن الحلقات شحمة الأذن في « جارو » بالهند، فهي تثقل بها وتندلى إلى الكتف، اعتقاداً منهن أنها تقيهن شر أبالسة القبور، حيث يتنازعونها فيما بينهم، ويتركون المرأة، فتهرب الروح منهم.

وفي قبائل مورو بجنوب السودان تثقب شفة المرأة حتى تتسع حلقة كبيرة، ومثلهم في ذلك نساء قبائل الماساي في كينيا، أو تثقب الشفة حتى تتسع لوتد، وفي قبيلة « سارا » تحرق الشفتان وتمدان معاً حتى تبدوا كمنقار الطير، وذلك تشويهاً للعذارى حتى لا يؤخذن في تجارة الرقيق، وكان من كانت بهذه الهيئة تكون موضع التقدير عند خطبتها، لأنها لم تمسها يدٌ من قبل، ويقول الرحالة محمد ثابت: إن النساء في سيلان « سيريلانكا » يتحلين بالذهب في أصابع القدم كلها، كما يقول في كتاب « بنات حواء » المطبوع سنة ١٩٥٥م: إن النساء في كينيا يلبسن في السيقان حجلاً قد تبلغ عشرين، توضع تحت بعضها أسفل الركبة، وعند العرقوب لغير المتزوجات، أما المتزوجات فتوضع الحجال في الأذرع دون الأرجل، وفي قبيلة الماساي يغطي النساء أجسادهن بأطواق النحاس في

(١) بتاريخ ١٨/١٠/١٩٧٤.

البطن والخصر والسيقان والسواعد والرقاب في أوزان وأثقال باهظة، وجمالهن هو السمنة، ولذا يشربن اللبن كثيراً ولا يكثرن المشى، ويحلقن شعورهن، والمرأة في موزمبيق قبيحة الوجه ويزيده قبحاً تلطixه بالعجين الأبيض الثقيل ماعدا الأنف .
وفي الصين تصغر الأقدام بحبال الكتان عنواناً للجمال، الذي لـر ظهرت المرأة بدونه ربما أدى ذلك إلى الطلاق، وحرّم ذلك الأمر المتعب سنة ١٩١٤م، ولكن ظلاله ما تزال موجودة، وفي بعض القبائل تثقل المرأة بالخلي، منعاً لها من العمل الذي تتركه للخدم .

والمرأة الأمهرية بالحيشة تجلس عدة ساعات أمام الماشطة، تصبّح لها شعرها، متحملة في ذلك آلاماً قاسية حتى تبدو في شكل جذاب . كما أن اليابانية تنام على وسائد من الخشب توضع عليها الرقاب، وتكون الرأس مدلاة للحفاظ على تسريحة الشعر، وذلك سر طول رقابهن، كما يقول الرحالة محمد ثابت .

والمرأة الغربية تجلس طويلاً تحت الأدوات الخاصة بكى الشعر، كما تفعل المرأة في قبائل البشارية بالسودان والنوبة في تحليل شعرها بشرائح الغاب .
وسمنة المرأة محببة عند المغاربة، وفي قبائل إيكيوى Ekoï غربى أفريقيا حيث يقام للبنات « معالف » يطعمن فيها بسخاء للتسمين، بينما تحب المرأة الغربية الرشاقة والنحافة، وإن كانت السمنة محببة في ريف ألمانيا إلى اليوم، حيث يجرى المثل الألماني . لم يحن الوقت بعد ليعشق الإنسان العظم دون اللحم^(١) وهكذا كما يقول الشاعر:

تعشقتها شمطاء شاب وليدها وللناس فيما يعشقون مذاهب

- موقف الإسلام من التجميل :

الإسلام، كما هي صبغته العادلة، يقف من كل شيء موقفاً يقبله العقل

(١) أكثر هذه المعلومات من كتاب « بنات حواء » للرحالة محمد ثابت، وحديث له بإذاعة القاهرة في ٧/٢/١٩٤٩م .

ويشهد له الذوق ويميل إليه الطبع ولا يمس سلامة المجتمع أو مقررات الدين، فأباح للمرأة أن تأتي من ألوان التجمل والتزين أى لون يجذب قلب الرجل إليها، ولكن بشروط تحفظ له أهميته وتدفع خطره، وهذه الشروط هي:

١- أن يكون التجمل للزوج فقط، وبهذا يعلم خطأ المرأة التى لا تهتم بزینتها إلا عند قدوم زائر أو عند خروجها من البيت، فإذا كانت فيه هى وزوجها فقط كانت من أزهده الناس فى الزينة، كأنها زوجة الزائر أو خليلة رجل الشارع، وليست زوجة من أرصد فى ميزانيته طوعاً أو كرهاً، مبلغاً كبيراً من المال لجمال الزوجة، التى لا تحس بذلك لتوجه زينتها لاجتذاب إعجاب الغير، وتترك الزوج البائس كمية مهملة كأنه ليس من الناس، وقد وضحت ذلك فى مبحث الحجاب، وذكرت استتار زوجة معاوية من خصى دخل معه، وحلق امرأة شعرها لأن أجنبياً رآه، واستغناء امرأة حاكم «بلخ» عن ثوبها الذى رآه الناس وتبرعت بثمنه لبناء مسجد، وغير ذلك من الأمثلة.

وهل غاب عنها قول الرسول ﷺ «أبما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية، وكل عين زانية». رواه الحاكم وصححه، والنسائي وابن حبان وابن خزيمة فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعري^(١). وقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

٢- عدم التغير والتدليس، وأقصد بذلك ألا يكون التجمل سترًا لعيب لو اطلع عليه الرجل لنفر منه نفوراً يخول له الخيار فى إمساكها أو ردها بهذا العيب الذى لم يعرفه من قبل، وذلك كوصل الشعر أو استعمال «باروكة» أو تركيب أسنان صناعية ونحو ذلك، ونذكر فى هذا المقام عجزاً حاولت أن تظهر بمظهر الشابة فقال فيها من غربها:

عجوز قمت أن تكون فتية وقد نحل الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار ميرة أهلها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟

(١) الترغيب، ج ٣، ص ٢٧.

تزوجتها قبل المحاق بليلة فكان محاقا كله ذلك الشهر
وما غرني إلا خضاب بكفها وكحل بعينيها وأثوابها الصفر^(١)
ذكر في عيون الأخبار لابن قتيبة « ج ٤ ، ص ٣٣ » مثل هذا الشعر تقريباً
وعلى وزنه وقافيته :

أقول وقد شدوا عليها حجابها ألا حبذا الأرواح والبلد القفر
ألا حبذا سيفي ورمحي ونمرقي ولا حبذا منها الوشاحان والشذر
أتوني بها قبل المحاق بليلة فكان محاقا كله ذلك الشهر
وما غرني إلا خضاب بكفها وكحل بعينيها وأثوابها الصفر
تسائلني عن نفسها هل أحبها فقلت : ألا ، لا ، والذي أمره الأمر
تفوح رياح المسك والعطر عندها وأشهد عند الله ما ينفع العطر
الشذر = حلى من ذهب ولؤلؤ.

ومن الطريف أن جورج الثالث ملك بريطانيا « ١٧٣٨ - ١٨٢٠م » وكان
من ألد أعداء الجمال المزيف ، أصدر البرلمان البريطاني في عهده هذا القانون لسنة
١٧٧٠م ، وفحواه :

إن كل امرأة أياً كان عمرها ومركزها الاجتماعي ، سواء أكانت عذراء أم
زوجة أم أرملة ... إذا حاولت أن تغرى بالزواج أى مواطن فى الامبراطورية
البريطانية ، بواسطة استخدام مستحضرات تجميل أو عطور ، أو أسنان مزيفة أو
ضعر صناعى أو أحذية بكعب عال ، .. إلخ ، يجب أن تعاقب حسب القانون
الذى يعاقب به كل من يمارس الدجل والشعوذة ، وبعد صدور الحكم عليها يعتبر
زواجها باطلاً وملغياً .. »^(٢)

وعلى هذا المعنى يحمل قول النبى ﷺ « لعن الله الواصلة والمستوصلة » رواه

(١) العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٧٩ ، وتقدمت فى بحث الحجاب .

(٢) الأهرام فى ١٩ / ٣ / ١٩٧١م .

البخارى ومسلم^(١). وذلك عندما جاءت امرأة فقالت: يا رسول الله، إن لى ابنة عُرَيْساً أصابتها حصبة، فتمرّق شعرها، أفأصله؟ وجاء فى مسلم أيضاً^(٢) عند عبد الله بن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأنته فقالت: ما حديث بلغنى عنك، إنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله؟ فقال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله؟ فقالت المرأة: قد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته، قال: لكن كنت قرأته لقد وجدته، قال الله عز وجل ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]، فقالت المرأة: فإني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن، قال: اذهبي فانظري: قال: فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئاً، فجاءت إليه فقالت: ما رأيت شيئاً، فقال: أما لو كان ذلك لم نجتمعها. وفى مسلم أيضاً^(٣) أن معاوية تناول قُصَّةً من شعر كانت فى يد حَرَسِيٍّ وقال: يا أهل المدينة أين علماءكم؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا ويقول «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم» وفى رواية أن معاوية أخرج كُبَّةً من شعر فقال: ما كنت أرى أن أحداً يفعله إلا اليهود، إن رسول الله ﷺ بلغه فسماه «الزور» قال قتادة فى معنى الزور: ما يكثر به النساء أشعارهن من الخرق.

وقد ذكر النووى أن الشافعية حرّموا الوصل بشعر آدمى بلا خلاف، لكرامة أجزائه التى إن قطعت ينبغى دفنها، وكذلك الوصل بشعر غير آدمى النجس كالكلب أو الحمار، وأما الطاهر كشعر الغنم فالأصح جوازه بإذن الزوج، أما تجمير الوجه والخضاب بالسواد وتطريف الأصابع فجائز إن كان لها زوج وأذن

(١) الترغيب، ج ٣، ص ٤٤.

(٢) ج ١٤، ص ١٠٥.

(٣) ج ١٤، ص ١٠٨. أخذ منه ابن حجر عدم وجوب دفن ما أخذ من الشعر وغيره «فتح

البارى ج ١٢ ص ٤٩٧».

لها. أما غير ذات الزوج أو من لم يأذن لها زوجها فحرام عليها الخضاب والتطريف والوصل بالطاهر أيضاً، وقال مالك بحرمة الوصل مطلقاً، وأجازة الليث بالصوف والحرق لا الشعر، وقال بعضهم: يجوز جميع ذلك، وهو مروى عن عائشة، ولا يصح عنها، بل الصحيح عنها كقول الجمهور. قال عياض: أما ربط الخيوط الحريرية ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهى عنه، فهو ليس فى معنى مقصود الوصل. قال: وفى الحديث أن وصل الشعر من المعاصى الكبائر، للعن فاعله والوشم، وهو غرز الجلد بالإبرة وملؤه بنبيلة ونحوها، حرام على المكلف لنجاسته، وتجب إزالته إن لم يترتب عليه ضرر، ما لم يتعين للدواء، والتنميص، وهو إزالة شعر الوجه كتزجيج الحاجبين وإزالة الشعيرات التى بجوانب الوجه، حرام، إلا إذا نبتت للمرأة لحية أو شارب فلا يحرم، بل يستحب، وقد حرمه بعضهم مطلقاً. والوشر والتفليج، وهو أن يبرد ما بين الأسنان إظهاراً للصرغر والجمال، حرام أيضاً، لأنه تزوير وتغيير لخلق الله. ومحلّه إن فعل للحسن، أما للعلاج فلا، انتهى ملخصاً من كلام النووى فى شرح صحيح مسلم^(١).

وجاء فى غذاء الألباب للسفاريني^(٢): وقد رأى ابن الجوزى إباحة النمص وحده. وحمل النهى على التدليس، أو أنه شعار الفاجرات. وفى كتابه «آداب النساء» ما يأتى: عن عائشة قالت: يا معشر النساء إيا كن وقشر الوجه. قال: فسألتها امرأة عن الخضاب فقالت: لا بأس بالخضاب، وقالت: إن رسول الله ﷺ لعن الصالقة والحالقة والخارقة والقاشرة. والقاشرة هى التى تقشر وجهها بالدواء ليصفو لونها. والصالقة هى التى ترفع صوتها بالصراخ عند المصائب، والحالقة هى التى تحلق شعرها عند النوائب، كالخارقة التى تخرق ثوبها أيضاً عندها. قال ابن الجوزى: فظاهر هذه الأحاديث تحريم هذه الأشياء التى قد نهى عنها على كل حال، وقد أخذ بإطلاق ذلك ابن مسعود، ويحتمل أن يحتمل ذلك على أحد ثلاثة أشياء، إما أن يكون ذلك شعار الفاجرات فيكن المقصودات به، أو أن يكون

(٢) ج ١، ص ٣٧٣.

(١) ج ١٤، ص ١٠٣ - ١٠٧.

مفعولاً للتدليس على الرجل، فهذا لا يجوز، أو يكون يتضمن تغيير خلقه الله كالوشم الذى يؤذى اليد ويؤلمها ولا يكاد يستحسن. وربما أثر القشر فى الجلد تحسناً فى العاجل ثم يتأذى به الجلد فيما بعد، وأما الأدوية التى تزيل الكلف وتحسن الوجه للزوج فلا أرى بها بأساً. وكذلك أخذ الشعر من الوجه للتحسن للزوج، ويكون حديث النامصة محمولاً على أحد الوجهين الأولين. انتهى ملخصاً.

ثم قال ابن الجوزى فى المصدر السابق، قال شيخنا عبد الوهاب بن المبارك الأنماطى: إذا أخذت المرأة من وجهها لأجل زوجها بعد رؤيته إياها فلا بأس، وإنما يذم إذا فعلته قبل أن يراها، لأن فيه تدليساً، ثم ذكر عن أم حليمة قالت: شهدت امرأة سألت عائشة: ما تقولين فى قشر الوجه؟ أى وضع دواء عليه ليصفو لونها، ويشبهه أن يكون ذلك من أثر كلف ونحوه - قالت: إن كان شىء ولدت وهو به فلا يحل لها، ولا أمرها ولا أنهاها، وإن كان شىء حدث فلا بأس، تعمد إلى دياجة كساها فتنحيتها عن وجهها، ولا أمرها ولا أنهاها، وقال: قال مسلم: وحدثننا بحسنة الراسبية قالت: قالت عائشة: لو كان فى وجه بنات أخى لأخرجته ولو بشفرة، قال: وعن بكرة بنت عقبة أنها دخلت على عائشة، فسألته عن الحناء، فقالت: شجرة طيبة وماء طهور. وسألته عن الحفاف، فقالت لها: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلى، انتهى.

وأخرج الطبرى عن امرأة أبى اسحاق أنها دخلت على عائشة، وكانت شابة يعجبها الجمال، فقالت: المرأة تحف جبينها لزوجها، فقالت: أميطى عنك الأذى ما استطعت، ذكره ابن حجر فى «فتح البارى» فى شرح حديث ابن مسعود: باب المتنمصات من كتاب اللباس، وفى الباب نفسه: التوامل خيوط من حرير أو صوف تعمل ضفائر تطيل به المرأة شعرها أجازها سعيد بن جبير والإمام أحمد. وجاء فى معجم المغنى لابن قدامة الحنبلى «طبعة الكويت، ص ٨٧٧» أن المرأة يكره لها حلق شعرها، ويجوز لها حَفُّ وجهها وبتف شعره.

هذا، وبقصد التغيرير نص النووى على حرمة حديث المرأة القصيرة من بنى إسرائيل التى كانت تمشى مع امرأتين طويلتين، فلم يعرفاها، لأنها اتخذت رجلين من خشب، فقال: إنها إن قصدت به مقصوداً صحيحاً شرعياً لتستر نفسها، لئلا تعرف فتقصد بالأذى ونحو ذلك، فلا بأس به، وإن قصدت به التعاضم أو التشبه بالكاملات وتزويراً على الرجال وغيرهم فهو حرام، وقد مر ذلك فى بحث الحجاب ورواه مسلم^(١).

وجاء فى كشف الغمة^(٢): كانت عائشة تقول: لا بأس بالمرأة الزعراء أن تأخذ شيئاً من صوف فتصل به شعرها تزيّن به عند زوجها، إنما لعن رسول الله ﷺ الواصلة التى تبغى فى شبيبتها حتى إذا هى أسنت وصلتها بالقيادة.

وأرى بعد عرض هذه الأقوال أن غير الوشم إن كان برضا الزوج فلا بأس به، لعدم التغيرير الذى نهى عنه الشرع، وإن كان لإخفاء عيب لم يطلع عليه الزوج المشترط لبراءتها منه، فهو محرم، كما تدل عليه قصة المرأة التى تمرّق شعر بنتها من الحصبية، وكذا إن أريد به التفنن فى الجمال للإغراء السيئ كما فعلت نساء يهود، وهو ما تورع عنه السلف ولم يسمحوا لزوجاتهم به.

٣- عدم الإسراف فى التجميل، فالإسراف مذموم فى كل شىء، وهو إذا كان يؤثر على واجب فهو حرام، كما لو أنفق المال فى الكماليات وأهملت واجبات الأسرة، وإلا فهو مكروه.

والتجميل له حد أدنى، هو ألا تقع عين الزوج على قبائح فى المرأة، وعدم القبح لا يستلزم الجمال الكبير الذى يقتضى جهداً ومالاً وفيراً، والإسراف إما أن يكون فى إحكام صنعته، أو فى استحضار مواده، والأول فيه جهد ضائع والواجبات أولى بذلك، والثانى يقوم على كثرة أنواعه وتعدد مبتكراته، والمنتجون استغلوا ميول المرأة و شغفها بالزينة فغمروا بها الأسواق وتفننوا فى عرضها والإعلان عنها، والسرف يغرى المرأة بعرض جمالها وزينتها فى المعارض

(١) ج ١٥، ص ٨.

(٢) ج ٢، ص ١٠١.

المحرمة، مع ما يصاحب ذلك من زهو وغرور، وكل ذلك محرم، ولئن سلمت المرأة من هاتين الآفتين فينظر إلى ما ينفق في سبيله، فإن كان من مالها هي ولا ضرر منه على واجب كنفقة تعينت عليها لأصل أو فرع كان مكروهاً، وكذلك إن كان ذلك من مال زوجها بهذا القيد، أما إن أثر على نفقة واجبة فهو محرم.

هذا، وإنا لنرى أن مشكلات كثيرة تجدد بين الزوجين بخصوص إحضار الزينة أو بخصوص استعمالها، والذي ينظر بعين الدقة إلى مصدر التفتن في التزين والإشادة بجمال المرأة، والإعلان عنه بطرق مبتكرة كثيرة - يرى أن لليهود في ذلك دوراً كبيراً، وذلك كله حسب مخطط موضوع بإحكام للسيطرة على المال، وخدمة مصالحهم، بصرف النظر عن الوسيلة التي يصلون بها إلى ذلك. وهذا دأبهم من قديم الزمان، ففي الحديث عن عائشة قالت: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد دخلت امرأة من مُزَيَّنة ترفل في زينة لها في المسجد، فقال النبي ﷺ «يا أيها الناس، إنها نساءكم عن لبس الزينة والتبختر في المسجد، فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا في المسجد» رواه ابن ماجه^(١)، وتقدم حديث معاوية في النعي على اتخاذ الشعر زينة للنساء، كما رواه مسلم عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، وعن ابن المسيب عن معاوية^(٢).

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج بقصة - خصلة من الشعر - فقال «إن نساء بنى إسرائيل كن يجعلن هذا في رءوسهن فُلَعِنَّ، وحرم عليهن المساجد» رواه الطبراني^(٣) وعلم من الروايات الماثورة أن الرجال كانوا يشجعون النساء على الخضور بالزينة إلى أماكن العبادة، وطغت الغريزة على العقيدة حتى رماهم الله بالسوء، وقد تقدم في الباب الأول حديث أن المرأة

(١) الترغيب، ج٣، ص٢٧.

(٢) مسلم ج١٤، ص١٠٨، والترغيب ج٣، ص٤٥.

(٣) الترغيب، ج٣، ص٤٥.

اليهودية كانت تستشرف إلى الرجل، وهى تصلى فى المسجد، فألقى الله عليهن الحيز ومنعهن من المساجد، أى ابتلاهن بكثرتة^(١).

٤- عدم الإلهاء عن الواجبات، وأقصد بها الأمور المهمة التى يطلبها الله من المرأة كمتدينة، التى يطلبها الزوج منها كزوجة، والبيت أيضاً بوصف أنها ربة أسرة، وبهذا الشرط علم خطأ المرأة التى تقف ساعات أمام المرأة تصلح من شأنها، تاركة أو مترفعة عن إعداد الطعام أو تهيئة الملابس للزوج والأولاد الذين تقيدهم الأوقات وتتحكم فيهم المواعيد، وليس عندهم من الفراغ ما يمكنهم من تهدئة ثائرتهم حتى تفرغ المتجملة من مهمتها الأولى فى البيت وهى «التواليت». كذلك تخطيء الزوجة إذا عزَّ عليها أن تزيل أصباغها أو تمس زينتها المنسقة استعداداً للطهارة والصلاة. ولعل هذه الناحية هى التى صرفت كثيراً منهن عن الصلاة، على الرغم من عدم وجود ما يشغلهن كثيراً عنها، فالشاغل الأول هو حرصها على زينتها، ورحم الله قدوة النساء - أمهات المؤمنين - اللاتى كن يختصن بعد صلاة العشاء فينمن عليه. فإذا كان الفجر نزعنه فتوضأن وصلين، ثم يختصن إلى الظهر بأحسن الخضاب، وكان لا يمنعهن ذلك من الصلاة^(٢).

ولمثل هذه الحالة قال رسول الله ﷺ «ويل للنساء من الأحمرين الذهب والمعصفر» رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة^(٣) وقال «أريت أنى دخلت الجنة فإذا أعالى أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المؤمنين، وإذا ليس فيها أحد أقل من الأغنياء والنساء، فقيل لى: أما الأغنياء فإنهم على الباب يحاسبون ويمحصون، وأما النساء فألهاهن الأحمران، الذهب والحريز» رواه أبو الشيخ ابن حبان وغيره عن أمامة، وأخرجه الترمذى^(٤). وجاء فى الإحياء بتعليق العراقى^(٥) أنه مروى عن أحمد بسند ضعيف.

(٢) كشف الغمة، ج ١، ص ٥٦، ٥٧.

(٤) الترغيب، ج ٣، ص ٣٥، ٣٦.

(١) الزبيدى، ج ١، ص ١٧١.

(٣) الترغيب، ج ٣، ص ٣٥.

(٥) ج ٢، ص ٥١.

٥- عدم التشبه بالرجال، والعرف هو الذى يحدد ما يخص كلا من الجنسين فى الزينة، وهو يختلف من بيعة إلى بيعة و من عصر إلى عصر، والنهى عن ذلك سببه ألا تذوب خصائص الأنوثة أو مظاهرها من المرأة، فإن تقليدها للرجل فى المظهر يجرها إلى تقليده فى الأمور الأخرى، والمحاكاة فى القشور إذا اشتدت ودامت أثرت فى اللب والجوهر، وبعد زمن نرى المرأة فى كلامها وحركاتها وتصرفاتها قريبة من الرجل إن لم تكنه، وتشبه المرأة فى ملابسها بملابس الرجال منهى عنه إن قصد التشبه بهم، أما إذا انتفى هذا القصد فلا حرمة، وهو ما يفهم من كلمة «تشبه» التى تدل على القصد، وهو مناط الثواب والعقاب، كما فى الحديث المتفق عليه «إنما الأعمال بالنيات» يقول ابن عباس: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، رواه البخاري وغيره^(١).

وهذا التوضيح يحل مشكلات اختلفت فيها الآراء، كلبس القبعة وغيرها، مما كان زياً شائعاً عند غير المسلمين، و تغيير الزى يقصد به أولاً التشبه، للإعجاب به وبأهله، وقد يستمر ذلك طويلاً حتى يجيء جيل يرى من سبقه قد لبسوه فيلبسونه على أنه عادة موروثه، ولا تكاد ترى ظلاً فى نفوسهم للتقليد، أو أن هذا المعنى يضعف بجانب العامل الأقوى، وهو مجارة العرف والوسط الذى يعيش الإنسان فيه، فلبس هذه الملابس بدون هذا القصد، أو لضرورة، لا يجعله داخلاً فى حيز التشبه المذموم. جاء فى الحديث المروى عن أبى هريرة أنه قال: لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل، رواه أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه. والحاكم وصححه^(٢).

رأى عبد الله بن عمرو بن العاص أم سعيد بنت أبى جهل متقلدة سيفاً وهى تمشى مشية الرجل فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال» رواه أحمد والطبرانى^(٣).

(٢) المرجع السابق.

(١) الترغيب، ج ٣، ص ٣٦.

(٣) المرجع السابق.

وقال ﷺ «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة^(١). وشرح هذا الحديث مذكور في بحث الحجاب . كما ذكر فيه تاريخ لبس المرأة للعمامة وعصابات الرأس وتطريز الثياب .

وفى كشف الغمة^(٢) أن عائشة كانت تنهى النساء عن لبس نعال الرجال وتقول: لعن رسول الله ﷺ الرجل من النساء . ونهى النبي ﷺ عن لبس العمائم، وهى اللفائف الكبيرة على الرؤوس، وكان تميم الدارى يقول: سمعت النبي ﷺ ينهى النساء عن لبس القلانس والنعال والجلوس فى المجالس والخط بالقضيب ولبس الإزار والرداء من غير درع^(٣).

٦- اشترط العلماء فى التجميل ألا يكون فيه تغيير لخلق الله، وأظهر ما يكون ذلك فى عمل يدوم أثره كالوشم والوشر، فالوشم صبغ للجلد بعد إخراج الدم، والوشر تنظيم للأسنان بتفليجها، أى إيجاد فرج بينها حتى تبدو جميلة، وطرد بعضهم هذا الشرط فى كل أنواع التجميل كالتنميص والوصل، ومنه بالأحرى، الجراحات الحديثة لتجميل الأنف أو الشفتين مثلاً، وما كان عند الصينيين من تصغير الأقدام، وأهل جزر ميلانيزيا الذين يخضعون رعوس الأطفال للضغط بالعواض الخشبية لتصير مدبية، لأنه عنوان الجمال كما يقول الرحالة محمد ثابت .

وقد استدل المحرمون لذلك بقوله تعالى على لسان الشيطان ﴿وَأْمُرْهُمْ فَلْيُغَيِّرُوا خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] قال الشوكانى فى نيل الأوطار^(٤): قيل: إن هذا التحريم إنما هو فى التغيير الذى يكون باقياً، فأما ما لا يكون باقياً كالكحل

(٢) ج ١، ص ١٩٠.

(١) صحيح مسلم، ج ١٤، ص ١٠٩.

(٤) ج ٦، ص ٢٠٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

ونحوه من الخضابات فقد أجازه مالك وغيره من العلماء. وفي تفسير القرطبي لهذه الآية كلام كثير.

لكني لا أرى في هذه الآية دليلاً قاطعاً علي حرمة ذلك، فهي ليست نصاً في الموضوع، فمن السياق يعرف أنها في الحيوانات التي حرّمها الجاهليون من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام وغيرها، فإنهم كانوا يفقؤون عين الفحل، وهو الحامى، ويشقون آذان بعض الحيوانات الأخرى، وذلك هو معنى الفقرة السابقة على الفقرة المذكورة، قال تعالى ﴿وَلَا مَرْنُهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْنَ خَلْقَ اللَّهِ﴾ فالمقصود - والله أعلم - هو تغيير الدين، أخذاً من قوله تعالى في آية أخرى ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]. فتحرّم الوشم ليس لتغيير خلق الله، بل لتشويه الجسم وتنجسه بالدم عند الشافعي، وإيلاء للناس بغير ضرورة، والوشم لم يتفق على حرّمته إلا للتدليس كما تقدم فيما نقله ابن الجوزي وارتضاه. وعمليات التجميل في الأنف والشفاه والآذان وغيرها، أرى أنها لا حرمة فيها ما دام ذلك برضا أصحابها وعدم وجود عامل التغيرير فيها، فهي تحسين لخلق الله وليست تغييراً له.

٧- ألا يكون التجميل معارضاً لمطلوب شرعي، وذلك كإطالة الأظافر التي ابتدعتها نسوة العصر، وقلدهن الرجال في بعض الأظافر، وهذا ليتناسب طلائها بالأصباغ الخاصة. «المانيكور» لليد و«البيدكور» للرجل، مع أن النبي ﷺ جعل تقليم الأظافر سنة، وفي رأى واجب، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري» حديث «الفطرة خمس: الاختتان والاستحداد - في رواية حلق العانة - وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط» قال أبو بكر العربي «المعرف بأل وليس ابن عربي المنكر»: عندي أن الخصال الخمس المذكورة في هذا الحديث كلها واجبة. وفي مسلم: وقت لنا رسول الله ﷺ قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة ألا تترك أكثر من أربعين ليلة.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «عشر من الفطرة»^(١)، قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء» قال زكريا: قال مصعب: ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة. زاد قتيبة: قال وكيع: انتقاص الماء يعنى الاستنجاء^(٢).

وحكمة الأمر بقص الأظافر منع تجمع الأوساخ التي هي مظنة وجود الميكروبات الضارة التي يسهل انتقالها بالأيدي لمزاولتها شئون الطعام والشراب، كما أن تراكم الأوساخ تحتها يمنع وصول الماء إلى البشرة عند التطهر بالوضوء أو الغسل، وطولها يخدش ويضر. يقول أبو أيوب الأنصاري: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن خير السماء، فنظر إليه النبي ﷺ فرأى أظفاره طوالاً فقال «يسأل أحدكم عن خير السماء وأظفاره كأظفار الطير يجمع فيها الجنابة والتفت» وهو الخبث. رواه أحمد^(٣) وجاء في تفسير القرطبي^(٤): ذكر أبو الحسن علي بن محمد الطبري المعروف بالكيا في «أحكام القرآن» له عن سليمان بن فرج أبي وأصل قال: أتيت أبا أيوب رضی الله عنه فصافحته، فرأى في أظفاري طولاً، فقال: جاء رجل.... والموضوع مستوفى في شرح الزرقاني على المواهب^(٥).

وإطالة الأظفار مظنة لإيذاء الغير عند نحو سلام ومصافحة، كما أنها تعوق الأصابع عن مزاولة كثير من الأعمال، ووضع الأصباغ عليها يمنعها منعاً مؤكداً من أعمال التنظيف، حرصاً عليها من الزوال، فلا يلجأ إلى تربيتها وصبغها إلا نسوة

(١) الفطرة قيل: هي السنة بدليل رواية أبي عوانة «عشر من السنة» والسنة هي الطريقة، فهي من سنن الأنبياء، وطريقتهم لأن بعضها واجب. ومن لا يرى وجوب شيء منها يحملها على السنة المقابلة للواجب. وقيل: الفطرة هنا هي الدين. وأما أصل الفطرة فابتداء الخلق واختراعه «فاطر السموات» وقيل: الجيلة التي جيل عليها آدم، وقيل: الإسلام [ص ٧٢ من طرح التشريب في شرح التقريب للعراقي وأبي زرة].

(٢) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٧. (٣) كشف الغمة، ج ١، ص ٧١.

(٤) ج ٢، ص ١٠٢. (٥) ج ٤، ص ٢١٤.

مترفات أو خاملات، همهن الظهور في المجتمعات بمظهر المتمدينات، أو الهروب من الأعمال المنزلية .

على أن بعض الظرفاء علل اهتمام نساء العصر بإطالة أظفارهن بأنها كأسلحة للدفاع عن نفسها أو الهجوم على زوجها إن فكر في إيذائها، أو الهروب من مطالبتها . ويعجبنى قول القائل :

قل للجميلة أرسلت أظفارها إني، لخوف، كدت أمضى هاربا
إن المخالب للوحوش نخالها فمتى رأينا للطباء مخالبا
بالأمس أنت قصصت شعرك غيلة ونقلت عن وضع الطبيعة حاجبا
وغدا نراك نقلت ثغرك للقفأ وأزحت أنفك، رغم أنفك، جانبا
من علم الحسنة، أن جمالها في أن تخالف خلقها وتجانبا
إن الجمال من الطبيعة رسمه إن شد خط منه لم يك صائبا^(١)

وكما يشترط ألا يكون التجمل معارضاً لمطلوب شرعى يشترط ألا تكون مادته ولا وسيلته ممنوعه، وذلك كاستعمال أدهان مصنوعة من مواد نجسة أو محرمة، و كقيام الرجل بعمل الزينة للمرأة، كتصفيف الشعر وصبغ الأظافر وما إلى ذلك، فإن نظر الأجنبى ولمسه للمرأة حرام، كما هو مفصل فى بحث الحجاب .

وعلى ضوء هذه المقدمة وهذه الشروط سأتناول بعض أنواع الزينة بشىء من التفصيل حتى يطمئن القلب إلى حكمها الشرعى فأقول :

✽ ما يتحقق به التجمل :

للتجمل حد أدنى وهو التخلص من الأقدار والروائح الكريهة والزوائد المنفرة، وحد أقصى وهو ظهور المرأة فى شكل جذاب وفتنة مرغوبة، وهو للأول كإطار الصورة يزيدا وضوحاً ويضفى عليها جمالاً فوق جمال، والأول بمثابة

(١) قطوف لعلى الجندى ...

التخلية، والثاني بمثابة التحلية، وهي جماع النصيحة العربية، لا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمن إلا أطيب ريح. والماء عامل مهم في هذه الناحية، أوصى به الحكيم العربي عامر بن الظرب، حيث قال لامرأته - كما سبق: مُرى ابنتك أن تكثر استعمال الماء، فإنه أطيب الطيب. وجاءت في «عيون الأخبار»^(١)، أنه قال لزوجته، وقد زوج بنته من ابن أخيه -: مُرى ابنتك ألا تنزل مفازة إلا ومعها ماء، فإنه للأعلى جلاء، وللأسفل نقاء، ولا تكثر مضاجعته، فإنه إذا ملّ البدن ملّ القلب.

ومهما يكن من شيء فإن التخلية يمكن أن تتحقق بما يأتي:

١- كثرة غسل الأطراف والمواقع المعرضة كثيراً للتلوث، كالوجه واليدين والرجلين، والعناية بغسل الجسم عامة في فترات متقاربة، والواضح أن دين الإسلام - وهو دين النظافة - قد وفي هذه الناحية حقها، بأمره بالوضوء للصلوات الخمس، وبالاعتسال عند موجه وما يخلف وراءه مما يلزم التخلص منه. ومن أجمع الأحاديث في النظافة العامة «إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفئيتكم ولا تشبهوا باليهود» أخرجه الترمذى عن ابن المسيب، وهو حديث غريب^(٢) وقال الألبانى على الجامع الصغير: له شواهد تقويه.

وبفضل هذا الإجراء رأينا أن المرأة المسلمة التي تواظب على الطهارة تكون دائماً مع موضع الاحترام والتقدير. أما غيرهن فهن موضع نقد جارح، لعدم الالتفات إلى هذه الطهارة. وقد نبه الإسلام على العناية بنظافة الأماكن التي هي مظنة تجمع العرق والفضلات، كالمضمضة والاستنشاق للفم والأنف، وكغسل الرواجب، وهي ثنيات بطون الأنامل، والبراجم، وهي ثنيات ظهور الأنامل. يقول القرطبي في تفسيره^(٣): البراجم جمع بُرْجُمة، وهي ظهر عقدة كل مفصل، وما بين

(٢) نيل الأوطار، ج ١، ص ١١٣، ١١٤.

(١) ج ٤، ص ٧٦.

(٣) ج ٢، ص ١٠٣.

العقدتين تسمى راجبية، أى عقلة الإصبع، فلكل إصبع برجمتان وثلاث رواجب، إلا الإبهام فله برجمة واحدة وراجبتان .

وكذلك نبه الإسلام على نظافة الأباط وثنيات الفخذين والركبتين والأذنين، وأمر بتعهد الأعقاب وبطون الأقدام كما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ رأى قوماً وأعقابهم تلوح، فقال « ويل للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء »^(١).

والنظافة بالاعتسال قد تضطر من لم يكن له مغتسل مُعدُّ لذلك أن يذهب إلى الحمامات العامة، وقد سبق الحديث عنها وعن آداب دخولها في بحث الحجاب .

ومما يجدر ذكره العناية البالغة بنظافة المحيض، والتخلص جهد الطاقة، من الروائح المتخلفة عن هذا الأذى، وقد مر في بحث الحجاب حديث مسلم عن أسماء، وسؤالها النبي ﷺ عن غسل المحيض وشرح ذلك لها مع وجود عائشة التي ساعدت في تفهيم أسماء ما يريده النبي ﷺ، وهو يتلخص في الغسل بالماء والسدرة - نبات يستعان به على النظافة كالصابون - مع العناية بالتدليك وتوصيل الماء إلى أصول الشعر، وإتباع الطهر بقطعة قماش معطرة بالمسك توضع موضع الدم، كما علمها غسل الجنابة والعناية بتوصيل الماء إلى أصول الشعر^(٢).

٢- التخلص من الإفرازات الكريهة الناتجة من المنافذ كالأذنين والعينين والأنف والغم، ومن السواتين، ونبه الإسلام على نظافة هذه الأماكن . والأحاديث في ذلك كثيرة، وحسبك حديث القبرين اللذين يعذب صاحباهما، لأن أحدهما كان لا يتنزه من البول، أو لا يستنثر، والآخر كان يمشى بالنميمة . رواه البخاري ومسلم وغيرهما^(٣) وكذلك أحاديث المبالغة في المضمضة والاستنشاق، وكل ذلك مظهر لإسباغ الوضوء الذي يحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات، ويخرج صاحبه نقياً من الذنوب مع آخر قطرة من الماء، كما وردت بذلك الأحاديث^(٤).

(٢) مسلم، ج٤، ص١٥ .

(٤) الترغيب، ج١، ص٦٧، وما بعدها .

(١) مسلم، ج٣، ص١٢٨ .

(٣) الترغيب، ج١، ص٦٢ .

ويهمنى التنبيه على نظافة الفم والأسنان، منعاً للرائحة المتخلفة من آثار الطعام ونحوه، فإن الفم له دوره الكبير في المتعة الزوجية، ورائحته الكريهة لها آثارها المضادة، ووسائل النظافة ميسرة، والسواك الإسلامى رمز لكل ما يمكن استعماله فى هذا المجال، من فرجون «فرشاة» ومعجون وغيرهما.

٣- التخلص من الزوائد المنفرة، أو المتسببة فى تجمع القاذورات والروائح الكريهة، وأهمها:

(أ) إزالة شعر الإبط، وهى تحصل بأية وسيلة، بالنتف أو الحلق أو المواد المزيلة الحديثة.

(ب) إزالة شعر العانة النابت حول السواتين بأية وسيلة أيضاً، على أن يكون ذلك فى قترات متقاربة لا تزيد على أربعين ليلة، كما صح فى الحديث الذى رواه مسلم^(١). وقد تكون هناك ظروف لا تحدد زمناً معيناً.

(ج) إزالة الشعور المشوهة لجمال الوجه كالنابتة على الخدين أو حول الشفتين، وقد مريبان حكم ذلك، ويتأكد هذا إذا نبتت للمرأة لحية، وبهذه المناسبة نشرت جريدة الأهرام^(٢) أن عجوزاً فى «الرم» عاصمة صقلية، سنها خمس وستون سنة، قيدت اسمها فى مسابقة أجمل لحية، وقد فازت، غير أنها أخرجت بعد ذلك من المسابقة، لأنها خاصة بالرجال، وكان طول لحيتها اثنى عشر سنتيمتراً.

والشعر الموجود فى الأنف لم يرد فى شأنه دليل مقبول، وروى ابن عدى والبيهقى فى الشعب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده حديث «أحفوا الشوارب وأعفوا اللحي، وانتفوا الشعر الذى فى الأنوف» ذكره فى الجامع الكبير للسيوطى^(٣)، وهو ضعيف.

(د) قص الأظافر أو تقلييمها، وقد مر الحديث عنه فى الشرط السابع

(١) ج ٣، ص ١٤٦.

(٢) (٢) ٢٩/٨/١٩٥٤.

(٣) ج ١، ص ٤٥ برقم ١٦٢ / ٧٤٥ طبع مجمع البحوث.

للتجميل، وليس لقصها وقت مخصوص كيوم من أيام الأسبوع، أو كيفية مخصوصة كالبدء بأصبع معين والانتهاه بأصبع معين، فلم تصح بذلك أخبار شرعية، وغاية الأمر عدم إطالة فترة القص أكثر من أربعين ليلة اتباعاً للحديث .

وأنبه إلى عدم المبالغة في قصها، فذلك مؤلم وعائق عن العمل لمدة، بل هناك حالات تستحب فيها إطالة الأظفار إلى حد معقول، كما قال عمر: وفروا الأظفار في أرض العدو، فإنها سلاح. وفسر ذلك بالحاجة إليها في حل عقدة أو ربطها أو ما يشبه ذلك. وقد رفع أحمد هذا الأثر إلى رسول الله ﷺ^(١). وأما إطالتها إلى حد منفر يعوق عن مزاوله الأعمال، أو لطلائها كما مر ذكره، فغير مستحب. وقد ذكر الرحالة محمد ثابت أن من العادات المحبوبة عند الصينيات ترك أحد أظافر اليد يطول إلى مدى بعيد، ليكون دليلاً على ترفع الغادة عن كل عمل يدوي، فهو عنوان الاحتقار^(٢). كما يسن عدم قص الأظافر في العشر الأوائل من ذى الحجة لمن يريد أن يضحى، لحديث النبي ﷺ في ذلك «إذا رأيتم هلال ذى الحجة وأراد أحدكم أن يضحى فليمسك عن شعره وأظفاره» رواه مسلم عن أم سلمة^(٣).

ودليل استحباب هذه الأمور حديث مسلم في خصال الفطرة، وقد تقدم، وجاء في بعض رواياته ذكر الاختتان والاستحداد، والاستحداد هو حلق العانة، وسمى بذلك لاستعمال الحديد، أى موسى فيه، وليس المراد خصوص استعمال موسى، فهذا متروك لإمكان كل شخص، وقد ذكر أن الإمام الشافعى كان يحلق إبطه ولا ينتفه، ويقول: أعلم أن السنة النتف، ولكنى لا أقوى على الوجع^(٤). والاختتان مذكور بتوسع في الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

والفطرة قد سبق الحديث عنها، ويمكن الرجوع لتوضيح المراد منها إلى شرح

(١) غذاء الألباب، ج ١، ص ٣٨٢.

(٢) كتاب بنات حواء لمحمد ثابت.

(٣) ج ١٣، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٤) النووى على مسلم، ج ٣، ص ١٤٩.

صحيح مسلم^(١)، ونيل الأوطار للشوكاني^(٢). ومعظم الأمور الواردة في الحديث ليست واجبة عند العلماء، وفي بعضها خلاف في وجوبه كالختان والمضمضة والاستنشاق، ولا يمنع قرن الواجب بغيره، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] فإيتاء الحق، وهو الزكاة، واجب، والأكل من الثمر ليس بواجب. وحلق العانة سنة، وكذلك نتف الإبط وقص الأظافر، والمضمضة والاستنشاق وغسل البراجم والسواك. أما الاستنجاء فهو واجب، وأما قص الشارب وإعفاء اللحية فسيأتى حكمهما عند ذكر تحمل الرجل.

في تفسير القرطبي^(٣): في الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع ابن المسيب يقول: إبراهيم عليه السلام أول من اختتن، وأول من أضاف الضيف، وأول من استحد، وأول من قلم الأظفار، وأول من قص الشارب، وأول من شاب، فلما رأى الشيب قال: ما هذا؟ قال: وقار. قال: يارب زدني وقاراً. وذكر ابن أبي شيبه عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه قال: أول من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله. وقال غيره: وأول من ثرد الثريد، وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجى بالماء، وأول من لبس السراويل.

* تنبيهان:

١- ينبغي أن تدفن الأجزاء المنزوعة من الجسم، فقد فعل ذلك ابن عمر كما رواه أحمد، وكما رفعه الخلال بإسناده عن ميل بنت مشرَح الأشعرية لما رأت أياها يقلم أظافره ويدفنها^(٤)، ورفع الحكيم الترمذى في نوادر الأصول^(٥). وجاء في مسند الفردوس عن جابر أن النبي ﷺ قال «ادفنوا دماءكم وأشعاركم وأظفاركم، لا تلعب بها السحرة» وحكم الألباني بضعفه «الجامع الصغير للسيوطي».

(٢) ج ١، ص ١١٧.

(١) ج ٣، ص ١٤٧.

(٤) غذاء الألباب، ج ١، ص ٣٨٢.

(٣) ج ٢، ص ٩٨.

(٥) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٠٢.

٢- لا حرمة في إزالة هذه الأشياء في حال الجنابة والحيض والنفاس، فليس هناك أى دليل مقبول على أن من أزالها وهو غير متطهر يؤخذ يوم القيامة لأنها قطعت نجسة، بل ثبت أن النبي ﷺ لما ذكر له الجنب قال «إن المؤمن لا ينجس» وفي صحيح الحاكم «حيا ولا ميتا» وقد قال للذى أسلم «ألق شعر الكفر وأختن» ولم يأمره بتأخير ذلك عن الاغتسال، بإطلاق كلامه يقتضى جواز الأمرين^(١).

وأما التحلية فأهم ما تتحقق به ما يأتي:

١- العناية بشعر الرأس، ترجيلاً وتصفيفاً وتهذيباً وتطيباً، بعد العناية به غسلًا، لإزالة ما فيه من فضلات ونحوها. والترجيل هو التمشيط لإخراج ما عساه يكون عالقاً بالشعر من هوام أو قذى، يقول النووي في شرح صحيح مسلم^(٢): قال العلماء: الترجيل مستحب للنساء مطلقاً. وللرجل بشرط ألا يفعله كل يوم أو كل يومين ونحو ذلك، بل بحيث يخف الأول.

والتصنيف هو التنظيم في ضفائر أو غدائر أو دوائر أو ما يشبه ذلك مما يسمى في العرف الحاضر بالتسريحة، وتهذيبه يكون بتقصيره أو تطويله وتلميعه بالأدهان، وتطيبه بالروائح والمعجونات المعطرة.

وإكرام الشعر بهذه الأمور قد ورد نذبه للرجال، كما اعتاده العرب في أيامهم الأولى، وما يزال بعضهم محافظاً عليه إلى الآن، خصوصاً أهل البدو، وفعله النبي ﷺ، وهو للنساء ألزم، وبهن أليق. وروى بسند ضعيف في مسند الفردوس عن علي حديث «إذا خطب أحدكم المرأة فليسأل عن شعرها كما يسأل عن جمالها، فإن الشعر أحد الجمالين».

ومن الأدلة على نذب هذه الأمور:

(أ) أن النبي ﷺ كان يترجل غيباً، أى على فترات. رواه الترمذى فى الشمائل، وقال: حسن. وعن عبد الله بن المغفل: نهى رسول الله ﷺ عن الترجل إلا غيباً. [رواه الخمسة إلا ابن ماجه وصححه الترمذى].

(١) المصدر السابق.

(٢) ج ١٤، ص ١٣٧.

(ب) قوله ﷺ « من كان له شعر فليكرمه » رواه أبو داود عن أبي هريرة، وليس بقوى، ولكن تشهد له الأحاديث الأخرى^(١)، وفي الجامع الصغير للسيوطي بتخريج الألباني: رواه أبو داود عن أبي هريرة، والبيهقي عن عائشة، وهو صحيح.

(ج) دخل على النبي ﷺ رجل نائر الشعر أشعث اللحية، فقال « أما كان لهذا دهن يسكن به شعره »؟ ثم قال « يدخل أحدكم كأنه شيطان » رواه ابن حبان وأبو داود والترمذي بإسناد جيد عن جابر. وجاء في نيل الأوطار^(٢) أن مالكا أخرج عن عطاء بن يسار قريبا من نص هذا الحديث: وفيه أن الرجل بعد أن أصلح شعره قال النبي ﷺ « أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم نائر الرأس كأنه شيطان ».

(د) كانت لأبي قتادة جُمَّة - وهي ما سقط من شعر الرأس على المنكبين - فسأل رسول الله ﷺ عنها قال « أكرمها وادهنها » رواه الطبراني في الأوسط عن جابر، وأخرجه مالك في الموطأ^(٣) وفيه: فقال « نعم وأكرمها ».

(هـ) نظر رجل إلى النبي ﷺ ومعه مدرى - مشط أو ما يشبهه - يرجل به رأسه. رواه مسلم عن سهل بن سعد الأنصاري^(٤).

والأمشاط والأساور وغيرها المتخذة من سنّ القيل أو عظام الحيوانات غير السمك - نجسة لا يجوز استعمالها، وهي مبلولة كما قاله الشافعي، لأن كل ما انفصل من الحيوان حكمه حكم ميتته، إلا شعر ووبر المأكول، والقيل غير مأكول، ولم يستثن عظم المأكول وهو طاهر عند أبي حنيفة، وعند مالك يظهر بصقله. قاله الدميري في كتابه « حياة الحيوان الكبرى - السلحفاة البحرية ».

(و) كان أزواج النبي ﷺ يأخذون من شعره وسهّن حتى تكون كالوفرة. رواه مسلم^(٥). والوفرة ما قصر عن اللمة أو طال عنها على اختلاف في معناها،

(١) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٣٨، والجامع الصغير ج ١، ص ٥٣.

(٢) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٣٨. (٣) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٣٩.

(٤) ج ١٤، ص ١٣٧. (٥) ج ٤، ص ٥.

واللِّمَّة ما يُلم من الشعر بالمنكبين كما قاله الأصمعي، وهذا يشبه تقصير الشعر، والخلاف في تحديد معنى الوفرة واللمة والجمة موجود في نيل الأوطار^(١). وجاء في ثلاثيات أحمد^(٢) أن الجممة هي مجتمع شعر الرأس، وأنها الشعر الذي ينزل على المنكبين. واللمة الشعر الذي ينزل عن شحمة الأذن، والوفرة الذي يبلغ شحمة الأذن.

وكان من عادة نساء العرب أن يتخذن القرون والذوائب، وأزواج النبي ﷺ قصرن شعورهن بعد وفاته، لتركهن التزين، واستغنائهن عن تطويل الشعر، وتخفيفاً لمثونة رءوسهن. وكان ذلك منهن بعد وفاته كما قال القاضي عياض وغيره، ولم يكن في حياته. وروى النسائي عن علي رضي الله عنه قوله: نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها^(٣).

وأنبه إلى وجوب إزالة الأدهان عند التطهر للصلاة، ليصل الماء إلى البشرة، وخفف مالك عن العروس فأجاز لها تركها في شعرها، لمشقة إزالتها كلما دعا داعي الغسل، وهو كثير في أيامها الأولى، واكتفى بمسح الرأس فقط، معللاً ذلك أيضاً بأن الغسل فيه إتلاف للمال، بل قال علماء المالكية: لو كان الطيب في جسدها كله يممت^(٤). ولعل في حفاظه على الدهن لدرجة السماح بوجوده عند التطهر مع شدة عنايته بالتدليك ليصل الماء إلى كل أجزاء الجسم - دليلاً قوياً على تأكد هذا الطيب للعروس.

كما يجب على المرأة نقض الضفائر عند الاغتسال إن لم يصل الماء إلى شعون الشعر إلا به، فإن وصل بدون النقض كأن كانت الضفائر غير مشدودة شداً قوياً كان النقض مندوباً فقط.

ولا أستحسن للمرأة تقصير شعرها إلى حد تشبه فيه الشبان الذين يرسلون شعورهم. فإن الشعر يضيف على المرأة جمالاً، على الرغم مما تزعمه بعض

(٢) ج ٢، ص ٢٠٧.
(٤) فقه المذاهب الأربعة.

(١) ج ١، ص ١٣٧.
(٣) رياض الصالحين، ص ٦٠.

الشاذات . فما سحر « مارك أنطونيو » من كليوباترا إلا شعرها الأسود وخصلاته المتماوجة الطويلة . وحروب « طروادة » الهائلة وتحركات الأساطيل اليونانية لأكبر معركة سجلها التاريخ القديم كانت من أجل « هيلانة » الجميلة ذات الشعر المعقوص المضفر بشرائط الذهب . وشعر « مدام دي بومبادور » الذى جمعته عالياً فوق رأسها، وسرحته بطريقتها الخاصة التى مازالت تحمل اسمها إلى اليوم، سحر البلاط الفرنسى ورجال الأدب والسياسة والدين .

والمعروف من نساء العرب – وهن فى أفانين الجمال مضرب المثل ومبعث إلهام الشعراء – أنهن كن يتخذن القرون والذوائب، ولم تقصر نساء النبی شعورهن فى حياته بل بعد وفاته كما تقدم .

هذا، وأحذر كل التحذير أن تسلم المرأة شعرها لرجل يصفه، فذلك عمل ينكره الشرع، وتأباه الغيرة، ولو قامت بذلك أنثى فلا بأس به، ولا حاجة إلى تكرار التحذير من تتبع « المودات » المتعاقبة فى تصفيف الشعر فذلك شأن من لا هم لهم فى الدنيا إلا المال واللهو، وهم اليهود كما قدمنا .

ويتصل بتحلية الشعر تلوينه لإخفاء شيبه، وذلك جائز لا كراهة فيه، بل قد يكون مطلوباً، فهو أدرى إلى السرور وميل القلب أكثر، ولا يتقيد التلوين بأى لون، ولا بأية مادة، من جهة الشرع لا من جهة الطب، غاية الأمر أن العلماء تكلموا قديماً فى صبغ الشعر باللون الأسود، فمنعه الأكثرون، لكن أدلتهم منصبة على الرجال، أو على حالة التدليس، كأن تريد العجوز أن تظهر فى هيئة الشابة، وذلك ظاهر فى غير المتزوجة، فهى تريد أن ينفق سوقها، أما المتزوجة التى يعلم ذلك زوجها فلا بأس فى صبغ شعرها بما يروق لها وله، بل إن ابن الجوزى أجازها للرجال، وما ورد من النهى عنه فمحمول على الإغراء على التهاون فى الطاعة التى ينبغى للشيخ أن يكثُر منها، استعداداً للقاء ربه، ورجاء لحسن خاتمته، والأعمال بالنيات .

قال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسى الحنبلى المتوفى

في ٢ من رجب سنة ٧٦٢هـ، والذي تتلمذ على ابن تيمية، في كتابه «الآداب الشرعية والمنح المرعية»: مذهب الحنابلة يسن تغيير الشيب، وفيه حديث الصحيحين «إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالقوهم»، ويستحب بحناء وكتف، لفعل النبي ﷺ، رواه أحمد وابن ماجه، وإسناده ثقات، ولفعل أبي بكر وعمر، متفق عليهما، ويكره بالسواد، نص عليه أحمد. قيل له: يكره الخضاب بالسواد؟ قال: أي والله، لقول النبي ﷺ عن والد أبي بكر «وجنبوه السواد» رواه مسلم، قال بعض المعلقين: حديث والد أبي بكر واقعة حال لا تدل على كراهية السواد لكل أحد شرعاً، وقد روى الزهدي ما يدل على تعليلها، إذ قال: إنهم كانوا يخضبون بالسواد لما كان الوجه جديداً، فلما نقض الوجه والأسنان تركناه، ذكره الحافظ في شرح البخارى، ومعناه، كما صرح به بعضهم، أن الشيخ الهرم إذا خضب شعره بالسواد يكون مثله، ورخص فيه إسحاق بن راهويه للمرأة تتزين به لزوجها، ولا يكره للحرب، وعند الشافعية يستحب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة، ويحرم بالسواد على الأصح عندهم. اهـ.

هذا، وجاء في مسند الفردوس وابن النجار عن أنس: أن أول من خضب بالحناء والكتف إبراهيم، وأول من اختضب بالسواد فرعون، ولكنه ضعيف كما قال الألبانى، وروى البزار وأبو نعيم حديثاً مرفوعاً عن أنس «اختضبوا بالحناء، فإنه يزيد فى شبابكم وجمالكم ونكاحكم» وقال الألبانى: إنه موضوع. ويراجع زاد المعاد لابن القيم فى الخضاب^(١)، وروى ابن ماجه عن صهيب مرفوعاً «أحسن ما اختضبتن به من هذا السواد، أرغب لنسائكن، وأهيب لكم فى صدور عدوكن»^(٢).

وإذا جاز الصبغ للمرأة فليكن للتي ظهر شيبها وهى لاتزال فى سننها المبكرة مكتملة الأنوثة، فإن ظهور شيبها العاجل يولد عندها عقدة نفسية تلازمها، وفى

(١) ج ٣، ص ١٨٣.

(٢) الجامع الكبير للسيوطى، ج ١، ص ٢٣٠، برقم ١٠٩ / ٦٩١ طبع مجمع البحوث.

ذلك ضرر على صحتها، و بالتالى على راحة زوجها و سروره، لكن المرأة اسى تقدمت بها السن، وجاءها الشيب فى ميعاده و معه تصریح بالدخول، فالأولى أن يكون خضابها بغير سواد، حتى يكون هناك فارق بينها وبين الشابة، وإذا كان شديداً على المرأة، فهي تهوى أن تكون دائماً فتية مهما بلغت سنها، فالرجل ما يزال يحتل المركز الرئيسى فى بؤرة شعورها حتى لو كانت على حافة القبر، يقول أبودلف:

تهزأت أن رأَت شيبى فقلت لها لا تهزئى، من يَطلُّ عُمُرَ به يشب
شيب الرجال لهم زين و مكرمة وشيبكن لكن الويل فاكتئبى
فيينا لكن، وإن شيب بدا، أرب وليس فيكن بعد الشيب من أرب

وقد تقدم شعر للعجوز التى كانت تسرق طعام أهلها لتشتري به من العطار ما يصلح شأنها، وإليك بعض الأحاديث الواردة فى النهى عن الخضاب بالأسود:

(أ) لما رأى النبى ﷺ أبا قحافة - والد أبى بكر - عام الفتح وشعره مثل الثَّغَمَة - شجرة إذا يبست ابيضت فروعها - قال «غيروا هذا بشيء»، واجتنبوا السواد» رواه مسلم عن جابر^(١).

(ب) حديث « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة » رواه أبو داود والنسائى عن ابن عباس بإسناد جيد^(٢). ويريحون - بفتح الياء - من راح، وبضمها من أراح أى وجد الريح.

٢- مما تتحقق به التحلية تجميل الوجه، وذلك بالمساحيق والألوان، وقد تقدم حكم ذلك وشروطه بالتفصيل.

وهذه الأصباغ لم تكن معروفة للمسلمين فى أيامهم الأولى، ودخلت علينا حديثاً، وهى تختلف باختلاف الأذواق والبيئات، فليس لها تحديد، والعرب كانوا يعرفون منها « اللِّمَى » أى سمرة الشفة، وكان ذلك طبيعياً لا صناعياً، أراد

(١) ج ١٤، ص ٧٩ ورياض الصالحين ص ٥٩٩.

(٢) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٣٢، والترغيب ج ٣، ص ٤٤.

المتأخرون تقليده بالوشم، فلم يفلحوا، وهو ما يقابل «الروح» أو أحمر الشفاه، وكذلك كانوا يعرفون كحل العين، ويفضلون «الإثمد» وهو حجر صلب أسود براق، يؤتى به من أصبهان، ويقال: إن أول من اكتحل به من العرب «زرقاء اليمامة» يقول الجاحظ: إنها كانت من بنات لقمان بن عاد، وإن اسمها «عنز» وكانت هي زرقاء، وكانت «البسوس» زرقاء، وكانت «الزُبَاء» زرقاء^(١). وكانت زرقاء اليمامة تكثر من الاكتحال بالإثمد، ويعزى إليها حدة بصرها، حيث كانت ترى الجيش المغير على قومها من مسيرة ثلاثين ميلاً^(٢)، أو ثلاثة أيام كما في «حياة الحيوان»^(٣).

وكان الرسول ﷺ يحب الإثمد ويحرص على الاكتحال به، فعن ابن عباس أنه قال «اكتحلوا بالإثمد، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر» وزعم أن النبي ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة، ثلاثة في هذه وثلاثة في هذه. رواه الترمذى وحسنه. ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه بلفظ آخر^(٤). وفي رواية عن علي عن النبي ﷺ «عليكم بالإثمد، فإنه منبته للشعر، مذهبة للقدى، مصفاة للبصر» رواه الطبراني بسند حسن^(٥).

غير أنى أنبه إلى خطر السموم الداخلة في الأصباغ الحديثة، فقد جاء في الأخبار^(٦) أن آخر طريقة ابتكرتها المرأة للانتحار هي ما لجأت إليه السيدة (ماريا بيجوليني) فقد أذابت إصبع أحمر شفاه في كوب ماء وتجرعته، فأحست بالمغص ثم ماتت. كما أعلنت هيئة الصحة العالمية اليوم أن أحمر الشفاه قد يسبب الإصابة بالسرطان^(٧). وقال بعض الباحثين: إن أصل استعمال أحمر الشفاه لم

(١) حياة الحيوان الكبرى - بمام. (٢) أعلام النساء لعمر كحالة.

(٣) مادة بمام ..

(٤) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٤٢، والترغيب، ج ٣، ص ٤٥.

(٥) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٤٣، والترغيب ج ٣، ص ٤٥.

(٦) أخبار اليوم ١٣/٩/١٩٤٧.

(٧) الأهرام ١٠/١٢/١٩٦٣، برقية من جينيف في ٩ منه.

يكن للتجمل، بل كان وسيلة لمعرفة مقدار عفاف المرأة، والرجل هو الذى كان يراقبه ويشرف عليه، فعندما كان يخرج من منزله يخشى أن تتصل زوجته بمن تحب، ويكون من أثر الاتصال، على الأقل، قبلة الفم، فكان أثر الروج المنتقل على شفة العاشق دليلاً على سلوكه تكشفه به زوجته، وبعثاً للرجال على أن يراقبوا أثر القبلة فى تشويه الأحمر الذى وضع على شفة المرأة بمعرفتهم ليعرفوا سلوكها.

٣- العناية بتجميل أطرافها، وأعنى بها اليدين والرجلين، وذلك يكون بالخضاب بالحناء والتلوين بالألوان المختلفة، ولا بأس بالحناء، فهى كما قالت عائشة: شجرة طيبة وماء طهور. وأخرج أبو داود والنسائي أن امرأة سألت عائشة عن الخضاب بالحناء، فقالت: لا بأس به، لكنى أكرهه، لأن حبيبي ﷺ كان يكره ريحه^(١).

واستبدل النساء بالحناء أحمر الأظافر لليد «مانيكور» وللرجل «بيدكور» وحكمه حكم الحناء جوازاً، غاية الأمر أنه تجب إزالته عند التطهر للصلاة، فهو جرم لا لون فقط، كما أحذر من خطره عند تهيئة الطعام والشراب، والحناء تفضل هذه الأصباغ، لأنها لون فقط، ولا ضرر فيها طبياً، ولا يحول الخضاب بها بينها وبين مزاوله الأعمال وتهيئة الطعام والطهارة للصلاة.

٤- استعمال الطيب، وهو أمر بدهى الجواز بل الاستحباب، فالناس من قديم الزمان يلجئون إليه تطيباً للنفس وطرداً للهم وجذباً للقلب. فهو محمود طبعاً وطبياً وشرعاً، والنبي ﷺ كان يحب الطيب كثيراً، ويكره الرائحة الكريهة أن يشمها أو تنبعث منه. فعن السيدة عائشة قالت: صنعت لرسول الله ﷺ جبة من صوف فلبسها، فلما عرق وجد ريح الصوف فخلعها، وكان يعجبه الريح الطيبة، صححه الحاكم^(٢)، وكان يكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة، كما رواه ابن عدى عن عائشة^(٣)، وأوصى به فى مناسبات كثيرة خصوصاً التى يكثر فيها

(٢) الإحياء، ج ٢، ص ٣١٨.

(١) حسن الأسوة.

(٣) المرجع السابق.

الزحام كصلاة الجمعة، وهو ﷺ، وإن كان يعلم أن رائحة العرق كريهة ويجتهد في التخلص منها، كان الناس يشمونّه طيباً، ويحرصون على التطيب منه، كما فعلت أم سليم، رواه مسلم عن أنس^(١).

وكان نساء العرب يحرصن على الطيب جذباً لقلب الزوج، وبخاصة إذا كن ضرائر، فقد ذكرت أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمى أنها كانت رابعة أربع نسوة عند عتبة، وقالت: فما منا امرأة إلا وهى تجتهد فى الطيب لتكون أطيب من صاحبته، ذكره الطبرانى فى معجمه الصغير، ثم ذكرت أن ریح عتبة كان أحسن، لأن النبى ﷺ مسح جسمه من علة كانت به فبرئت وعبق به الطيب من يومها^(٢). وحسبك أن تعلم أن عليا كرم الله وجهه لما جاء بمهر فاطمة عليها السلام أخذ النبى ﷺ من قبضة وقال لبلال «ابتع لنا بها طيبا» رواه أبو حاتم وأحمد عن أنس^(٣).

وجاء فى الحديث أنه قال «حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» رواه النسائى فى سننه عن أنس، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الحافظ: إسناده حسن، وهو مروى عن أنس^(٤)، والكلام كثير فى عدم ورود لفظ «ثلاث» فى هذا الحديث^(٥).

- ويتأكد استعمال الطيب عند الداعى إليه، كما تقدم فى اتباعه أثر الحيض للتعفية على أثره، وخير طيب الرجل ما ظهر ريحه وخفى لونه، وخير طيب للمرأة ما ظهر لونه وخفى ريحه، أى قلّ حتى لا يشعر به إلا من قرب منها، وذلك هو زوجها لا غير، ومن تحرم عليهم، فعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال «إن

(١) المواهب اللدنية، ج ١، ص ٢٨٢، ٢٨٣. (٢) المرجع السابق..

(٣) المواهب اللدنية، ج ١، ص ٨٩.

(٤) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٤٣، والإحياء ج ٢، ص ٣١٨.

(٥) المواهب اللدنية ج ١، ص ٣٤١.

طيب الرجل ما ظهر ريحه وخفى لونه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه»
رواه النسائي والترمذى، وقال: حديث حسن^(١). وقد تقدم نهى المرأة المستعطرة
أن تمر على قوم ليجدوا ريحها.

هذا، والطيب قديم لا يعرف تاريخه، وذكر أن كليوباترا كانت تستخدم
أغلى العطور، وهو المسمى «كيفى» وفى كل مرة تستعمل منه فى تعطير يديها
ما قيمته أربعمائه دينار ذهبى، وهو منتج من مختلف الأعشاب والتوابل، وكان
عبيره يفوح فى أرجاء قصرها.

وكان «أشوربانيبال الثالث» أول من استعمل المساحيق لتجميل وجهه،
وأول من عطر لحيته الطويلة بالعطور الغالية، وفى القرن السابع الميلادى أصبحت
نينوى وبابل مركزين مهمين لصناعة العطور وتجارتهما، وقيل: إن الاسكندر الأكبر
أول من استعمل عطر الورد المشهور فى فارس، وقد عثر على كمية كبيرة منه فى
مخيم الملك «داريوس الميذى» بعد أن هزمه فى معركة «أربيل» وتقدم قرار
البرلمان البريطانى فى التحذير من خطر الفتنة به. يقول جالينوس فى أهمية
العطور: على من يملك رغيقين من الخبز أن يبيع أحدهما ليشتري به النرجس،
فإذا كان الخبز غذاء الجسم فالنرجس غذاء الروح، وقال: المسك يقوى القلب،
والعنبر يقوى الدماغ، والكافور يقوى الرئة، والعود يقوى المعلاق، والصندل يحل
الأورام^(٢).

٥- استعمال الحلى، ومعروف أنه من شأن النساء فى الغالب، ولا ضابط
لشكله ونوعه، ولا لموضعه من البدن، والمنهى عنه فى الإسلام هو الإسراف فيه
واستعماله لغير الزوج، أى للإغراء والفتنة أو التدليس.

وقد تحدث العلماء عن حكم ثقب الأذن لوضع القرط فيه، فكرهه
الجمهور، آية ﴿وَلَا مَرْئِيهِمْ فَلْيَتَكَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩]، قياساً على
البحيرة فى قطع أذنها، ورخص بعضهم فيه للأثني دون الذكر، لحاجتها إلى

(١) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٤٥. (٢) ملحق جريدة القبس ٢٦/٢/١٩٧٩م.

الحلية، واحتجوا بحديث أم زرع: أناسٌ من حلى أذننى، وقد تقدم، ووجه الاستدلال أن النبي ﷺ أقره ولم ينكره حيث قال لعائشة «أنا لك كأبى زرع لأم زرع» ونص أحمد على جواز ذلك في حق البنت وكراهته في حق الصبي^(١).

هذا، وهناك قرطان يضرب بهما المثل فيقال: خذه ولو بقرطى مارية. وهى مارية بنت ظالم بن وهب، وقيل: أم ولد جفنة، قال حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يقال: إنها أهدت إلى الكعبة قرطبيها، وعليهما درتان كبيضتى الحمام، لم ير الناس مثلهما، ولم يدروا قدرهما «حياة الحيوان الكبرى للدميرى - مارية».

وبهذه المناسبة نقول: هل على المرأة زكاة فى حليها أولا؟ جاء فى كتاب «حسن الأسوة، ص ٢٧٦»: وردت عدة أحاديث فيها وعيد شديد لمن لم تؤد زكاة حليها، مثل ما رواه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة أتت النبي ﷺ ومعها ابنة لها، وفى يد ابنتها مسكّتان غليظتان من ذهب، فقال لها «أتعطن زكاة هذا؟» قالت: - لا، قال «أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟» قال: فخلعتهما فألقتهما إلى النبي ﷺ وقالت: هما لله ورسوله.

وبعد أن أورد المنذرى فى الترغيب والترهيب أحاديث الوعيد قال: إنها تحتمل وجوهاً من التأويل، ملخصها:

(أ) أن ذلك منسوخ، فإنه قد ثبت إباحة تحلى النساء بالذهب.

(ب) أن هذا فى حق من لا يؤدى زكاته دون من أداها، فقد اختلف العلماء فى ذلك، فروى عن عمر أنه أوجب الزكاة فى الحلى، وهو مذهب كثير من الصحابة والتابعين، وعليه سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابه، ولم يوجبها عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعائشة وغيرهم، وعليه مالك أحمد. وكان الشافعى يقول بهذا وهو بالعراق، ثم وقف عنه بمصر، قال الخطابى: الظاهر من

(١) إغائة اللهقان لابن القيم، ص ٥٨.

الآيات يشهد بقول من أوجبها والأثر يؤيده، ومن أسقطها ذهب إلى النظر ومعه طرف من الأثر، والاحتياط أداؤها.

(ج) أنه في حق من تزينت به وأظهرته، لورود أحاديث تنص على ذم إظهاره.

(د) أنه منع منه الغليظ الكثير، فإنه مظنة الفخر والخيلاء.

هذا، وجاء في «فقه المذاهب الأربعة»^(١) أن المالكية يوجبون الزكاة في الحلبي إن مضى عليه حول وبلغ النصاب إذا كان متخذاً ذخراً للنوائب فقط، أو لاستعماله في وقت مستقبل، كتهيئته مخزوناً لعروس مستقبله. وقد أوجب الشافعي زكاته إذا أسرف فيه، كخلخال بلغ وزنه مائتي مثقال، وكذلك إذا انكسر ولم يعد صالحاً للاستعمال وترك، أما أبو حنيفة فإنه يوجب فيه الزكاة في جميع الأحوال.

وما دام الأمر خلافياً فقد يكون من المناسب أن يقال بوجوب الزكاة فيه إذا زاد عن حد المعقول المناسب الذي يقدره العرف، وإذا تكسر ولم يعد صالحاً للاستعمال وترك.

٦- لبس الملابس الجذابة، فإن لونها ونظافتها وتنسيقها وحسن حياكتها من أسباب البهجة اللازمة لسعادة الحياة الزوجية، والملابس تدل على أخلاق اللباس، وذوقه، والأذواق مختلفة، ولكل عصر وفصل ما يناسبه، ولكل بيئة ما يتلاءم معها، وليس هناك تحديد زى خاص ما دام ذلك للاستعمال الداخلي للزوج فقط، فالحرية التامة مكفولة في هذا المقام، وتحديد الزى بالنسبة لغير الزوج مفصل في بحث الحجاب، والملابس البيضاء مرغّب فيها لحديث «البسوا الثياب البيض، فإنها أظهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم» رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن سمرة، وهو صحيح. ورواه الترمذي بلفظ «البسوا البياض...» وقال: حديث حسن صحيح. وجاء قريباً منه عن ابن عباس مرفوعاً،

(١) ص ٤٨٢.

رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه وغيرهما، كما روى قريباً منه ابن ماجه من طريق أبي الدرداء^(١).

وأحب أن أنبه إلى أن ظهور الزوجة بالمظهر اللائق أمام زوجها لا تنزمه الملابس الغالية، بل النظافة والتنسيق هما العاملان الأساسيان في هذا المجال حتى لو كانت رخيصة الثمن. ولا تخشى أيتها السيدة من النصوص الواردة في النهي عن بعض الملابس، فكل ذلك إذا كان لغير الزوج، أو للمباهاة، كما تقدم في الشروط الخاصة بالتجمل العام.

وهذه مسألة تتصل بموضوع الزينة، وهي استعمال الفراء «Furrure» المتخذ من جلود نظر بعض الحيوانات كالثعالب والنمور وغيرها، فقد اختلف العلماء في طهارة هذا الفرو ونجاسته، تبعاً لاختلافهم في حل أكل الحيوان المأخوذ منه وحرمة، وفي حكم طهارة جلد الميتة عن طريق الدباغ، فقال الشافعي بحل أكل الثعلب ولكن إذا ذبح ذبحاً شرعياً، فلو مات بدون ذلك فله حمة نجس وكذلك جلده ولكنه يطهر بالدباغ. وحرمة أحمد بن حنبل، وكرهه أبو حنيفة ومالك، على أن بعض القائلين بحرمة أكله أجازوا استعمال فروه للباس لا للصلاة فيه.

وقد ذكر النووي في شرح صحيح مسلم سبعة مذاهب في طهارة جلد الميتة بالدباغ، وجاء في أحد الأقوال أنه يطهر كل الجلود حتى جلود الخنازير والكلاب. وذلك ظاهراً وباطناً، أي تستعمل للصلاة عليها والصلاة فيها، وهو مذهب الظاهرية، وحكى عن أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة^(٢).

جاء في غذاء الألباب^(٣) كلام كثير عن حكم الفراء من هذه الحيوانات، وذكر أن أول من اتخذ الفراء والجلود من مثل السنجاب، ولبسها وألبسها، وهو «شيخ شاه» الملقب عند العجم «بيش داديان» كان ملكاً عادلاً، وله كتاب في الإلهيات، حتى قال العجم بنبوته، وهو أول من ترك الملك، وتخلي للعبادة، فقتل في معبده، وانتقم له «طمهورث» من القتلة، وبني موضعه مدينة «بلخ».

(٢) شرح صحيح مسلم، ج ١، ص ٥٤.

(١) الترغيب، ج ٣، ص ٢٩.

(٣) ج ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢٢.

وبعد، فهذه أيتها السيدة هي الزينة وأنواعها الغالبة وموقف الإسلام منها، ويتضح لك كثير من جوانبها بقراءة كتاب «الحجاب بين التشريع والاجتماع» أحد حلقات سلسلة موسوعة الأسرة. وإنى أشعر أننى قد أطلت الكلام فيها، ويشفع لى فى ذلك دقة الموضوع وشدة الحاجة إلى الإحاطة بنواحيه المختلفة، وأثره فى سلوك المرأة عامة والزوج بوجه خاص، وأقدم لك كفارة عن هذه الإطالة زينة مثالية شهدت تجارب الأجيال بجدارتها فى أداء رسالتها على الوجه الأكمل، فقد سئلت إحدى السيدات: أى أنواع الزينة تستعملين؟ وذلك عندما عرفت لدأئها أنها أسعد زوجة لم تمر بسماء حياتها سحابة تحجب شمس البهجة والانسجام، أجابت بقولها: أزين لسانى بالذكر، وشفتى بالحق، وعينى بالرحمة، ويدي بالعطاء، وقوامى بالاستقامة.

هذه هي الزينة المطلوبة، وهذه هي آثارها الزوجية، فلتحذر السيدة التهاون فيها، وألفتُ نظر بعض السيدات اللاتي يزهدن فيها لعارض من العوارض جرَّ معه هما، ما دام الزوج لا يرضى هذا المسلك منها، فقد أرينا بعضهن يطلن مدة الإحداذ على أحد الأقارب، حتى تبلغ فى بعض الأحيان عاماً، أى ميعاد وفاته، وتحرص على التجرد من كل زينة مهما قلَّ شأنها، خشية أن ترميها قريباتها بقسوة القلب وجمود العاطفة نحو الفقيد. وقد يلحق هذا الحزن حزن آخر قبل أن ينتهى العام على الأول فتبدأ فترة هم أخرى، وريب المنون غير مأمون. وتمر هذه السلسلة من الأحزان وآثارها والزوج ينتظر- على أحر من الجمر- أن يجد من زوجته الروضة النظرة التى ينفس عن همومه بالتمتع بزهورها، وأنى له ذلك فى إحداها؟ وهو لا يجد من روضته إلا أرضاً جرداء. قد أرسل الله عليها حساباً من السماء، فأصبحت صعيداً زلقاً، غاض ماؤها فلا يستطيع لها طلباً.

نعم، لك أن تجاملى زوجك فى مصابه هو، فتظهري أمامه بمظهر المتأللة الزاهدة فى زينة الدنيا، ما دام ذلك يريح أعصابه، لكن لو أرادك متزينة، على الرغم مما يحيط به أو بك من آلام، فعليك السمع والطاعة، حتى لو كان ذلك فى أشد أزماتك النفسية.

هذا، وهناك من الموانع ما يقف حائلاً دون التزين، أجمل أهمها فيما يلي :

١- حرم الله على من أحرم بحج أو عمرة أن يشم طيباً أو يستعمله على أى نحو من الأنحاء، كغسل بصابون معطر، وكطعام وشراب خالطه ريح طيبة، إذا كان القصد هو التطيب والتمتع بالرائحة الجميلة، ومثل ذلك الاكتحال ودهن الشعر أو أى جزء من الجسم بما يحتوى رائحة عطرية، بل ذهب بعض العلماء إلى تحريم كل ما من شأنه التمتع حتى لو كان بغير عطر، كاستحمام ونحوه، فإن كل ترفيه لا يليق بالمحرم الذى ينبغى أن يظهر بمظهر الخضوع والذلة والزهد، ونزع كل ما يفرق بين الناس من ملابس أو أى مظهر يكون له أثره فى ذلك، ليتلقى الدرس العملى على التخلص من أسرار المادة، والذهاب إلى الله فى ساحة عرفات على صورة وقوفه مع الناس أمامه يوم الحشر الأكبر حفاة عراة ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٤].

كذلك حرم على المحرم إزالة شعرة من جسمه أو قلم ظفر مما كان يعد ترفيهاً فى غير حالة الإحرام. وفى مخالفة ذلك كفارة مفصلة فى كتب الفقه، سأل رجل رسول الله ﷺ : من الحاج؟ فقال « الشَّعْثُ التَّفْلِ » رواه ابن ماجه بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر (١). والشعث - بكسر العين - هو البعيد العهد بتسريح شعره وغسله، والتفل - بكسر الفاء - هو الذى ترك الطيب والتنظيف حتى تغيرت رائحته.

وليس المراد بذلك ترك الغسل نهائياً حتى يؤذى غيره برائحة جسمه، فهناك أغسال مسنونة فى مواضع كثيرة أثناء الإحرام، والشواهد على ذلك مبسطة فى مكانها من كتب الفقه، وإذا كان هناك منع من التطيب حال الإحرام فهو للمرأة ألزم، وذلك منعاً للافتتان بها فى هذا المجتمع المتزاحم، وهى فى حد ذاتها فتنة، فكيف بها إذا تعطرت أو تزينت؟

٢- كذلك كره بعض العلماء للصائم أن يستعمل الروائح العطرية أثناء

(١) الترغيب، ج ٢، ص ٥٩.

النهار، تعاوناً مع الجوع والعطش على ترويض النفس وفضامها عن شهواتها، وكذلك كره بعضهم دهن الشعر بالأدهان، أو صبغه بنحو حناء، وإن كان ذلك لا يفسد الصوم. غير أن الإمام مالكاً قرر أن الدهن لو تخلل من مسام جلدة الرأس حتى وجدت المرأة طعمه في حلقها بطل صومها، وهذا واضح فيما إذا كانت كمية الدهن كبيرة تسمح بالتخلل إلى هذا المدى. وعلى كل حال فالأولى منعه خوفاً على الصوم أن يبطل، ومثل الدهن في هذا الحكم كحل العينين أو القطرة لو وجد طعمها في الحلق.

على أن الأجدد بالصائمة الامتناع عن الزينة نهائياً إذا كان زوجها صائماً، بل ينبغي لها ذلك حتى لو لم تكن صائمة. ويتأكد ذلك إذا كان الصيام في رمضان، حتى لا يكون الإغراء بالزينة مؤدياً إلى الإفطار بما تكون كفارته مغلظة، وهي صوم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، وهل يليق أن تكون المرأة بزيتها سبباً في هذا الحكم الشديد؟

٣- أوجب الإسلام على المرأة المتوفى عنها زوجها الإحداً لمدة الحمل إن كانت حاملاً، أو أربعة أشهر وعشراً إن كانت حائلاً أى غير حامل، ومظهر الإحداً هو الامتناع عن كل أنواع الزينة في البدن والثوب، إذ ليس هناك ما يقتضيها، بل يوجد ما يمنعها. وتفصيل ذلك في الحديث عن الوفاء.

ولكن من أين تأتي المرأة بالزينة ومن الذى يتحمل تكاليفها؟ إن الإسلام، وإن أكد طلبها لأثرها القوى في السعادة الزوجية- هل يكلف الزوج بذلك كنوع من أنواع النفقة اللازمة للزوجة؟ لقد مر في بحث الإنفاق عليها أن العلماء قالوا بوجوب إحضار ما يتحقق به الحد الأدنى من التجمل للمرأة، ففي شرح الخطيب لمثن أبى شجاع فى فقه الشافعية: يجب على الزوج إحضار المشط لها. ودهن الشعر وما يزيل القذر من صابون ونحوه، وما يزيل الآثار الكريهة والروائح العفنة، ويجب عليه ثمن ماء غسل الجنابة إن كان يشتري، بل ويدفع لها أجرة دخول الحمام إن احتاجت لدخوله لإزالة آثار الحيض، وذلك فى كل شهر مرة.

أما ما تتحقق به التحلية، وهى المرتبة التى فوق الحد الأدنى من الزينة، فليس عليه إحضاره لها، وذلك كالكحل والطيب والحضاب وكل ما تنزين به، فإن تبرع بذلك فهذا شأنه هو، ولو أحضره لها وجب عليها استعماله^(١). والفيصل فى ذلك هو المعروف الذى أمرنا بمعاشرتها على أساسه، كما تقدم غير مرة.

* تجمل الزوج لزوجته :

لقد مر فى الباب الأول عند ذكر محافظة الزوج على شعور زوجته، الإشارة إلى حسن هندامه، وأثر ذلك فى جذب قلبها إليه، وما قاله عمر وابن عباس وغيرهما فى هذا الموضوع، ثم وعدتك بتفصيل الحديث عنه فى الباب الثانى، وهذه هى مناسبتة.

وقد يكون غريباً عند بعض الناس أن يكلف الرجل بالتجمل لزوجته، ولكن هل تناسى هؤلاء طبيعة النفس البشرية فى تقديرها للجمال وتأثرها به؟ إن المرأة فى عاطفتها وإحساسها بالجمال قد تفوق الرجل، وقد رأيت حث الإسلام على التجمل عامة، وكراهته للقذارة، ولنا فى طلب تجمل الزوج لزوجته بل للمجتمع كله، مستند من قاعدة الإسلام العامة «لا ضرر ولا ضرار»^(٢). «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٣). إلى جانب قوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. على أن النبى ﷺ أرشد إلى تزويج البنت من رجل غير دميم، فقال «يعمد أحدكم إلى ابنته فيزوجها القبيح الدميم، إنهن يردن ما تريدون» ذكره ابن الجوزى فى كتابه «آداب النساء» من حديث الزبير بن العوام^(٤). وفى بحث الطلاق حديث ابن ماجه فى اختلاع حبيبة امرأة ثابت بن قيس منه وكان دميماً، وأنها قالت: لولا مخافة الله إذا دخل على ليصقت فى وجهه^(٥).

(١) الإقناع فى حل ألفاظ أبى شعاع، ج ٢، ص ١٩١.

(٢) رواه مالك وأخرجه ابن ماجه والدارقطنى، وقال النووى: إنه حسن - الأذكار، ص ٤٠٧.

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أنس. (٤) غذاء الألباب، ج ٢، ص ٣٢١.

(٥) بلوغ المرام، ص ٢٢٢، وابن كثير ج ١، ص ٤٠٤.

جاء فى تفسير ابن كثير^(١) فى خلع أخت عبد الله بن أبى، وهو أول خلع فى الإسلام، أنها قالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسى ورأسه شىء أبداً، إني رفعت جانب الخباء فرأيتته أقبل فى عدة - جماعة من الناس - فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً، قال زوجها: يا رسول الله إني أعطيتها أفضل مالى، حديقة لى، فإن ردت على حديقتى؟ قال «ما تقولين»؟ قالت: نعم، وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما.

لاشك أن قذارة الزوج فى بعض مظاهرها قد تكون أشد إيلاماً للمرأة من مرض يلزم بها إن لم تكنه، وكم يكون ألمها فى حالة الاتصال الجنسى - وهى الساعة المرتقبة لكل حبيبين - وهى متقززة متأللة تكبت آلامها، وتحاول أن تخفى تقزرها لترضى زوجها الذى نكبت به، وإن فاتت عليها متعتها التى لا تتم إلا فى جو من الصفاء لم تلبده غيوم الاشمزاز.

إن الرجل الذى يرى فى زوجته شيئاً قبيحاً له السلطة الجريئة أن يأمرها بالنظافة. وأن ينقدها فى مرارة إن أهملت توجيهاته، ولكن هل للمرأة من الجرأة - وهى الحية بطبعها - أن تقف من زوجها موقفه منها فى النقد والتوجيه، وهل لها من السلطة ما يمكنها من الانفصال عن هذا المخلوق الذى حبسها فى سجن الآلام النفسية والبدنية؟

ليس كل النساء عندهن هذه الجرأة، وليس كلهن يتمكن من الانفصال عند تحكم الأزمة، فمنهن من تتحمل وتصبر وتصابر، معللة نفسها بآمال عاجلة أو آجلة، للتخلص من هذا القيد، وهؤلاء فى النساء قليل، كئالة زوجة عثمان ابن عفان، وزوجة عمران بن حطان، اللتين سيأتى ذكر خبرهما بعد، والكثيرات معروفات برقة العواطف وضعف القدرة على الكبت الطويل، وفى تاريخهن كثير ممن سعين جهد الطاقة للتخلص من أزواجهن لمثل هذه الحالة، كحبيبة امرأة ثابت ابن قيس التى مر ذكرها، وكالمرأة التى ذهبت إلى عمر تطلب طلاقها من زوجها،

(١) ابن كثير، ج ١، ص ٤٠٣.

ولما استدعاه وجدّه أشعث أغبر، فأجلّها أياماً، ثم أمر بالرجل فقص شعره، وألبسه الجديد، ثم مثلاً بين يديه بعد ذلك، فلم تطلب الطلاق، ورجعت مع زوجها، فعرف عمر أن العلة كانت قذارة الرجل^(١). وكالمرأة التي كانت تنفّس عن آلامها بكنائيات قريبة اللوازم، تصوغها شعراً، فسمعتها عمر بن الخطاب في الطواف وهي تقول:

فمنهن من تُسقى بعذب مبرّد نقاخ فتلكم عند ذلك قرّت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن أجاج ولولا خشية الله فرت

النقاخ يعنى العذاب، والآجن أى المتغير اللون والطعم والأجاج يعنى الملح المر. ففهم عمر شكواها، وبعث إلى زوجها فوجده متغير الفم، فخيره بين جارية من المغنم، أو خمسمائة درهم وطلاقها، فاختر الدرهم، فأعطاه وطلقها^(٢).

وأحيانا تضيق المرأة ذرعاً بهذا الزوج فتصرح له بالنقد المر، كما فعلت لبابة بنت عبد الرحمن بن جعفر مع زوجها عبد الملك بن مروان، فقد عَضَّ تفاحة ورمى بها إليها، وكان أبخر، فدعت بسكين، فقال لها: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط عنها الأذى. فطلقها^(٣). بل حدث أصرح من ذلك وأشد، فقد سئمت زوجة مضاجعة زوجها الأبخر، فولته قفاها وأنشدت تقول:

يا حِبُّ والرحمن إن فاكا أهلكنى فولئى قفاكا
إذا غدوت فاتخذ سواكا من عُرفط إن لم تجد أراكا
إنى أراك ماضغاً خراكا

والعرفط شجر كريبه الرائحة، والأراك شجر طيب يتخذ منه السواك.

(١) مجلة لواء الإسلام، مايو ١٩٥٠.

(٢) العقد الفريد، ج ١، ص ٢٠٤، والمستطرف ج ٢، ص ٢٢٠.

(٣) العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٥.

ولعل مما يشير إلى أهمية تجمل الزوج لزوجته ما روى أن النبي ﷺ قال «أغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعوركم، واستاكوا، وتزينوا، وتنظفوا، فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم» رواه ابن عساكر عن علي، وقال الألباني على الجامع الصغير: إنه ضعيف.

ثم ألقِ إلى سمعك أيها الزوج، لماذا كنت تهتم أشد الاهتمام بالأناقة والتجمل عندما كنت تطوف باحثاً عن شريكة حياتك، وعندما كنت تكثُر زيارة الخطيبة التي انتهى إليها مطافك، مستنفداً كثيراً من الوقت في إعداد ملبسك والتجمل بما في وسعك، وتستمر عنايتك بهذه الناحية فترة الاستعداد للزفاف، وفي الأيام الحلوة الأولى بعده، ثم تجيء بعد ذلك الفترة، فترة علاقتك بزوجتك مخبراً ومظهراً، فتهمل ما كنت تحرص عليه من قبل، طائفاً أن الرحلة قد انتهت إلى هذا الحد، وأن الباب أوصد فلا سفر بعد اليوم؟

لا، يا أيها الزوج، إنك بعد زواجك قد ابتدأت الرحلة في الحقيقة ولم تنته منها، ابتدأت رحلة طويلة فلا تنتهي إلا بأحد أمرين كلاهما شاق، الموت أو الطلاق، والفترة التي قبل الزفاف كانت فترة تمهيد وإعداد لهذه الرحلة، التي إن لم تُغذ دائماً بعوامل القوة وبواعث الحيوية فترت الهمة، ونقب البعير من أول الرحلة، فإما أن يستسلم للهزيمة، وإما أن يستمر متقدماً في ألم وهم ونصب.

إن المنظر الجميل والكلمة الطيبة والخلق النبيل أنشط للحياة الزوجية في رحلتها من الحذاء للإبل، يهز أعطافها، ويوقظ حسنها، وينسيها آلامها، في طريقها الوعر، ومرعاها المر، ومائها القل، حتى تصل إلى الغاية في أمن وسلام.

والرسول ﷺ يوصي بحسن الهندام عامة، فعن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوب دون، قال «ألك مال؟» قال: نعم، قال «من أي المال؟» قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال «فإذا آتاك الله مالاً فليَرَأْ أثر نعمته عليك وكرامته» رواه أبو داود بإسناد حسن، قال النووي في رياض الصالحين، إلا قيس بن بشر— راويه عن أبي الدرداء— فاختلفوا في توثيقه وتضعيفه،

وقد رَوَى له مسلم . وروى أبو داود^(١) أنه ﷺ رأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال «أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه»؟ وكما روى أبو داود أيضاً عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رجالكم، وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس» وإسناده حسن، وذكره السيوطي في الجامع الصغير برقم ٢٥٧، ورمزه بالصحة عن سهل بن الحنظلية . ورواه الحاكم، وقال الألباني : إنه ضعيف^(٢) .

وأراك أيها القارئ في شوق إلى معرفة ما تترين به لامرأتك فأقول :

الواقع أن فروع الزينة المتقدمة للزوجة لك منها نصيب ما دامت مشروطة بالشروط العامة التي يمكن أن تنطبق عليك، فلك أن تتجمل بما تشاء وكيف تشاء، ما لم يكن هناك تدليس أو إغراء أو إنهاء عن واجب نحو ربك أو أسرته أو وطنك، وما دام التجمل في حدود المعقول، ولا يتنافى مع مطلوب شرعي، مع الاحتفاظ بخصائص الرجولة، وبمناسبة إلهاء التزين عن الواجبات ما جاء في شأن عمر بن عبد العزيز كما ذكره ابن كثير عنه^(٣) : كان صالح بن كيسان مؤدب عمر بن عبد العزيز، وهو صبي بالمدينة، يعنى يحمله على الصلاة، فأبطأ عمر يوماً عنها، فسأله المؤدب : ما الذي حبسك؟ فقال : كانت مرجلتى تسكن شعري، قال صالح : أبلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟ لأكتبن لأبيك في ذلك؟ وكان أبوه والياً على مصر، فبعث عبد العزيز رسولاً لم يبارح عمر حتى حلق شعره .

إن أقل ما يلزمك من التجمل، وهو الحد الأدنى، التخلية، كما سبق بيانه مفصلاً، والقدر الزائد عليه وهو «التحلية» متروك لتقدير ما دام في دائرة الشروط السابقة، وقد تقدم لك حرص الرسول ﷺ «الجميل» على التجمل وحيه اللطيف وكراهته للقدارة أياً كان نوعها، ودعوته الشديدة إلى حسن الهندام

(١) رياض الصالحين، ص ٣٤٣، سنن أبي داود، ج ٢، ص ٣٧٣، ٣٨٠ .

(٢) جمع الجوامع، ج ١، ص ٢٣٣ . (٣) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٤٣ .

وتنسيق المظهر، ليتم للمسلمين الطهر الداخلى والطهر الخارجى، ويهمنى التنويه بنوع خاص على ما يأتى :

١- حرم الإسلام استعمال الذهب على الرجال، بأى شكل كان، من خواتم وأزرار وساعات وأطواق وما شاكل ذلك، وتوضيح النصوص الواردة فى هذه النقطة مذكور فى بحث الخطبة ودبلة الخطوبة .

وكذلك حرم عليهم لبس الحرير الخالص الذى تخرجه دودة القز، أى الحرير الطبيعى^(١)، فعن على بن رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجعله فى يمينه، وذهباً فجعله فى شماله، ثم قال «إن هذين حرام على ذكور أمتى» رواه أبو داود والنسائى^(٢).

ومما ورد فى التنفير منه حديث « لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن عمر بن الخطاب، وروى الحاكم مثله وصححه عن أبى هريرة، وروى البخارى ومسلم عن عقبه بن عامر قال: أهدى لرسول الله ﷺ فروج جرير، فلبسه ثم صلى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعاً شديداً كالكاره له، ثم قال « لا ينبغى هذا للمتقين» والفروج- بفتح الفاء وضم الراء المشددة والجيم- هو القباء الذى شق من خلفه^(٣).

بل إن حرمة الحرير كما تكون فى اللبس تكون فى الأثاث أيضاً، روى البخارى عن حذيفة قال: نهى رسول الله ﷺ أن نشرب فى آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه^(٤)، ولكثرة ما ورد فى

(١) لو كانت العلة هى النعومة والترفة اللائقان بالمرأة دون الرجل كان النسيج الحديث «النابلون» وما يماثله فى الرقة والنعومة حراماً على الرجال بالقياس المساوى، ومعلوم أن المصنعات الحديثة كان من أغراضها ضرب الأنواع القديمة التى كان يمتاز بها بعض دول الشرق، كلون من الحرب الاقتصادية.

(٢) الترغيب، ج٣، ص٣٣.

(٣) الترغيب، ج٣، ص٣٣.

(٤) المرجع السابق، ص٣٤.

النهي عن لبس الحرير نفر بعض الصحابة أن يلبسه النساء، على الرغم من الأحاديث الصريحة في حله لهن، فعن خليفة بن كعب قال: سمعت ابن الزبير يخطب ويقول: لا تلبسوا نساءكم الحرير، فإنني سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ « لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » رواه البخاري ومسلم وغيرهما^(١).

٢- لا ينبغي للرجل أن يلبس الملابس الخاصة بالنساء، فقد تقدم أن الرسول ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال.

وبهذه المناسبة أذكر خلاصة الكلام في الثياب الملونة والمصبوغة بشكل لا يستسيغه العرف، فقد تحدث العلماء عن ذلك قديماً واختلفوا اختلافاً كبيراً، وهو مبسوط في شرح النووي لصحيح مسلم^(٢).

فكل لباس يخرج على المؤلف المتعارف عليه، ويكون موضع نقد وتعليق مُراً لا يجوز للرجل لبسه في المجتمعات العامة، وذلك كالقمص المشجرة التي أغرى بها شباب العصر، فلبسوها عارية لا يفرق الناظر إليهم وبين الفتيات، ومثل هذا اللباس لا يجوز لبسه إلا لضرورة أو للاستعمال الداخلي، وإن كنت أرى أن الأليق بالرجل أن يترفع عنها حفظاً لكرامته، وسموا بميوله أن تنزل إلى هذا الدرک، وكل لباس قصد به التشبه مذموم، ومعلوم أن الحد الفاصل بين ملابس كل من الجنسين غير واضح المعالم وذلك لاختلاف البيئات والعصور. جاء في شرح صحيح مسلم^(٣) أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: رأى رسول الله ﷺ على ثوبين معصفرين، فقال « إن هذه من ثياب الكفار، فلا تلبسها » وفي رواية أنه أمره بإحراقهما ولم يكتف بغسلهما^(٤). ومهما كان من الخلاف فإنه لا يتعدى دائرة المكروه والأفضل، فلم يحرمها أحد، لما ثبت أن النبي ﷺ لبس

(١) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٢) ج ١٤، ص ٥٤.

(٣) ج ١٤، ص ٥٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٥.

حلة حمراء^(١)، وأنه صبغ بالصفرة. وقال البعض: إن النهى منصب على الإحرام، أى بالحج أو العمرة، وأرى أن يحكم العرف فى ذلك، وأن ما غلب على النساء وأوحى بقصد خبيث يمنع.

والحلة الحمراء التى لبسها الرسول ﷺ لم تكن خالصة الحمرة، بل كانت بردين يمانيين منسوجين بخطوط حمر مع الأسود، كسائر البرود اليمانية، وهى معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمراء، وإلا فالأحمر البحت منهى عنه أشد النهى، وفى البخارى أن النبى ﷺ نهى عن المياثر الحمر، وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ وسلم رأى عليه ربيعة مضرجة، بالعصفر، فقال « ما هذه الربيعة التى عليك؟ » فعرفت ما كره فأتيت أهلى وهم يسجرون تنوراً لهم فقدفتها فيه، ثم أتيت من الغد فقال « يا عبد الله ما فعلت الربيعة؟ » فأخبرته، فقال « هلا كسوتها بعض أهلك، فإنه لا بأس بها للنساء. »

وفى صحيح مسلم عن على رضى الله عنه قال: نهى النبى ﷺ عن اللباس المعصفر، ومعلوم أن ذلك إنما يصبغ صبغاً أحمر، وفى بعض السنن أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى سفر، فرأى على رواحلهم أكسية فيها خطوط حمراء، فقال « لا أرى هذه الحمرة قد علتكم ». فقمنا سراعاً لقول رسول الله ﷺ، حتى نفر بعض إبلنا فأخذنا الأكسية فنزعناها عنها، رواه أبو داود، وفى جواز لبس الأحمر من الثياب والجوخ وغيرها نظر. وأما كراهته فشديدة جداً، فكيف يظن النبى ﷺ أنه لبس الأحمر القانى؟ لقد أعاده الله منه، وإنما وقعت الشبهة من لفظ الحلة الحمراء.

روى أبو يعلى بسند صحيح أن النبى ﷺ نهى أن يلبس القباء المنسوج بالذهب الذى كان مما يهديه كسرى، وقال فيه « فليس أحد يلبس هذا فى الدنيا إلا حرمه فى الآخرة » ثم إن هذا الرجل أراد أن يهديه إلى النبى ﷺ، فأمره بدفعه إلى عمر، فتألم عمر: كيف ينهى عنه النبى ﷺ ثم يأمر بدفعه إليه، واتهم

(١) المرجع نفسه، ص ٥٤، زاد المعاد، ج ١ ص ٣٥.

نفسه أن يكون ألحقه شقاء، فضحك النبي ﷺ حتى وضع يده على فيه ثم قال « ما بعثت به إليك لتلبسه، ولكن تبيعه فتستعين بثمنه » .

وفى رواية أخرى بسند مقبول عن أم هانئ أن النبي ﷺ أهديت إليه حلة حرير سبراء، فبعث بها إلى علي، فراح وهى عليه، فقال رسول الله ﷺ لعلي «إني لا أرضى لك إلا ما أرضى لنفسى، إني لم أكسكها لتلبسها، إني كسوتكها لتجعلها خُمراً بين الفواطم» أراد بهن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد أم علي، وفاطمة بنت حمزة عمه (١).

وروى البغوى عن سودة بن عمرو، وكان يصيب من الخلق - وهو طيب مركب من الزعفران وغيره تغلب عليه الصفرة - فنهاه عنه ﷺ، ثم لقيه ذات يوم مختضباً به، وفى يد النبي ﷺ جريدة، فطعنه فى بطنه وقال « ألم أنهك عن هذا؟ فقال: أقدنى يا رسول الله، فكشف عن بطنه فطفق يقبل بطن النبي ﷺ (٢).

جاء فى الحاوى للفتاوى للسيوطى أن خضاب اليدين والرجلين بالحناء للرجال حرام إلا للحاجة، لحديث الصحيحين عن أنس أنه ﷺ نهى أن يتزعفر الرجال. قال النووى: علة النهى اللون لا الرائحة، فإن ریح الطيب للرجل محبوب، والحناء فى هذا كالزعفران. وجاء فى أبى داود عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحناء، فقال « ما بال هذا؟ فقيل: يا رسول الله يتشبه بالنساء، فأمر به فنفى إلى البقيع.

وروى أن مدرك بن عمارة أتى النبي ﷺ ليبايعه، فقبض يده عنه لخلق رآه عليه، فلما غسله بايعه (٣). وروى أبو داود عن عمار بن ياسر أن أهله خلّقوه بخلق، لشقوق فى يده، ولما ذهب ليسلم على النبي ﷺ أعرض عنه. فلما أزاله أقبل عليه. وروى أحمد عن أبى حبيبة أن رجلاً أتى النبي ﷺ يسأله - وهو

(١) المطالب العالية، ج ٢، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) أسد الغابة - ترجمة مدرك بن عمارة.

مخلَّق - أى مطيب بالخلوق - فأمره أن يغسله، فغسله وأزاله بحجر، ثم جاء للنبي ﷺ وسلم فقال «هات حاجتك». قال الهيثمي: إن رجال هذا السند رجال الصحيح. وجاء فى رواية أنه لما أبصر الرجل متخلِّقاً لم يقبل عليه، فقال أبو هريرة: يا رسول الله لعله عروس، فقال «وإن» وأمره أن يغسله وينهكه، أى يستأصله. فهذا يدل على عدم إباحتها حتى للمتزوج. لكن عنوان الباب قال بإجازته له^(١).

٣- اختلف السلف فى خضاب الرجل لشعر لحيته وشعر رأسه إذا كان أشيب، فقال بعضهم: تركه أفضل، ورووا له حديثاً فى النهى عن تغيير الشيب لأن النبي ﷺ لم يغيره. وقال بعضهم: الخضاب أفضل، للحديث المتفق عليه «إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم»^(٢). ثم اختلف هؤلاء الآخرون فى مادة الصبغ ولونه، هل يكون بكل لون، أو يمنع بعضه وهو الأسود؟ فخضب بعضهم بالحناء وبعضهم بالكتم، وبعضهم بالزعفران. وأما الخضاب بالأسود فقد فعله عثمان بن عفان والحسن والحسين ابنا على، وعقبة بن عامر وسعيد بن المسيب، ومال إلى رأيهم ابن الجوزى، ودافع عن جوازه، مجيباً عن حديث النهى عن الخضاب بالأسود، فى مثل حادثة أبي قحافة^(٣) بأن محل النهى هو التديس. وقال هؤلاء: يستحب الخضاب بالأسود فى الحروب وفى أرض العدو إظهاراً لفتوة المحاربين وشباب المسلمين، ومن مظاهر التديس فى الخضاب بالأسود ما يفعله المجان والمستهترون لجذب أنظار النساء إليهم، يقول ابن الرومى:

يا بياض المشيب سودت وجهي عند بيض الوجوه سود القرون
فلعمري لأخفينك جهدي عن عياني وعن عيان العيون
ولعمري لأمنعك أن تضحك فى رأس آسف محزون
بسواد فيه ابيضاض لوجهي وسواد لوجهك الملعون^(٤)

(١) المطالب العالية، ج٢، ص٢٦٥، ٢٦٦. (٢) مسلم، ج١٤، ص٨٠.
(٣) مسلم، ج١٤، ص٧٩. (٤) زهر الآداب، للحصرى، ج١، ص٤٠٥، طبعة الحلبي.

هذا، وما رواه ابن ماجه عن صهيب «إن أحسن ما اختضبتم به هذا السواد، أَرغب لنسائكم فيكم، وأهيب لكم في صدور عدوكم» ضعيف^(١).

قال الطبراني ما ملخصه: أحاديث خضاب الشيب طلباً ومنعاً كلها صحيحة ولا تناقض فيها، فالأمر بالصيغ هو لمن كانت شيبته كشيبة أبي قحافة «مثل الثَّغامة» والنهي هو لمن به شمط لا غير، واختلاف فعل الصحابة في ذلك هو لاختلاف أحوالهم، مع أن الأمر والنهي ليسا للوجوب ولا للتحريم بالإجماع، ولذلك لم ينكر بعض السلف على بعض، فقد صبغ أبو بكر وعمر، ولم يصبغ على وأبي بن كعب وأنس، كما في شرح حديث الخضاب في فتح الباري لابن حجر.

على أن بعض العلماء قال: يرجع في ذلك إلى عادة أهل بلده، فإن اعتادوا الصيغ كره للشخص تركه، وإن اعتادوا تركه كره له صبغه. وقال البعض الآخر: يرجع ذلك لحالة الشخص نفسه، فإن كانت هيئته وهو بالصيغ أحسن منها عند عدمه فالأولى له الصيغ، وإلا فلا..

والإمام على يرى أن الخضاب كان لتمييز المسلمين من اليهود وإظهار أنهم كهول أقوياء، أما بعد أن قويت شوكة المسلمين فالأمر بالخيار^(٢).

وقد قرر النووي استحباب الخضاب بغير الأسود، أما به فقيل: يكره تنزيهاً، والمختار هو التحريم، وقرر الحنابلة أن المنع من الصيغ بالأسود قيل للتحريم، وقيل للكرهية التنزيهية كما روى عن أحمد. قال ابن رجب الحنبلي: المعتمد هو كراهة التنزيه، وهي تزول بأدنى درجة. انتهى ملخصاً من كلام النووي في شرح صحيح مسلم «ج ١٤، ص ٨٠» ومن غذاء الألباب للسفاريني «ج ٢، ص ١٤٦ - ١٥٣». وقد تقدم ذلك.

وقد تحدث قوم: هل خضب الرسول ﷺ لحيته ورأسه أم لا؟ جاءت بكلُّ

(١) الجامع الكبير، ج ١، ص ٢٣٠، طبع مجمع البحوث.

(٢) نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٤١، طبعة الحلبي.

روايات صحيحة، وأجاب عنها ابن حجر موقفاً بينها بأن الذي رآه يخضب كان رأى الشعرات القليلة البيضاء وخضبها النبي ﷺ، أما من لم ير الشعرات فحدث بأنه لم يخضب، وقال: إنه لم يشب ولم يبلغ سنّ المشيب.. فقد صح عن جابر ابن سمرة: ما كان فى رأس النبي ﷺ ولحيته من الشيب إلا شعرات كان إذا أدّهن واراهن الدهن. قال النووى: المختار أنه خضب فى وقت لما دلت عليه الأحاديث، ولا يمكن تركها ولا تأويلها، وتركه ﷺ فى معظم الأوقات، فأخبر كل بما رأى، وهو صادق^(١).

هَذَا، فى خضاب الشيب، أما نتف الشيب فمكروه، وقيل: حرام، ففى الحديث «لا تنتفوا الشيب، فإنه ما من مسلم يشيب شيبه فى الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة». وفى رواية «كتب الله بها حسنة، وحط عنه بها خطيئة» رواه أبو داود والترمذى والنسائى بالفاظ متقاربة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وروى ابن حبان فى صحيحه قريباً منه عن عمرو وأبى هريرة.

ويقال إن أول من شاب سيدنا ابراهيم، وليس له سند، وكذلك رواه ابن عساكر عن القاسم بن أمامة غير مرفوع إلى النبي ﷺ، والنساء من قديم الزمان يكرهن الشيب، وجاءت فى ذلك أقوال كثيرة، قال علقمة بن عبدة الجاهلى:

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
فإن تسألونى بالنساء فإننى خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرح الشباب عندهن عجيب^(٢)

وقال الخليفة المستنجد أبو المظفر يوسف بن محمد العباسى^(٣) - كما نقله

صلاح الدين الصفدى فى «الوافى بالوفيات» -:

(١) شرح ثلاثيات أحمد للسفارينى، ج ١، ص ٤٣٩، ٤٤٠.

(٢) غذاء الألبان، ج ١، ص ٣٦٧.

(٣) ولد سنة ٥١٨، وتوفى فى ٨ ربيع الآخر سنة ٥٦٦ - تاريخ الخلفاء للسيوطى.

عَيَّرْتَنِي بِالشَّيْبِ وَهُوَ وَقَارٌ لَيْتَهَا عَيْرَتْ بِمَا هُوَ عَارٌ
إِنْ تَكُنْ شَابَتِ الذُّوَابُ مِنِّي فَالليالي تَنِيرُهَا الأَقْمَارُ^(١)

هذا، والشيب الذي كان في شعر الرسول ﷺ أقل من عشرين شعرة، كما ثبت ذلك في عدة أخبار، مع أن الذين كانوا أصغر منه كأبي بكر قد شابوا، والحكمة لطف الله بنساء النبي ﷺ - كما قالوا - لأن من عادة النساء النفرة من الشيب، ولو نفرن من الرسول لشببه خشى عليهن، فلطف الله بهن، فلم يشب شيباً تعافه النساء، مع أن الشيب في حد ذاته غير منفر^(٢).

٤ - سبق أن النبي ﷺ أمر بتعهد الشعر وأنه كان يترجل، ولكن ورد أنه نهى عن القزع، وهو حلق بعض الرأس دون بعض، واتفق على النهي البخاري ومسلم في روايتهما عن ابن عمر^(٣)، وعن ابن عمر أن النبي ﷺ رأى صبياً قد حلق بعض شعر رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك وقال «احلقوه كله أو اتركوه كله» رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، وقد قال النووي^(٤) في حكمة النهي: إنه تشويه للخلق، وقيل لأنه أذى الشر والشطارة، وقيل لأنه زى اليهود. وقد جاء هذا في رواية لأبي داود، ولفظه أن الحجاج بن حسان قال: دخلنا على أنس بن مالك فحدثتني أختي المغيرة قالت: وأنت يومئذ غلام ولك قرنان أو قصتان، فمسح رأسك وبرك عليك وقال «احلقوا هذين أو قصوهما، فإن هذا زى اليهود»^(٥).

وقد كان الرسول ﷺ يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون شعورهم، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله ﷺ بعد ذلك، أخرجه البخاري ومسلم عن أنس، قال القاضي عياض: سدل الشعر إرساله، والمراد به ما هنا عند العلماء إرساله على الجبين واتخاذها كالقصة، والفرق

(٢) غذاء الألباب، ج ١، ص ٣٧١.

(٤) مسلم، ج ١٤، ص ١٠١.

(١) غذاء الألباب، ج ١، ص ٣٦٩.

(٣) رياض الصالحين، ص ٥٩٩.

(٥) نيل الأوطار، ج ١، ص ١٤١.

فى الشعر سنة، لأنه الذى رجع إليه النبى ﷺ، وقد روى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا انصرف من الجمعة أقام على باب المسجد حرساً يجزون ناصية كل من لم يفرق شعره. وقد قيل: إن الفرق كان من سنة ابراهيم عليه السلام^(١). وأرى أن السدل والفرق يرجع فيهما إلى عادة أهل البلد، وما روى مخالفاً لذلك بحيث يكون عيباً ينهى عنه كما فعل عمر بن عبد العزيز، فهو من الأمور التى لا يجب التأسى فيها برسول الله ﷺ، لعدم ظهور معنى القرية فيها، ولا اتصالها بالعبادات الجيلية كالأكل والشرب، ولم يرد فيها قول من الرسول ﷺ بطلب أو نهى، فهو من فعله فقط، وقد كانت له حالتان، فسدل شعره ثم فرقه بعد ذلك. وهذا دليل على عدم طلب التأسى به فيه.

ولعل سنة عمر بن عبد العزيز تتخذ مع من يطيلون شعورهم وسوالفهم «الخنافس» فإن العرف لا يستسيغ منهم هذا، خصوصاً ما يحيط به من مظاهر لا تليق إلا بالمرأة.

ومن أحسن ما كتب عن هذا التقليد مقال للأستاذ محمود شيت خطاب^(٢) وملخصه: إن إطالة السوالف تقليد فى الوسط الفنى أولاً، وإنه تقليد يهودى أشاعته الصهيونية أخيراً كجزء من مخططهم فى السيطرة على العالم بأفكارهم وميولهم، وفى هدم الأخلاق ومحاولة ابتزاز الأموال بكل وسيلة... ويقول: كنا نقول عن اليهودى: أبو السوالف أو يهودى أبو الزولوف، لأن الذكور من يهود، خاصة المتدينون منهم، كانوا يطيلون سوالفهم كما يفعل شباب اليوم. وقصة سوالفهم معروفة، فقد سبى «بختنصر» ملك بابل عام ٥٨٧ قبل الميلاد بنى إسرائيل وساقهم إلى بابل وانتشروا فى العراق وما حولها، وأراد أن يجعل لهم علامة تميزهم، فالزمهم بتطويل سوالفهم. وبدأ حاخامات يهود يكتبون التلمود وسجلوا فيه هذه العادة كشعار دينى لتبرئة بختنصر من إزلامهم بها، ولرفع معنويات اليهود بجعلها سنة دينية. ولما تفرقوا فى البلاد صحبتهم

(١) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٠٥. (٢) مجلة الأزهر - ذو الحجة ١٣٩٠هـ.

تلك العادة، وهي ميزة المتدينين منهم في كل العالم. وفجأة قبل ثلاث سنوات ظهر ممثل يهودى اسمه «دافيد»^(١) في رواية مثلت في هوليوود (مركز تجارة السينما اليهودية) وهو بسؤال طويل، لأنه كان يمثل دور يهودى متدين، فقلده الشباب في ذلك على العادة في غرام الناس بتقليد نجوم السينما. اهـ.

ومما قيل في الخنافس قصيدة للأستاذ حسن جاد، جاء فيها:

مَنْ مجيرى من اللذين اللواتى حرت فيهم بين الفتى والفتاة؟
شبه في السمات والسمت أعياء كل طرف وأتعب الحدقات
إيه يا زرقا اليمامة عودى اسعفينا بحددة النظرات
عجبا للفتى يبدل خلقا صاغه الله بارىء النسمات
ليت شعرى ماذا دهاه فأمسى فى الغوانى مؤنث القسمات
يتثنى جيداً وقَدّاً وخَصْراً كتثنى الكواعب الغانيات
بالشعور المرجلات وقد طا ل عنان الذوائب المسبيلات
وبصدر مقلد مستعار من صدور النواهد الفاتنات
والمساحيق فى فم وعيون وخذود مصبوغة الوجنات
والبنان المخضوب والمعصم الحالى لى ووشى الملابس اللامعات
لم يدع من مفاتن للعذارى أو يغادر لهن من مغريات
يا بنى الخنفساء كيف رضيتم بانتساب لأحقر الحشرات؟
ومسختم ما أودع الله فيكم من سجايا رجولة وسمات
ليس يابى سمت الرجولة إلا خنث يشتهى اشتهاى الفتاة
كيف يرجى غد البلاد بجيل نرجسى الميول والنزعات؟
لا رعى الله صنعكم من شباب مغرم بالتقليد فى الترهات

(١) قيل: اسمه «داني كاي» - مجلة المجتمع بالكويت ٢١ مارس ١٩٧٨.

تسرعون الخطا لكل وباء مستطار بأخبث الآفات
وتهيمون بالجديد من الغرب ولو كان أقبح العادات
كدت والله حين صرتم بنات أتمنى لو عاد وأد البنات^(١)

٥- كثر الكلام الآن عن اللحية والشارب، وألفت بعض الجمعيات التي اتخذت شعارها: إعفاء اللحية وإحفاء الشارب وإرخاء العذبة، وكثر الجدل فيها، فقد رأى قوم توفير اللحية تديناً أو رجولة، لأنها تكسب صاحبها وقاراً يحمله على التزام حدود الأدب والدين، وعم ذلك في بعض البلاد حتى صار عرفاً غالباً، وتعصب بعض هؤلاء لرأيهم، فرموا من يخالفونهم بأشنع التهم، ناظرين إليهم بعين الاحتقار، حتى ردوا شهادتهم لأنهم فاسقون، كالزناة والرامين للبراء بالفاحشة. ومال قوم آخرون إلى حلقها طلباً للزينة، أو تفلتاً من رقابتها، وشاع ذلك في بعض البلاد حتى صار عرفاً غالباً. وتعصب بعض هؤلاء لتقليدهم حتى ازدروا الملتحي، وأساءوا به الظن، وألصقوا به التهم.

والحق أن كليهما مشتط في تعصبه لفكرته، فإن الذي استخلصته من كلام السلف ونقاشهم في الأدلة أن القدر المتفق عليه في شأن اللحية أن إعفاءها مطلوب، لكن اختلف العلماء في نقطتين، الأولى في درجة هذا الطلب، والثانية في حد الإعفاء.

* النقطة الأولى، درجة طلب الإعفاء:

هناك رأيان في درجة طلب الإعفاء، رأى يقول بالوجوب، وعليه مالك وأبو حنيفة وأحمد وكثير من الشافعية، ورأى يقول بالندب، وعليه بعض علماء الشافعية، كما نقله عياض.

وحجة الأولين حديث رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر « خالفوا المشركين، وقرؤوا اللحي وأحفوا الشوارب » وروى بسند ضعيف عن أنس « أحفوا الشوارب

(١) مجلة الوعي الإسلامى - رجب ١٣٩٦هـ - رابطة العالم الإسلامى - يوليو ١٩٧٥م.

وأعفوا اللحى، ولا تشبهوا باليهود»^(١)، قالوا: إن إعفاءها مأمور به، والأصل فى الأمر الوجوب، ولا صارف يصرفه عن ذلك، فيكون حلقها حراماً لأمر:

(أ) لأن فيه تغييراً لخلق الله بدون إذن من الله فيه، قال تعالى على لسان الشيطان ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] والتقييد بقيد «دون إذن» ليخرج ما أذن الله فى تغييره مثل الختان وتقليم الأظفار ونحوهما.

(ب) فيه مخالفة لأمر النبي ﷺ بتوفير اللحى.

(ج) فيه تشبه بالكفار كما نص عليه الحديث.

(د) فيه تشبه بالنساء، والحديث قد لعن المتشبهين من الرجال بالنساء.

وبناء على هذا حرم الأحناف حلقها، كما نص عليه الحصكفى الحنفى فى الدر المختار فى باب الحظر والإباحة. وذكر أيضاً فى كتاب الصوم أن تقصيرها أقل من القبضة لم يبيحه أحد، لأنه من شأن الخنثة من الرجال. وكذلك المالكية كما قال النفراوى فى شرح رسالة ابن أبى زيد المالكى: فما عليه الجند فى زماننا من أن الحزم بحلق لحاهم دون شواربهم لا شك فى حرمة عند جميع الأئمة. وكذلك حرم الخنابلة حلقها. وقال الأوزاعى: الصواب تحريم حلقها جملة لغير علة بها، كما فى حاشيتى الشروانى وابن قاسم على شرح التحفة، أما الشافعية فقال ابن حجر فى شرح العباب: قال الشيخان-الرافعى والنووى- يكره حلق اللحية، واعترضه ابن الرفعة فى حاشية الكافية بأن الشافعى رضى الله عنه نص فى الأم على التحريم. وقال ابن الجوزى: إن إعفاءها مندوب ما لم يستهجن طولها.

وحجة الذين قالوا بالندب حديث مسلم عن عائشة رضى الله عنها، قال رسول الله ﷺ «عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية...» ووجهة نظرهم أن إعفاء اللحية شأنه شأن سنن الفطرة المذكورة فى الحديث، وليست كلها واجبة، ورد عليهم من قالوا بالوجوب، بأن النبى صلى الله عليه وسلم جعل إعفاءها مخالفة للمشركين، فدل على الوجوب، فرد هؤلاء عليهم بأنه لو كانت

(١) الجامع الكبير، ج ١، ص ٢٤٥ - طبع مجمع البحوث.

كل مخالفة للمشركين محتمة لحتم صبغ الشعر الذى ورد الأمر به لأنه مخالف لليهود والنصارى. مع إجماع السلف على عدم وجوبه كما تقدم ذكره، حيث صبغ بعض الصحابة ولم يصبغ بعضهم الآخر، وبهذا يبقى الأمر بإعفاء اللحية مندوباً شأنه شأن خصال الفطرة.

وأرى أنه لو قيل فى اللحية ما قيل فى الصبغ من عدم الخروج على عرف أهل البلد لكان أولى، بل لو تركت هذه المسألة وما أشبهها لظروف الشخص وتقديره لما كان فى ذلك بأس. جاء فى نهج البلاغة^(١): سئل على عن قول الرسول ﷺ «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود» فقال: إنما قال النبى ذلك والدين قل. فأما وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما يختار.

يقول الشيخ محمود شلتوت^(٢): والذى نعرفه فى كثير مما ورد عن الرسول فى مثل هذه الخصال أن الأمر كما يكون للوجوب يكون مجرد الإرشاد إلى ما هو أفضل، وأن مشابهة المخالفين فى الدين إنما تحرم فيما يقصد به التشبه من خصائصهم الدينية، أما مجرد المشابهة فيما تجرى به العادات والأعراف العامة فإنه لا بأس بها، ولا كراهة فيها ولا حرمة... ونحن لو تمسكنا مع التحريم لمجرد المشابهة فى كل ما عرف عنهم من العادات والمظاهر الزمنية لوجب علينا الآن تحريم إعفاء اللحية، لأنه شأن الرهبان فى سائر الأمم التى تخالفنا فى الدين، ولوجب الحكم بالحرمة على لبس القبعة. والحق أن أمر اللباس والهيئات الشخصية، ومنها حلق اللحية، من العادات التى ينبغى أن ينزل المرء فيها على استحسان البيئة. فمن درجت بيئته على استحسان شئ منها كان عليه أن يساير بيئته، وكان خروجه عما ألفت الناس منها شذوذاً عن البيئة. اهـ.

لكن مهما قيل من الآراء، فإن أدلة الوجوب أقوى، ومع ذلك فإن من أعفاها فقد فعل خيراً بالافتداء بسنة النبى ﷺ، ومن حلقها لم يرتكب معصية يدخل بها النار.

(٢) الفتاوى، ص ٢١٠.

(١) ج ٢، ص ١٤١.

* النقطة الثانية، حد الإعفاء:

حد الإعفاء للحية مختلف فيه، فقليل بتركها مهما طالت، وقيل: إن التطويل المفرط يشوه الخلق، ويطلق ألسنة المغتابين، فيندب الأخدمنها، جاء في ذم طولها: كلما طالت اللحية تشمر العقل. وأنشد الشاعر في نكتة المأمون مع ذى لحية في شاة فقأت بعرتها عين رجل^(١):

ما أحد طالت له لحية فزادت اللحية في هيئته
إلا وما ينقص من عقله أكثر مما زاد في لحيته
وقال ابن الرومي:

إن تطل لحية عليك وتعرض
علق الله في عذاريك مخللة
لو غدا حكمها إلى لطارت
فاتق الله ذا الجلال وغير
أو فقصر منها فحسبك منها
وقال آخر:

لا تخذعك اللحي والصور
في شجر السدر منهم مثل
تسعة أعشار من ترى بقر
لها رواء وما لها ثمر^(٢)

وجاء في تهذيب الكمال في ترجمة عبد العزيز بن منيب القرشي - وكان طويل اللحية - أن علي بن حجر السعدي نظر إليه وقال:

ليس بطول اللحي تستوجبون القضا
إن كان هذا كذا فالتيس عدل ورضا^(٣)

(١) الزرقاني على المواهب، ج ٤، ص ٢١١.

(٢) مفتاح السعادة لابن القيم، ج ١، ص ١١٥ - طبع صبيح.

(٣) حياة الحيوان للدميري، تيس.

وقال آخر:

ألا ليت اللحي كانت حشيشا فترعاها خيول المسلمينا

وكان بطرس الأكبر قيصر روسيا يفرض ضرائب على من يطيلون لحاهم^(١). جاء في كتاب « طرح التثريب في شرح التقریب » في حديث « خمس من الفطرة . . » استدلل به الجمهور على أن الأولى ترك اللحية على حالها، ولا يقطع منها شيء، وهو قول الشافعي وأصحابه، وقال عياض: يكره حلقها وقصها وتحريفها، وقال القرطبي في « المفهم » لا يجوز حلقها ولا نتفها ولا قص الكثير منها، قال عياض: وأما الأخذ من طولها فحسن، قال: وتكره الشهرة في تعظيمها كما تكره في قصها وجزها.

هذا، وما يقال في اللحية يقال في الشارب، وإحفاؤه قيل: قصه، وقيل: حلقه، وكره مالك حلقه، لأنه مثله. وروى البخاري عن ابن عمر مرفوعاً « انهكوا الشوارب وأعفوا اللحي ».

إن قص الشارب مجمع على استحبابه، وبعض الظاهرية على وجوبه لظاهر الحديث « قصوا » رواه أحمد. وعند مسلم « جزوا » وعند الشيخين « أحفوا » والمختار قصه أي تقصيره حتى يبدو طرف الشفة وهو حمرتها، ولا يحيفه من أصله، وهو قول مالك والشافعي، وكان مالك يرى حلقه مثله ويأمر بأدب من فعله، واستحب إحفاءه ابن عمر، وهو قول الكوفيين، لحديث « أحفوا ».

والسبالان - وهما طرفا الشارب - قال الغزالي: لا بأس بتركهما، فعل ذلك عمر وغيره، لأنه ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمرة الطعام، إذ لا يصل إليه. وكرهه بعضهم لما فيه من التشبه بالأعاجم بل بالمجوس وأهل الكتاب، وهذا أولى بالصواب، لما رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر قال: ذكر لرسول الله ﷺ المجوس فقال « إنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم، فخالقوهم » فكان ابن عمر

(١) الأهرام ٢٢/٦/١٩٧١.

يجز سباله كما تجز الشاة أو البعير^(١) والموضوع مستوفى فى الزرقانى على المواهب اللدنية « ج ٤ ، ص ٢١٢ » .

هذا، ولبعض الباحثين رأى يقول : لو أن الزوجة تضررت من لحية زوجها جاز له أن يحلقها، بل استحب له ذلك نزولاً على قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » وقاعدة « ارتكاب أخف الضررين »، « تقديم الأهم على المهم » ومعلوم أن إعفاء اللحية حق لله وهو مبنى على التسامح، وحلقها حق لمثل هذه الزوجة، وهو مبنى على المشاحة، قد يكون الإخلال به معكراً لصفوا حياة الزوجية فى عصرنا الحديث . . وهذا رأى يحتاج إلى مدرك قوى ومقارنة ولباقة وحسن سياسة، وللعرف فى ذلك تقدير كبير.

جاء فى أهرم ١٢ / ٥ / ١٩٥٤ م: ألقى بوليس نيويورك القبض على زوجتين شكستين يوم الاثنين الماضى كانتا تقودان موكباً من السيدات الغاضبات المحتجات على محاولات أزواجهن إطلاق لحاهم فى الاحتفالات التى ستقام لمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على إنشاء المدينة .

أما العمامة وغطاء الرأس فيترك لكل جماعة ما يناسبهم، مراعين فى ذلك الأجواء والظروف المختلفة، ولا يلتزم لون ولا شكل معين، وكانت العمامة عادة العرب لوقايتهم من الحر، وقد لبسها النبى ﷺ كما اعتاد قومه، وأكثر ما ورد عنه فيها حكاية لأحواله، أما ما ورد من الأقوال فى التزامها فأكثره لا يصلح حجة فى ثبوت الأحكام . ومنه ما روى عن عبد الله بن عمر مرفوعاً « عليكم بالعمائم، فإنها سيما الملائكة، وأرخوها خلف ظهوركم »^(٢) .

ومنه أيضاً ما رواه الترمذى عن ركائة « إن فرق ما بيننا وبين المشركين العمامة على القلائس »^(٣) . وما رواه ابن عدى عن على « ايتو المساجد حسراً

(١) طرح التشريب شرح التقريب للعراقى .

(٢) غذاء الألباب للسفارينى، ج ٢، ص ٢٠٥ .

(٣) المواهب، ج ١، ص ٣٢٧ .

ومعممين، فإن العمائم تيجان المسلمين»^(١). وما رواه ابن عبدى البيهقي عن أسامة بن عمير «اعتموا تزدادوا حلما، والعمائم تيجان العرب»^(٢). وما رواه ابن الطيالسي وابن أبي شيبه وأحمد بن منيع عن علي أن النبي ﷺ عممه يوم «غدير خم» وقال «إن العمامة حاجزة بين الكفر والإيمان» وفي رواية «حاجزة بين المسلمين والمشركين»^(٣). وذلك ضمن حديث «إن الله أمدني يوم بدر وحنين بملائكة يعتمون بهذه العمة، إن العمامة حاجزة بين الكفر والإيمان» وما رواه الطبراني عن أبي الدرداء «إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة» وكلها أحاديث ضعيفة.

لقد جعل ابن الحاج ليس العمامة من المباحات، لأن ذلك فعل للنبي ﷺ لم يظهر فيه معنى القرية، بل يظهر معنى العادة والطبيعة كالأكل والشرب واللباس، وفيه خلاف في التأسي به فيه. وجاء في زاد المعاد^(٤): أن النبي ﷺ كان له عمامة تسمى السحاب، كساها عليا، وكان يلبسها ويلبس تحتها القنسوة، وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة، ويلبس العمامة بغير قلنسوة، وكان إذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه كما رواه مسلم في صحيحه عن عمرو بن حريث.

وليس للعمامة لون خاص، ففي زاد المعاد^(٥): أن النبي ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء، وأنه لم يلبس السواد لباساً راتياً، ولا كان شعاره في الأعياد والجمع والمجامع العظام ألبنة، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد، بل كان لواؤه أبيض. وقد اعتم العباسيون بالسواد حداً على داعيتهم إبراهيم الذي قتله مروان آخر ملوك بني أمية، وأول من لبسه منهم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس كما ذكره السيوطي في أوائله^(٦).

(٣) المطالب العالية، ج ٢، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٥) ج ٣، ص ١٨٣.

(١) الجامع الصغير.

(٤) ج ١، ص ٣٤.

(٦) غداء الألباب، ج ٢، ص ١٤٧.

والذؤابة، وهى طرف العمامة، إرخاؤها عادة لا تعبّد، روى الترمذى^(١) أن النبي ﷺ لما رأى ربه فى المنام وسأله يا محمد: فيم اختصم الملأ الأعلى؟ فقال « لا أدرى » فوضع يده بين كتفيه فعلم ما بين السماء والأرض. . فمن تلك الغدوة أرخى النبي ﷺ الذؤابة بين كتفيه قال النووى: إن إسبال طرف العمامة مباح، ذكره فى شرح المهذب، وما ورد من أمر النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف بإرخائه عندما وجهه لسرية لا يعد تشريعاً عاماً، وإسناده ليس بقوى، فقد رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى، وقيل: إنه حسن - ولم يرد نهى عن العمامة بغير ذؤابة.

جاء فى زاد المعاد^(٢): روى مسلم عن عمرو بن حريث قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه، وفى مسلم أيضاً عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء، ولم يذكر فى حديث جابر « ذؤابة » فدل على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائماً بين كتفيه، وقد يقال: إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه، فلبس فى كل موطن ما يناسبه.

والعمامة النبوية قماش كان يلفه على رأسه؟ وكان يثبتها بالتحنيك، أى لف طرفها تحت الحنك، وحمل توصية عمر بذلك على وقت الحرب لتثبيتها. ومن العجيب أن الكمال بن الهمام من أئمة الحنفية قال فى « المسامرة »: من استقبح من آخر جعل العمامة تحت حلقه كفر، ولم يرتض هذا المنصفون من أهل العلم.

وهذا الكلام ملخص من كلام طويل فى غذاء الألباب للسفارينى^(٣) وأشار إليه ابن هشام فى السيرة النبوية^(٤).

وفى بلوغ الأرب للآلوسى^(٥) قيل لأعرابى: إنك تكثر لبس العمامة، قال:

(٢) ج ١، ص ٣٤.

(٤) ج ٢، ص ٣٦٢.

(١) زاد المعاد، ج ١، ص ٣٤.

(٣) ج ٢، ص ٢٠٥.

(٥) ج ٢، ص ٤٠٨.

إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من القر - البرد - وقال فيها أبو الأسود الدؤلى: خيمة فى الحرب ومكنة من الحر، ومدفأة من القر، ووقار فى الندى، وواقية من الأحداث، وزيادة فى القامة، وهى من عادات العرب «انظر ابن حجر فى العمامة» .

٢- ومن الأمثلة لمحافظة الزوجة على شعور زوجها تنسيق البيت وتعهده بالنظام، بحيث يوحى إلى الزوج بالبهجة والسرور، وذلك بمثل تغيير الأثاث أو تبديل مواضعه أو إضافة زينات تجذب الانتباه وتجدد الشعور بالحياة، فإن الوضع الواحد الرتيب الذى يراه الزوج كل يوم فى المنزل يبعث على السأم كأن الحياة فى نظره شكل واحد وذلك يورث الركود. فلتجدد له الزوجة فترة الشباب ولتشعره عن طريق التغيير والتنسيق أنه بدأ فترة جديدة، وهذا له أثره النفسى الذى لا يخفى .

٣- توفير الجو الهادىء له ليستريح، ويستأنف عمله بنشاط، وبخاصة فى أيام الإجازات وأوقات الراحة، وينبغى التحكم، ولو إلى حد ما، فى مرح الأطفال عندما يريد أبوهم الراحة من عناء العمل .

٤- كذلك من المحافظة على شعوره مشاركته وجدانياً فى أفراحه وأحزانه، ومسايرته فيما يحس به إن كان ذلك يسره، ومحاولة إبعاد الهم عنه ما أمكن، كما فعلت السيدة خديجة رضى الله عنها مع الرسول الله ﷺ حين جاءه الوحي لأول مرة، حيث طمأنته بأن الله لا يخزيه أبداً، وذكرت له المؤهلات لذلك، من أنه يصل الرحم ويحمل الكّلّ ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق . ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل . وذلك كله حتى تبعد الهم عنه وتسكن قلبه وكتب السيرة قد وضحت كل ذلك .

ومما يتصل بهذه النقطة ما حكى أن رجلاً اشترى بماله كله حصاناً، ثم باعه واشترى بثمانه شاة، ثم باعها واشترى بثمانها ديكاً وعاد به إلى زوجته، وكلما قص عليها خبر صفقة من هذه الصفقات حمدت له عمله، حتى حمدت له

الذي بقي ثمنه من ثمن الحصان، فرضى عن سلوكها معه، لأن وجودها بعواطفها إلى جنبه في هذه المحنة يشعر بالسعادة، وإن كان الدين يقول: كان لابد من نصحه ليستفيد من سوء تصرفه في مستقبل حياته. وسيأتى خبر اليانورا عند ذكر واجب الوفاء للزوج.

والتاريخ لا ينسى لأم سليم موقفها مع زوجها أبي طلحة، حين مات ولده فأخفت عنه الخبر، وقضت ليلة طيبة، ثم أخبرته بعد ذلك، وسرّ النبي ﷺ من صنعتهما، ودعا لهما بالخير، كما رواه البخاري ومسلم عن أنس في عاقبة الصبر.

وذكر الخرائطي في مكارم الأخلاق من طريق زافر بن سليمان بن عبد الله الوضاحي بسند ضعيف^(١) أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي امرأة إذا دخلت عليها قالت: مرحباً بسيدى وسيد أهل بيتى، وإذا رأتنى حزيناً قالت: ما يحزنك، ألدنيا وقد كفيت أمر الآخرة؟ قال النبي ﷺ «أخبرها أنها عاملة من عمال الله ولها نصف أجر المجاهد».

٥- معرفة مواعيد الزوج في الأكل والنوم والخروج، حتى تعمل لكل حسابه، ولا يخفى على أحد أثر اختلال ما اعتاده الإنسان من ذلك، والحكمة العربية بينته، بأن تواتر الجوع ملهية، وتنغيص النوم مغضبة، نعم طول الجوع يلهب الإحساس كالنار ولا يطاق الصبر عليه، وإحضار الطعام في مواعده كالماء الذي يطفأ به لهيب النار، والنوم إذا نُغص والقلق إذا استبد، والشواغل عن الهدوء إذا توالى كان ذلك مثاراً للغضب دون شك، وقد يؤثر ذلك تأثيراً سيئاً على الزوجة.

٦- عدم الأشمئزاز منه لعيب موجود فيه طبعاً كالدمامة وكبر السن والشيب وما إلى ذلك، أو طارئاً كالفقر والمرض ونحوهما، والزوجة اللبقة تحاول أن تغطي هذه العيوب، وتزيل عقدها من نفسه، ألم تر إلى زوجة سيدنا عثمان

(١) الجامع الكبير، ج ١، ص ٢٥٦، طبع مجمع البحوث.

ابن عفان رضى الله عنه، وهى نائلة بنت الفرافصة الكلبية، التى أسلمت بعد زواجها منه وكانت نصرانية، لقد قال لها: لعلك تكرهين ما ترين من شيبى، فقالت: والله يا أمير المؤمنين إنى لمن نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهول. فقال: فإنى قد جزت الكهول وأنا شيخ، قالت: أذهبت شبابك مع رسول الله ﷺ فى خير ما ذهبت فيه الأعمار^(١)، وكذلك امرأة عمران بن حطان، وهو من خوارج الشراة، كان من أقبح الناس وجهاً، فقالت له، وهى الجميلة الفاتنة: إنى لأرجو أن أكون وإياك فى الجنة، لأن الله رزقك مثلى فشكرت، ورزقنى مثلك فصبرت^(٢).

لا ينبغى أن تكون مثل لبابة بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، كانت عند عبد الملك بن مروان، فعَضَّ تفاحة ثم رمى بها إليها - وكان أبخر - فدعت بسكين فقال: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط عنها الأذى. ولما طلقها تزوجها على ابن عبد الله بن العباس، فضربه الوليد بن عبد الملك وقال: إنما تتزوج بأمهات الخلفاء لتضع منهم، لأن مروان بن الحكم تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية ليضع منه - فقال على بن عبد الله: إنما أرادت الخروج من هذا البلد وأنا ابن عمها، فتزوجتها لأكون محرماً لها، وكان على أقرع لاتفارقه فلنسوته، فبعث عبد الملك جارية إليه وهو جالس مع لبابة، فكشفت رأسه على غفلة، لترى ما به فقالت لبابة للجارية: هاشمى أقرع أحب إلى من أموى أبخر^(٣).

أو مثل بنت النعمان بن بشير، واسمها هند أو حميدة، التى كانت تهجو كل من تزوجها، لقد قالت فى زوجها الفيض بن عقيل الثقفى:

وما أنا إلا مهرة عربية سلية أفراس تحللها نغل

فإن أنجبت مهراً كريماً فبالحرى وإن يك إقراف فما أنجب الفحل

والنغل هو الخسيس من الدواب كما قاله الدميرى فى حياة الحيوان، أو الذى

(١) انعقد الفريد، ج٣، ص١٩٤.

(٢) زهر الآداب على هامش العقد، ج٣، ص١٦٥، والنجوم الزاهرة، ج١، ص٢١٦..

(٣) أعلام النساء لعمر كحالة.

ليس له نسب يشرف به كما في مختار الصحاح، وهذان البيتان رويًا لهند بنت النعمان عندما تزوجها الحجاج بن يوسف الثقفي^(١)، وقيل: قالتها في زوجها روح بن زنباع^(٢)، وشاع هذا الهجاء في زمانها حتى قال بعض الشعراء في صاحب يسأله كثيراً:

لي صاحب مثل داء البطن صحبتته يوَدّني كوداد الذئب للراعي
يشني علي جزاه الله صالحه ثناء هند علي روح بن زنباع

وقد تقدمت الإشارة إلى غيرة روح بن زنباع عليها.

وكانت أول أمرها تحت الحارث بن خالد المخزومي، فتركته وهجته بقولها:
فقدت الشيوخ وأشياهم وذلك من بغض أقواليه
تري زوجة الشيخ مغمومة وتسمى لصحبته قالية

فطلقها الحارث وتزوجها روح بن زنباع، فتركته أيضاً، وهجته بقولها:

بكي الخزُّ من روح وأنكر جلده وعجت عجيجاً من جذام المطارف
وقال العباء: نحن كنا ثيابهم وأكسية مطروحة وقطائف.

فطلقها روح وقال: ساق الله إليك فتى يسكر ويقيء في حجرك، فتزوجها الفيض بن عقيل، فكان يسكر ويقيء في حجرها، فكانت تقول: أجيببت في دعوة روح بن زنباع، وكانت تهجوه وتقول:

سميت فيضا وما شيء تفيض به إلا بسلحك بين الباب والدار
فتلك دعوة روح الخير أعرفها سقى الإله ثراه الأوظف السارى

والأوظف السارى: هو السحاب كثير الماء^(٣).

(١) المستطرف، ج ١، ص ٤٦.

(٢) النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٠٥.

(٣) حياة الحيان للدميري «فرس».

ولطرافة خبرها سأقصه بتمامه، كما نقله عن أمهات الكتب عمر كحالة في كتابه «أعلام النساء».

■ حميدة بنت النعمان بن البشير :

تزوجها الحارث بن خالد المخزومي، أو المهاجر بن عبد الله بن خالد، تزوجها لما قدم على عبد الملك بن مروان فقالت فيه :

نكحت المديني إذ جاءني فيا لك من نكحة غاوية
كهول دمشق، وشبانها أحب إلينا من الجالية
والجالية هم أهل الحجاز، لأن الشاميين كانوا يسمونهم بذلك لجلائهم عن الحجاز إلى الشام.

فقال الحارث :

أسنا ضوء نار ضمرة بالقفر أبصرت أم سنا ضوء برق
قاطنات الحجون أشهى إلى قلبي من ساكنات دور دمشق
يتضوعن لو تضمخن بالمسك صنانا كأنه ربح مرق
فطلقها وهجته، فخلف عليها روح بن زنباع - وكان جباناً ومن قبيلة جذام - فنظر إليها يوماً وهي تنظر إلى قومه جذام لما اجتمعوا عنده، فلامها على ذلك، كأنه يتهمها بانصرافها عنه إليهم فقالت : وهل أرى إلا جذاماً؟ فوالله ما أحب الحلال منهم فكيف بالحرام؟ وقالت تهجوه :

بكى الخنز من روح وأنكر جلده وعجت عجيجاً من جذام المطارف
وقال العيا : قد كنت حيناً لباسكم وأكسية كردية وقطائف
فقال روح :

إن يبيك منا يبيك ممن يهيننا وإن يهوكم يهو اللئام المفارق
وقال

اثنى على بما علمت فإنني مشن عليك، لبئس حشو المنطق

فقالت :

أثنى عليك بأن باعك ضيق وبأن أصلك في جذام ملصق

فقال :

اثنى على بما علمت فإننى مثن عليك بمثل ربح الجورب

فقالت :

فتناؤنا شر الثناء عليكم أسوا وأنتن من سلاح الثعلب = الغائط

وقالت :

وهل أنا إلا مهرة عربية سليمان أفراس تحللها بغل
فإن أنتجت مهراً كريماً فبالحرى وإن يك إقراف فما أنجب الفحل

بالحرى = جدير ذلك ولائق .

فقال : فما بال مهر رائع عرضت له أتان فبالت عند جحفلة البغل = الحافر
إذا هو ولى جانباً ربخت له كما ربخت قمرء في دمث سهل (١)

وقالت له :

تكحل عينيك برد العشى كأنك مومسة زانية
وآية ذلك بعد الخسف فوق تغلف رأسك بالغالية
وإن بنيك لريب الزمما ن أمست رقابهم حالية
فلو كان أوس لهم حاضراً لقال لهم : إن ذا مالىه

أوس : رجل من جذام يقال : إنه استودع روحاً مالا فلم يرده عليه .

فقال لها :

فإن يكن الخلع من بالكم فليس الخلاعة من باليه
وإن كان من قد مضى مثلكم فأف وتف على الماضية

(١) ربخت يعنى غشى عليها وذلك عند الجماع

وما إن يرى الله فاستيقنيه من ذات بعل ومن جارية
شبهها بك اليوم فيمن بقى ولا كان في الأعرس الخالية
فبعداً تحياك إذ ما حييت وبعداً لأعظمك البالية

فقالته له - و كان أسود ضخماً - كيف تسود وفيك ثلاث خصال، أنت من جذام، وأنت جبان، وأنت غيور؟ فقال: أما جذام فأنا في أرومتها، وحسب الرجل أن يكون في أرومة قومه، وأما الجبن فيأنا لى نفس واحدة، ولو كان لى نفسان لجدت بإحدهما. وأما الغيرة فهو أمر لا أحب أن أشارك فيه، وإن المرء لحقيق بالغيرة مع المرأة مثلك، الحمقاء الورهاء، لا يأمن أن تأتي بولد من غيره، فتقدمه فى حجره، فطلقها.

وقال فى بعض منازعات معها: اللهم إن بقيت بعدى فابتلها ببعل يلطم وجهها، ويملاً حجرها قيئاً، فتزوجها بعده الفيض بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل، وكان شاباً جميلاً، يصيب من الشراب، فأحبته، فكان فى سكره يلطم وجهها ويقىء فى حجرها، فتقول: يرحم الله أبا زرعة، قد أجيبت دعوته فى. وقالت لفيض:

وليس فيض بفياض من العطاء لنا لكن فيضاً لنا بالقىء فياض
ليث الليوث علينا باسل شرس وفى الحروب هيوب الصدر جياض = هارب
فولدت من الفيض بنتاً تزوجها الحجاج بن يوسف الثقفى، وكانت قبلها عند الحجاج أم أبان بنت النعمان بن بشير، فقالت حميدة للحجاج:

إذا تذكرت نكاح الحجاج من النهار أو من الليل الداجى
فاضت له العين بدمع ثجاج وأشعل القلب بوجد وهاج
لو كان النعمان قتيل الأعلاج مستوى الشخص صحيح الأوداج
لكنت منه بركان النساج قد كنت أرجو بعض ما يرجو الراجى
أن تنكحيه ملكاً أو ذا تاج

توفيت حميدة فى أواخر ولاية عبد الملك بن مروان

٧- الأدب معه فى الحديث، واختيار الألفاظ المحببة إلى قلبه، وعدم رفع الصوت عليه، وعدم مراجعته بصورة تثير غضبه، أو تخرج شعوره، ما لم يكن ذلك لمصلحة، والحذر من استغلال رفع الكلفة بين الزوجين استغلالاً سيئاً، والمخاطرة بالخروج على أدب اللياقة، ويتحتم هذا الأدب إن كان بحضرة غيرهما، فإن الرجل يحب أن يعرف عنه أنه محترم فى بيته، وفى نظر زوجته، كما يحب ذلك فى المجتمع بين الناس، ورُبَّ رَدِّ خشن من المرأة على طلب زوجها، أو مناقشة حامية يراها مهينة له تنتج آثاراً سيئة. وهذا الأدب توصى به قواعد السلوك ويرضاه العقل، ولا يحتاج إلى أمر من الوحي ينص عليه بالذات، فهو داخل فى المعروف وفى النهى عن إيذاء الزوجة لزوجها، وقد مر الحديث عن ذلك.

جاء فى مسند الفردوس عن على بسند ضعيف «إن الله يحب المرأة الملقاة البرعة مع زوجها، الحصان عن غيره». وفسر شؤم المرأة بعدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرضها للريب، فالمرأة البذيئة شؤم على زوجها، تعكر صفوه وتضيق الدنيا فى وجهه، وقد توسع فى شرح حديث شؤم المرأة السفاريتى فى كتابه غذاء الألباب^(١).

وجاء فى كتاب «بنات حواء» لمحمد ثابت: أن المرأة اليابانية لها ابتسامة فطرية تحبب الرجال فيهن، على عكس المرأة الهندية العابسة فى غالب أحوالها، إظهاراً لوقارها الذى تتعلمه من الصغر.

٨- عدم المنّ عليه بأى شىء يحس فيه جرحاً لشعوره، كالغنى والنسب والجمال والذكاء، وما إلى ذلك. فهذا يتنافى مع المقصود من الزواج الذى جعله الله سكناً، والدين والعقل لا يرضيان للمرأة أن تظهر علوها على الرجل. فذلك يتنافى مع القوامه ومع الدرجة التى له عليها، وقد مرّ فى ذلك موقف البرت البلجيكى زوج فيكتوريا ملكة إنجلترا، الذى لم يفتح لها الباب عندما قالت له: أنا الملكة، وفتح لها عندما قالت له: أنا زوجتك.

(١) ج ٢، ص ٢٤٢.

٩- التحدث عنه بالخير، وستر معايبه إن كانت له معايب، وكان هذا المعنى من أهم ما اشترطه شريح على زوجته كما تقدم، والمرأة الصالحة هي التي ترد على اتهام زوجها بالنقص، وترفع من شأنه، يقول الأصمعي: دخلت البادية فإذا بامرأة من أحسن الناس وجهاً تحت رجل من أقبح الناس وجهاً، فقلت لها: يا هذه، أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله؟ فقالت: يا هذا، اسكت فقد أسأت في قولك، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه، أو لعلني أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي، أفلا أرضى بما رضى الله لي؟^(١).

ويذكر الحديث أن إبراهيم عليه السلام لما زار ولده اسماعيل ووجده غائباً عن بيته سأل زوجته عن عيشهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه، فقال لها: قولي لزوجك: يغير عتبة بابي، فلما حضر وأخبرته قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقى بأهلك، فطلقها. ولما حضر إبراهيم للمرة الثانية وسأل زوجته الجديدة عن عيشهم وهيئتهم قالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فدعا لها بالبركة في زادهم، وهو اللحم والماء، وقال لها: قولي لزوجك يثبت عتبة بابي، فلما حضر وأخبرته قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. رواه البخاري^(٢).

ومحل عدم ذكره بالسوء عند عدم التقاضي والتظلم، نزولاً على قوله تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

١٠- من المحافظة على شعوره الاعتدال في الغيرة عليه، فلا تحاسبه مثلاً حساباً عسيراً على تأخره عن موعد حضوره المعتاد، ولا تسيء به الظن في تصرفات تافهة تؤولها هي على مقاصد سيئة، كنظر من شبك، أو قضاء مصلحة محتاجة لجأت إليه، أو لبسه ملابس جديدة عند زيارة صديق له، وهكذا مما يجعل للوسواس طريقاً إلى قلب المرأة، فإن شدة الغيرة متعبة لها وله على السواء، فهي دائماً في هم وقلق، وهو كذلك غير مستريح البال من شدة تعقبها له ومناقشته في

(٢) رياض الصالحين، ص ٦٨٠، ٦٨١.

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٥٥.

كثير من تصرفاته . وقد تسوقه شدة غيرتها إلى العناد، فيكثر هو من عمل ما يضايقها، وقد يحقق ما تخشاه هي، وقد يكون من نتائج ذلك هدم الأسرة. يقول عبد الله بن جعفر لابنته: إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وإياك وكثرة العتب فإنه يورث البغضاء، وعليك بالكحل، فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء .

وجاء في عيون الأخبار لابن قتيبة^(١) أن أبا الأسود الدؤلي قال قريباً من هذا الكلام. وفي هامش الكتاب أن القائل أسماء بن خارجة الفزاري. ومهما يكن من شيء فإنه كلام مأثور قد قيل. وقد مريك في بحث تحمل الزوج لأذى زوجته ما كانت تظنه زوجة عمر عند خروجه من أنه يقصد فتيات بني فلان .

فالغيرة مركوزة في نفس كل إنسان، وبخاصة عند الزوج والزوجة، والمنهى عنه هو الإفراط فيها، أما اعتدالها فهو محمود، وعدمها بالمرءة أو محاولة القضاء عليها معاندة للطبيعة البشرية، وليس من المصلحة لأنها لجام للرجل والمرأة يشدهما نحو الخير ويبعد بهما عن الشر، وإذا كان يشيع في اليابان فناء الزوجة في حب زوجها وكسب رضاه، لدرجة أنها تقول له إذا سهر كثيراً خارج المنزل: أرجو أن تكون قد قضيت سهرة جميلة، فتلك مغالبة للطبيعة أو تغطية ظاهرية لما في قلب المرأة، ويساعدها على ذلك عقيدتها في سمو الرجل عليها لدرجة تقرب من الألوهية. وقد تقدم حكم مؤاخذه الغيري على ما يقع منها، وروى حديث ضعيف أخرجه الطبراني عن ابن مسعود، في حث الزوجة على الصبر على زوجها وعدم الشطط في الغيرة عليه، يقول «إن الله كتب الغيرة على النساء، والجهد على الرجال، فمن صبر منهن إيماناً واحتساباً كان لها مثل أجر الشهيد» .

١١ - عدم التحدث أمامه عن أشخاص لا يحب ذكرهم، خصوصاً إذا كانت بينها وبينهم صلة ما، كزواج سابق، أو اتصال مماثل كخطبة أو صداقة أو غير ذلك، وألا تكون كبنيت ذى الجدين «قيس بن مسعود الشيباني» التي

(١) ج٤، ص٧٧.

(م ٢٣ - موسوعة الأسرة ج ٣)

تزوجها لقيط بن زرارة بن عدس، ثم مات عنها فتزوجت ابن عمها، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيط، فقال لها زوجها: أى يوم رأيت فيه لقيطاً أحسن فى عينيك؟ قالت: خرج يوماً يصطاد، فطرد البقر، فصرع منها، ثم أتانى مختضباً بالدماء، فضمنى ضمة، ولثمنى لثمة، فليتنى مت ثمة. فخرج زوجها ففعل مثل ما فعل، ثم أتاها فضمها وقبّلها، ثم قال لها: من أحسن؟ أنا أم لقيط؟ قالت: مرعى ولا كالسعدان، أى لم يعجبها^(١). ومن هذا القبيل عدم احتفاظها بصور أو هدايا من هؤلاء الأشخاص الذين لا يحبهم الزوج.

ذكروا أن أسماء العذرية كانت متزوجة برجل يسمى «عروس» وكان حسن العشرة معها، ولما توفى عنها تزوجت رجلاً سيئ العشرة، وذات يوم مرّ على قبر عروس، فاستأذنته أن تقف عند القبر قليلاً، فأذن لها، فطال مكثها فى حزن وندب، ولما استحثها على الرحيل نهضت متثاقلة، فسقطت منها قارورة عطر من هدايا زوجها المتوفى، فنبهها لتحافظ عليها، فردت عليه وهى تتنهد باكية، لن أتعطر لأحد بعد هذا الزوج الوفى، إنه لا عطر بعد عروس^(٢).

١٢- عدم طلب شىء منه وقت انفعاله أو انشغاله بأمر أهم، وتحين الفرصة المناسبة لذلك. وهذا الأمر فن دقيق عملت له دراسات، ووضعت له قواعد، ولكن ينبغى أن تراعى فيه العادات والظروف، وأن تدرس نفسية الزوج دراسة وافية ليعامل على أساسها، فقد يكون ما يسر غيره يسيىء إليه وبالعكس. وقد رأيت وصية الأعرابية، ووصية عامر بن الظرب، وهى منتزعة من واقع الحياة العربية، والناس مختلفون فى ذلك، وقد يكون تصرف بسيط يرضى عنه الزوج فترتفع به عنده إلى الذروة، وتحتل أعظم مكان فى قلبه. وقد تكون كلمة بسيطة تصدم شعوره فيكون فيها الطلاق أو غيره، والأعرابية تقول لبنتها: واعلمى أنك لن تبلغى رضاه حتى تؤثرى هواه على هواك. وهى كلمة لها قيمتها العظيمة فى معاملة الزوجة لزوجها يقول رجل لزوجته- قيل هو أسماء بن خارجة الفزارى، وابنته هند:-

(١) العقد الفريد، ج ٣، ص ١٩٢. (٢) مجلة الكويت، ١٦/٧/١٩٧٥.

خذى العفو منى تستديى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقر ك الدف مرة فإنك لا تدرين كيف المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالهوى ويأباك قلبى، والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب^(١)

١٣- احترام من يحب احترامهم، كالأقارب والأصدقاء ومن يتصل بهم،
وبالأخص هولاء الثلاثة: والداه «الحم والحماة» وزوجته الأخرى، وأولاده من
غيرها.

(أ) فالحماة نفسيتها تتغير بعد زواج ابنها الذى كانت تود أن تستأثر
بحبه، ولا يتعلق قلبه أو يشغل عنها بغيرها، وقد جاءت الزوجة فاستولت على
قلبه وماله أو على الأقل شاركت والدته فيه. والواجب على الزوجة أن تعرف
هذا المعنى، وتقدر موقف الأم، فتحترمها بمظهرين، الأول سلبي وهو تحمل كل
ما يبدو منها لتنفس عن نفسها، والاجتهاد فى عدم إبلاغ زوجها بذلك حتى
لا يتأثر أولاً، وهو فى حاجة إلى السكن النفسى، وحتى لا يتصرف بسوء ثانياً
نحو أمه التى يرفض أن يستمع إلى دفاعها، فهو غالباً يصدق زوجته التى آثرها
بحبه، والتى تبالغ- عادة- فى تصوير ما حدث من أمه حتى تبرر موقفها هى.

والمظهر الثانى لاحترامها إيجابى، وهو إظهار الحب لها، وأقول: إظهار، لأن
الحب الحقيقى لها صعب المنال. كذلك القيام بخدمتها وتوفير الراحة لها، ووضع
نفسها منها موضع البنت من أمها، وبذلك يمكنها أن تكسب رضاها، وفى
الوقت نفسه تسر زوجها، على أن يكون ودها لحماتها بالقدر الذى لا يدخل
الريبة فى قلب زوجها، وفى الحدود التى يسمح بها، وعليها أن تكون سفير خير
وسلام إذا حدثت جفوة بينه وبين أمه.

واعلمى أنك مهما كان حب الزوج لك فهو لا يحب أن تُذمَّ أمه أو تهان،
فذلك ذم وإهانة له. وأن حماتك التى تنازعتك قلب زوجك الذى تحاولين أنت أن

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٥٤.

تستأثرى به، لا يدوم موقفها منك على هذا الحال طويلاً فقد تتقلب بكما الظروف فتفترقان بحكم العمل مثلاً أو بحكم قضاء الله في الآجال، فلتتحمل ما قد يكون منها إلى حين.

ولا تكونى فى معاملتها كزوجة الأعرابى الذى نحر جزوراً، وقال لها: أطعمى أمى، فقالت: أيها أطعمها؟ قال: الورك. قالت: التى ظهرت بلحمة وبطنت بشحمة؟ لا لعمرى. قال: الفخذ. قالت: الكثيرة اللحم الطيبة المخ؟ لا، لعمرى. قال: الكتف: قالت: الحاملة اللحم من كل مكان؟ قال: فما تطعمينها؟ قالت: اللحى، التى ظهرت بالجلد وبطنت بالعظم، فقال: تزودى إلى أهلك فأنت طالق^(١).

إن الحماة فى كل العصور والبيئات لها وضعها الخاص، فى روديسيا الجنوبية لا يمكن للزوج أن يقدم هدية لحماته- أم زوجته- مباشرة، بل يجب أن يسلمها لزوجته وهى بدورها تقدمها لها، ولا يحق له أن يأكل أمام حماته، ويجب أن يخلى لها الطريق الذى تمر به، كما قالت «جوشواما كابوكو» عضو وفد الشباب فى المؤتمر الأفريقى الآسيوى بالقاهرة سنة ١٩٥٩م^(٢).

روى الترمذى عن أبى هريرة حديثاً غريباً- أى رواه راو فقط- يقول «إذا اتخذ الفىء دولا، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرمًا، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه، وأدنى صديقه وأقصى أباه.. فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراً، وزلزلة وخسفاً ومسحاً وقذفاً وآيات تتابع، كنظام لآلىء قطع سلكه فتتابع»^(٣).

إنى أتوجه إلى الأم وزوجة الإبن بهذه الكلمة: يا أيتها المتزاحمتان على قلب هذا المسكين، رفقا به ثم رفقا، ولتفكر كل منكما فى وضعهما لو كانت إحداكما فى موضع الأخرى، تذكري أيتها الحماة أنك كنت فى يوم من الأيام زوجة ابن، ولك حماة، وفكري فى شعورك إذ ذاك نحو زوجك ونحو حماتك،

(١) محاضرات الأدباء للأصفهاني، ج٢، ص١٢٥.

(٢) الأهرام ١٩٥٩/٢/٥. (٣) الجامع الكبير، ج١، ص٣١٤.

وأنت كنت تكرهينها إن وقفت حجر عشرة في سبيل التمتع بقلب زوجك، وبهذه النظرة يمكنك أن تخففى من حدة الحكم على زوجة ابنك، ويسهل عليك تحمل بعض تصرفاتها، وعلى معاملتها بما كنت تحبين أن تعاملك به حماتك فى أيام زواجك الأولى بوجه خاص .

ثم اعلمى أيتها الزوجة أنك ستصيرين بعد مدة من المن أمماً لولد، وهذا الولد الذى تؤثرينه على كل شىء سيكون زوجاً، وسيساق طوعاً أو كرهاً إلى وضع زوجك الآن، وستكونين حماة لزوجته، فضعى نفسك مقدماً فى هذا الوضع، وفكرى كيف تتصرفين، وكيف يكون موقفك من قلب ابنك وقلب زوجته، وتصورى هذا الكنز الغالى الذى جمعته مدة قد تزيد على العشرين عاماً، ثم نظرت فجأة فوجدت هذا الكنز- الابن- ملقى فى حجر امرأة غريبة عن دمك، ووازنى بين هذين الشعورين، شعور الجامعة للكنز بكفاحها وآلامها، وشعور التى وجدت ذلك الكنز سهلاً ميسوراً بين يديها، إنها الحسرة فى قلب الحماة، والأثرة فى قلب الزوجة، فلترحمى جامعة الكنز، ولتشكرىها على هديتها المكرهة عليها لك، وليس أيسر من لين القول أو كظم الغيظ، حتى يتبدل الوضع، وتستريحى من وضعك كزوجة، منتظرة وضعك المستقبل كحماة .

فلينظر كل منكما إلى هذه الأوضاع حتى تقترب مشاعركما، وتمكنا ذلك المسكين من السير فى طريقه الوعر الطويل .

(ب) والزوجة الأخرى لها مكانتها أيضاً عند زوجها، فلا تحاولى أن تصرفى قلبه عنها، وأنت تعلمين مظاهره عائشة وحفصة زوجتى النبى ﷺ ضد زينب بنت جحش، وتهديد الله لهما بذلك، وكذلك محاولة عائشة صرف قلبه عن خديجة . ومحاولتهن صرف قلبه عن عائشة وتوسيط فاطمة فى الموضوع، ونهى النبى ﷺ عن إيدائه فيها، وقد سبق بيان ذلك كله .

إن النبى ﷺ نهى عن إخبار الضرة بما أعطاه الزوج لزوجته ادعاء، من أجل أن تغيظها وتصرف قلبها عنه . فعن أسماء بنت أبى بكر أن امرأة قالت : يا رسول

الله، إن لى ضرة، فهل على جناح إن تشبعت من زوجى غير الذى يعطينى؟ فقال رسول الله ﷺ «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور» رواه البخارى. وقيل: إن هذه الضرة هى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، والزوج هو الزبير بن العوام، ومعنى «كلابس ثوبى زور» كالذى يلبس ثوبين مستعارين يظن الناس أنهما ملكه، ولبسهما لا يدوم فيفتضح كذبه، وقد ورد أن رابعة بنت اسماعيل تزوجت أحمد بن أبى الحوارى وكانت غنية بمال ورثته عن زوجها الأول، فتزوج أحمد عليها ثلاث نسوة، وقال: كانت تطعمنى الطيبات، وتطيبنى وتقول: اذهب بنشاطك وقوتك إلى زوجتك، وكانت رابعة هذه تشبهه فى الشام رابعة العدوية بالبصرة^(١). وقد تقدم ما جرى بين عبد الله بن رواحة وزوجته حين اتصل بجاريته.

(ج) وأولاد الزوج من زوجة أخرى هم قطعة منه، فإكرامهم إكرام له، وهو لا يحب- مهما كانت علاقته بأهمهم- أن يؤذى فيهم، وقد أصبحوا كأولادك فى الحرمة، وأنت مسئولة عنهم أيضاً، فلا تحاولى أن تصرفى قلب أبيهم عنهم، فذلك مستحيل طبعاً، لا يشذ عنه إلا قلة نادرة تنكرت لطبيعتها الإنسانية وجفوتك لهم تحملهم على الانحراف فى السلوك، ويكونون بذلك مصدر شقاء لوالدهم، وبالتالي لك، فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.

١٤- من المحافظة على شعور الزوج عدم إفشاء سره هو أو سر منزله بوجه عام، والسر هنا ما ينبغى ألا يطلع عليه غير أعضاء الأسرة، كما يدخل فيه كل سرائتمن الزوج عليه زوجته ولو كان غير متعلق بالحياة الزوجية، وإفشاء سر الزوج- كما فى الوصية العربية- يوغر صدره ضدها، وذلك أمر طبيعى. ومن شواهد المأثورة التى تؤكد احترام هذا الأدب وخطورة التفريط فيه ما حكاه القرآن الكريم عن النبى ﷺ وبعض أزواجه، إذ أسر إليهما بحديث فأنشياه، وفى ذلك نزل أول سورة التحريم، وبيان ذلك مذكور فى بحث تعدد الزوجات.

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٥٣، ٥٤.

وذلك إلى جانب النهى عن إفشاء السر عامة بمثل قول النبي ﷺ « كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح، وقد ستر الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عليه » رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة^(١).

ومما ورد خاصاً بالزوجين حديث « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه، ثم ينشر سرها » رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى^(٢)، وجاء فى رواية المنذرى فى نهاية الحديث « ثم ينشر أحدهما سر صاحبه »^(٣)، وقد تقدم.

ويتأكد حفظ السر فيما يتعلق بالاتصال الجنسي، كما ورد ذلك فى حديث أسماء بنت يزيد بن السكن، وقد تقدم أيضاً، وفيه « لعل رجلاً يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها... فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانه فغشيها والناس ينظرون^(٤)، كما يمكن أن يدل عليه الحديث السابق إذا أريد بالإفشاء الاتصال الجنسي، أو اطلاع أحدهما من الآخر على عيب لا ينبغي أن يعرفه غيرهما.

كما يتأكد حفظ سر الزوج إذا كان يمس الأمور الدقيقة الخطيرة التى يعرفها بحكم عمله مثلاً، كالأسرار الحربية والسياسية، وقد ورد أن أبا بكر لما سأل عائشة ابنته عن تجهيزها لرسول الله ﷺ لفتح مكة، وقد كان لا يعلم، فقالت: والله ما أدرى، ثم أعلمته بذلك لما أذن النبي ﷺ لها أن تخبره، لأنه عيبة سره^(٥).

والنسوة فى مجالسهن الخاصة قد يتحدثن فى الأمور الداخلية للأسرة، كما فعلت نساء خثعم، وهو حديث أم زرع التى تقدم ذكره. فلتحذر الزوجة أن

(١) رياض الصالحين، ص ١٢٦.

(٢) رياض الصالحين، ص ٣٠٢.

(٣) الترغيب، ج ٣، ص ٢٨.

(٤) الترغيب، ج ٣، ص ٢٨.

(٥) الزرقانى على المواهب، ج ٢، ص ٢٩١.

يجرّها الحديث إلى إفشاء الأسرار، على أنه لا بأس من ذلك إذا أذن الزوج، فإن الإذن قد أخرجه من نطاق السرية، أما الأسرار الخاصة الدقيقة فلا يجوز إظهارها إلا عند الضرورة، كالتظلم أمام القضاء. وقد مر حديث امرأة ركّانة وامرأة رفاعة القرظي في الشكوى من ضعف الناحية الجنسية، وكذلك من حكم لها كعب بن سوار على زوجها، ومنه استفتاء هند للنبي ﷺ عما تأخذه من مال أبي سفيان لعدم كفاية النفقة، وقالت في شأنه: إنه شحيح، وجاء في «الأمالي لأبي علي القالي» أن أم كثير الضبية اختصمت هي وزوجها عند بعض الولاة فقالت له: اسكت يا منتن الخصيتين، فقال لها: يحق لهما أن يكونا كذلك وهما طبقا عجانك منذ ثلاثين عاماً^(١).

ومن الفكاهات في عدم تحكّم المرأة في كتمان السر، أن صحفية ذهبت إلى «جورج بومبيدو» رئيس فرنسا، وطلبت منه ثلاثة أسرار، ووعدته ألا تفشيها، فهز رأسه وقال: إن المرأة لا تكتم سراً إلا إذا عرفت أنه ليس بسر^(٢). ومن الأقوال الحكيمة: ثلاثة لا يسلم منها أحد، صحبة السلطان، وإفشاء السر إلى النساء، وشرب السم للتجربة^(٣).

١٥- من المحافظة على شعور الزوج تحمل أذاه، ذلك أن الحياة الزوجية لا تمر أبداً بدون منغصات، وكما كان الزوج يريد من الزوجة فتاة أحلامه فصدوم بالواقع وأمر بتحمل ما يجد من أذاها- كذلك الزوجة التي كانت تتمنى أن يكون الزوج فتى أحلامها فصدمت بالواقع هي مأمورة أيضاً يتحمل ما تجد من أذى، والحياة إن لم يكن فيها تحمل من الجانبين لا يمكن أن تستمر، فيبحر الحياة ملئاً بالأموج والتيارات والعواصف، والتحمل وضبط الأعصاب كفيل بوصول السفينة إلى الشاطئ بأمان.

عن ابن عباس رضی اللہ عنہما أن رسول اللہ ﷺ قال «ألا أخبركم برجالكم

(١) أعلام النساء لعمر كحالة. (٢) إذاعة صباح الخير من القاهرة ١٨/٣/١٩٧١.

(٣) مفيد العلوم للخوارزمي، ص ٢٢٤.

من أهل الجنة؟» النبي في الجنة، والصديق في الجنة والشهيد في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلا لله في الجنة، ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود، التي إذا غضب أو غضبت جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها ثم تقول: لا أذوق غمضاً - بضم الغين أى نوماً - حتى ترضى» رواه النسائي (١).

وتحمل الأذى يكون في المعاملة الزوجية من جهة المتعة والنفقة والعشرة، أما المضايقات المتصلة بشيء خلقي كالدمامة والضعف الجنسي فقد مر الحديث عنها، وأنبه هنا بنوع خاص إلى تحمل ما قد يتسبب به عن الفقر وحدة الأخلاق وجفاء الطبع، فإن الصابرة على ذلك ثوابها عظيم، قيل إنه كثواب آسية امرأة فرعون التي قالت ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحریم: ١١]. وروى هذا على أنه حديث لكنه لم يثبت (٢).

والتي تدرك قيمة الصبر وما أعد للصابرين من ثواب، والتي تعمق الإيمان في قلبها بوجه عام هي التي تستطيع أن تتفادي الأزمات التي تتوقع من هذه المضايقات. قيل لامرأة: إن زوجك سافر وتركك، فقالت: غاب الأكال وبقي الرزاق وهو الله تعالى (٣).

وقد صبر نساء النبي ﷺ على الحياة الرقيقة التي كان يحياها، واخترنه متشرفات بالانتساب إليه، وحريصات على حسن خلقه معهن الذي لا يقدر بمال أيضاً، كما أمر فاطمة أن تصبر على رقة حال علي، وحول نظرها إلى الاهتمام بالآخرة بدلاً من الاهتمام بالدنيا، وقد مر ذلك، وربما مر عليها وهي لايسة من أوبار الإبل، وهي تطحن بالرحى، فيبكي ويقول «يا فاطمة اصبري على مرارة الدنيا لنعيم الآخرة» (٤).

(١) حادى الأرواح لابن القيم، ص ١٠٥. (٢) الإحياء، ج ٢، ص ٣٩. (٣) الإحياء، ج ٢، ص ٥٣. (٤) كشف الغمة، ج ١، ص ١٩٦.

ولتعلم الزوجة أن سوء العشرة الذي تشعر به ربما كان خفيفاً بالنسبة لما تعانيه غيرها في ظل أزواج آخر، فلتنظر إلى من دونها، ولا تنظر إلى من فوقها في هذه الأمور، حتى لا تزدري نعمة الله عليها كما ورد في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة^(١).

وإذا كانت آلامها بسبب ضيق الحياة المادية فلتخفف وقعها على نفسها بالانصراف إلى النواحي الأدبية وعدم الاهتمام الكبير بالمظاهر، فرب متمتعة بهذه المظاهر وهي في أشد الألم والضيق، ورب فقيرة تعيش في بساطة وتواضع وعندها من الراحة النفسية والمزايا الأخرى ما يعوضها هذا النقص المادي. والمرأة اللببية تستطيع بلباقتها وبعد نظرها أن تجعل بيتها جنة وعيشها مع زوجها متعة، مؤمنة بأن الطريق لا بد فيه من أشواك، فهو ليس دائماً مفروشاً بالورد، ومن لم يتحمل لا يستطيع أن يكمل مسيرته في الحياة، ولتكن كما قال موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي^(٢):

إذا أنا لم أقبل من الدهر كلما	تكرهت منه طال عتبي على الدهر
تعودت مس الضر حتى ألفته	وأسلمني طول البلاء إلى الصبر
ووسع صدري للأذى الأذى	وإن كنت أحياناً يضيق به صدري
وصبرني يأسي من الناس راجيا	لسرعة لطف الله من حيث لا أدري

ولا تكن كمن سارعن بالشكوى من أزواجهن على ما مربيانه، كما أسرعت فاطمة بنت عتبة بشكوى زوجها عقيل إلى عثمان. فإذا تأزمت الأمور كان لها أن تستعين بمن يساعدها على تحسين زوجها العشرة معها، أو التخلص منه ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠].

فقد شكّت حبيبة بنت سهل زوجها ثابت بن قيس بن شماس عندما

(١) الزبيدي، ج ١، ص ٣٣٤ - مسلم، ج ١٨، ص ٩٧.

(٢) زهر الآداب، ج ١، ص ٩٥.

ضربها فكسر بعضها- كما عبرت- ففرق النبي ﷺ بينهما بعد أن ردت المهر إلى زوجها برضاها، كما رواه أبو داود في سننه عن عائشة، والبخاري عن ابن عباس^(١)، كما أن جميلة بنت عبد الله بن أبي التي تزوجها بعد ذلك فكسر يدها شكاه أخوها إلى النبي ﷺ فاختلفت منه كما رواه النسائي عن الربيع بنت معوذ^(٢).

وشكت امرأة زوجها لعمر بن الخطاب، فأباتها في بيت كثير الزبل- روث البهائم- فلما أصبحت قال لها: كيف وجدت مكانك؟ قالت: ما رأيت رائحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة، التي حبستني. فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها^(٣)، وكما شكت خولة إلى النبي ﷺ زوجها أوس بن الصامت لما ظاهر منها.

وإذا كنا ننصح الزوجة بتحمل أذى زوجها، فمن باب أولى ننصحها بعدم التعدي عليه بأي نوع من الإيذاء، فذلك أكبر إهانة له، حتى لو كان هذا الإيذاء قصاصاً، علي حد قوله تعالى: ﴿وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. فإن الصبر والعفو مأمور بهما في هاتين الآيتين. وقد مر في سبب نزول آية «الرجال قوامون على النساء» ما كان الرسول ﷺ أذن به في قصاص الزوجة من زوجها، ولكن عدل عنه لهذه الآية، وهو مذكور بتوضيح في بحث الحجاب. وروى الحاكم بسند صححه عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن في بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج وهو كاره، ولا تطيع فيه أحداً، ولا تعزل فراشه، ولا تضربه، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه، فإن قبل منها فبها ونعمت، وقبل الله عذرها، وأفلح حجتها ولا إثم عليها، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها»^(٤).

(٢) زاد المعاد، ج ٤، ص ٣٤.

(١) زاد المعاد، ج ٤، ص ٣٤.

(٤) الترغيب، ج ٣، ص ١٢.

(٣) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٤٠٤.

وبعد، فإن المحافظة على شعور الزوج بنودها كثيرة، ومظاهرها متعددة، وليس الغرض حصرها الآن، ولكن يجمعها كلها المعاشرة بالمعروف والاعتراف الأكيد بخطر حق الزوج على زوجته، وبالنتائج الطيبة التي تترتب على حسن معاشرتها له . ولنترك لها حرية التصرف في هذه الدائرة بما يقتضيه الذوق والعرف فيما لا نص عليه من الدين، ولعل من خير الزوجات في معاملة أزواجهن، على الرغم من عدم تدينهن بدين سماوى، الزوجات اليابانيات والصينيّات والهنديّات على ما ذكر الرحالة والكاتبون، وذلك كله لا يدانى معاملة أمهات المؤمنين لرسول الله ﷺ، على ما ذكر من الأمثلة.

* * *

الفصل الرابع

تدبير المنزل

إن تدبير المنزل مهمة كبيرة تحتاج إلى خبرة واسعة، وهي من الأمور التي قصد الرجل الزواج من أجلها، فهي مكملته لمتعته وأساس سكنه. ومهمته الأولى في الحياة هي الكفاح خارج محيط المنزل في أغلب الأحيان، فهو يتركه للزوجة ترعاه وتحفظه، وتهيئه لاستقباله عند عودته من كفاحه.

وهذا التدبير له عدة مجالات، أقتصر منها على اثنتين، هما خدمة الزوج والمحافظة على ماله، أما رعاية الأولاد فسأفرد بها بفصل خاص بعد ذلك. وقد رأينا في وصية العرب لبناتهم عند الزفاف عدم إغفال هذا الأمر: وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمة وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير. وإليك كلمة عن كل من الخدمة وحفظ المال.

* الخدمة:

خدمة الزوجة لزوجها مظهر من مظاهر المشاركة والتعاون في بناء الأسرة، ولازمة من لوازم توفير الراحة والسكن للزوج، وهي مبدأ مقرر من قديم الزمان، وكان في شريعة الكلدانيين منذ نحو ثلاثة قرون قبل الميلاد، فكانت المرأة بعد الزواج تحمل على عاتقها تبعات الخدمة المنزلية، تستقى الماء وتطحن الحبوب، وتعد الخبز، وتغزل وتحيك، وتؤثث البيت^(١).

وفي قانون حمورابي تنص المادة (١٤٣) على أنه إذا لم تكن المرأة ربة منزل

(١) مركز المرأة في قانون حمورابي والقانون الموسوي - تأليف «جاك أميل ريك» ص ١٢، ٢٣.

مدبرة، بل كانت جوابة، أو تتسبب في خراب بيتها وأهملت زوجها تلقى في الماء.. أى تغرق في النهر^(١).

وكذلك كانت خدمة الزوجة لزوجها مبدأ مقررأ في اليهودية، ففي سفر الأمثال، إصحاح ٣١ : ١٠ - ٣١ في صفة المرأة المثالية: تقوم في الليل، تعطى لبنها أكلاً، ولجواربها ما يكفيهن، تتأمل حقلاً فتأخذه، وبثمر كفيها تغرس كرمأ، تمنطق حقويها بالقوة، وتشدد ذراعيها، ما ألد تجارتها، فلا ينطفئ في الليل سراجها، تلقى يديها على الفلكة، وأناملها تمسك المغزل.. اه^(٢). وهي عند المسيحية كذلك خادمة لزوجها قائمة على شؤون بيته.

والإسلام أيضاً جعل من مهمتها ذلك، ففي الحديث «المرأة راعية في بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيته» رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر^(٣).

وقد مارست نساء الإسلام خدمة أزواجهن من عهد النبوة إلى الآن، وقد مرّ بك حديث وافدة النساء وما تقوم به الزوجات من حفظ مال الزوج وغزل الثياب وتربية الأولاد، وإقرار النبي ﷺ لذلك، وأنه يعدل الجهاد في سبيل الله، ويعدل الأعمال الخيرية الأخرى التي يقوم بها الرجال. وفي بحث الحجاب أن أسماء بنت أبي بكر الصديق كانت تساعد زوجها الزبير بن العوام، فكانت تعلق فرسه وتكفيه مؤنته وتسوسه، وتدق النوى لناضحه، وتعلقه وتستقي الماء، وتخرز الدلو وتعجن وتنقل النوى على رأسها من ثلثي فرسخ، حتى أرسل إليها أبوها بجارية، فكفتها ذلك، وأن الرسول ﷺ لقبها هو والصحابة والنوى على رأسها. والحديث رواه مسلم^(٤).

وجاء في كشف الغمة^(٥) أنها قالت: ولم أكن أحسن الخبز، فكان يخبز

(١) مركز المرأة في قانون حمورابي والقانون الموسوى - تأليف «جاك أميل ريك» ص ١٢، ٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥، الكتاب المقدس ص ٥٧٠.

(٣) رياض الصالحين، ص ١٤٤. (٤) ج ١٤٤، ص ١٦٤.

(٥) ج ٢، ص ١١٠.

لى جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق . وكان الأزواج يتعاونون مع الزوجات فى خدمة المنزل عند وجود الفراغ، والمثل الأعمى فى ذلك هو النبى ﷺ، روى البخارى عن عائشة أنها قالت: كان يكون فى مهنة أهله . فكان يخيظ ثوبه، ويخصف نعله، كما رواه أحمد وابن سعد وصححه ابن حبان، وفى رواية أحمد عنها: كان يخصف نعله ويخيظ ثوبه ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته . ورجاله رجال الصحيح^(١) . وعنه أيضاً: يلقى ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه . ويقول القسطلانى فى المواهب اللدنية تعليقاً على هذا^(٢): وهذا يتعين حملة على أوقات، فإنه ثبت أنه كان له خدم، فتارة يكون بنفسه، وتارة بغيره، وتارة بالمشاركة . وكانت السيدة فاطمة تطحن بالرحى حتى تتألم يدها . وروى أحمد أن بلالا مرّ بها وهى تطحن فساعدتها، كما روى أحمد أنها طلبت من أبيها خادماً لأن يدها كالت من الطحن^(٣) . ولما تزوج جابر ثيباً وسأله النبى ﷺ: لم لم يتزوج بكراً قال: إن عنده بنات كره أن يجيء بمثلهن، فجاء بامرأة تقوم عليهن وتصلحهن . فقال له النبى ﷺ «بارك الله لك» رواه مسلم^(٤) . وعلق النووى على الحديث بقوله: فيه جواز خدمة المرأة زوجها وأولادها وعياله برضاها، وأما من غير رضاها فلا .

بعد هذا الوارد عن السابقين وعن أصحاب الرسول ﷺ اختلف فقهاء المسلمين فى حكم هذه الخدمة، هل هى واجبة أولاً، قال قوم بالوجوب، وقال آخرون بعدمه . والأولون اختلفوا فى حجم هذا الواجب أو مجال الوجوب، ففى رأى أبى ثور أنه على الإطلاق وفى كل شىء، وفى رأى أنه فى الخدمة الباطنية فقط، أى فى داخل المنزل، من طبخ وغسل وعجن وخبز وما إلى ذلك، أما الخارجية فعلى الرجل . وقالوا: إنه حكم النبى ﷺ بين على وفاطمة . غير أن هذا التفريق ليس مستنداً على أى أثر من النبى ﷺ يعتمد عليه، والذى

(٢) ج ١، ص ٢٩٣ .

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٣١٥ .

(٤) ج ١٠، ص ٥٣ .

(٣) مشارق الأنوار، ص ١٦٣، وزاد المعادج، ص ٣٢ .

ورد هو حديث مرسل كما قال البوصيرى، عن ضمرة بن حبيب قال: قضى رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة بخدمة البيت، وعلى على ما كان من خارج البيت^(١). فالمذكور هو ما جرى بينهم وتعارفوا عليه من حسن العشرة وجميل الأخلاق، وقد حكى ذلك ابن بطال عن بعض الشيوخ، وهو عدم الدليل على التفريق. وقال الطبرى: إن خدمتها للبيت محلها إذا كان معروفاً أن مثلها يلى ذلك بنفسه، وحكى ابن حبيب عن أصبغ وابن الماجشون عن مالك أن خدمة البيت تلزمها ولو كانت ذات قدر وشرف، ولكن إذا كان الزوج معسراً، ومفهومه أن الموسر يلزمه إحضار خادم للقيام بأعمال المنزل.

والقائلون بعدم وجوب خدمتها له هم الشافعى وأبو حنيفة وأهل الظاهر. وقال مالك بذلك أيضاً. ولكن لعل ذلك عنده إذا كان الزوج موسراً، أوله رأيان فى ذلك. قال ابن تيمية فى رسالة «السياسة الشرعية»^(٢): واختلف الفقهاء: هل عليها خدمة المنزل كالفرش والطبخ والكنس ونحو ذلك، فقيل: يجب عليها، وقيل: لا يجب عليها، وقيل: يجب الخفيف منه. وقد تقدم كلام النووى فى خدمة المرأة لزوجها، وهو يميل إلى أن الواجب عليها نحوه هو المتعة والاستقرار فى المنزل، أما الأعمال الأخرى فهى تبرع منها غير واجبة عليها، ولو امتنعت لم تأثم، وهى عادة جميلة فى معاشرتها لزوجها، كما تقدم رأى لجنة الفتوى فى ذلك، وهو خدمتها لزوجها ولنفسها لا غير دون أولاده إذا كان زوجها فقيراً أو موسراً لكن لم تجر العادة بأن يكون لمثله ومثل زوجته خادم.

وجاء فى كشف الغمة^(٣) كان أنس يقول: كانت نساء أصحاب رسول الله ﷺ إذا زفوا امرأة على زوجها يأمرنها بالخدمة للزوج ومراعاة حقه من غير إلزام، ويرون أن ذلك من المعروف اهـ. وعن أبى الورد بن ثمامة قال: قال على كرم الله وجهه لابن أم عبد: ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ - وكانت

(١) المطالب العالية، ج ٢، ص ٣٩. (٢) ص ١٧٧، ١٧٨ - طبعة الشعب.

(٣) ج ٢، ص ١٠٩.

من أحب أهله إليه -؟ قلت: بلى، قال: إنها جرّت بالرحى حتى أثرت في يدها، واستقتت بالقربة حتى أثرت في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها، فأتى النبي ﷺ بخدم، فقلت لها: لو أتيت أبك فسألته خادماً؟ فأتته فوجدت عنده أحدائاً، فرجعت، فأتاها من الغد فقال « ما كانت حاجتك؟ » فسكتت، فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله، إنها جرّت بالرحى حتى أثرت في يدها، وحملت القربة حتى أثرت في نحرها، فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك تستخدمك خادماً يقيها حرّاً ما هي فيه، فقال « اتقى الله يا فاطمة، وأدى فريضة ربك، واعملى عمل أهلك، وإذا أخذت مضجعك فسيبى ثلاثاً وثلاثين، واحمدى ثلاثاً وثلاثين، وكبرى أربعاً وثلاثين. فذلك مائة، هي خير لك من خادم » قلت: رضيت عن الله وعن رسوله، ولم يخدمها خادم. أخرجه الخمسة إلا النسائي (١).

وجاء في كشف الغمة (٢) أن النبي ﷺ حكم على فاطمة بالعجين والطبخ والفرش وكنس البيت واستقاء الماء معها وعمل البيت كله، وكان على يقول: قلت لأمى فاطمة بنت أسد: اكفى فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك خدمة الداخل كالطحن والعجن.

إن الذين قالوا بوجوب خدمة الزوجة لزوجها احتجوا بما يلي:

(أ) حديث « المرأة راعية في بيت زوجها وولده » وهل الرعاية إلا الخدمة، والمسؤولية تنبىء عن الوجوب.

(ب) إقرار النبي ﷺ لخدمة أسماء لزوجها، وعدم نهيها عن الخروج لنقل النوى من ثلثى فرسخ.

(ج) إقراره لعمل بنته فاطمة في الطحن بالرحى، وعدم أمره عليها بتحمل ذلك عنها بنفسه أو بإحضار خادم.

(د) سمي الرسول ﷺ المرأة عانية في قوله « فإنما هن عوان عندكم »

(٢) ج ٢، ص ١٠٩.

(١) حسن الأسوة، ص ١٦٢.

ولا شك أن النكاح صورة من صور الرق كما قال بعض السلف: النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يرق كرىمته، ومن لوازم الرق عادة خدمة السيد.

(هـ) أن خدمتها له هي المعروف عند من خاطبهم الله بقوله ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. والمنكر عندهم أن يقوم الرجل بالخدمة.

(و) قول الله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]. يقتضى أن تكون الخدمة من عملها، ولو خدمها الرجل لكانت هي القوامة.

(ز) قالوا: إن المهر هو فى مقابل التمتع بالبضع، وقد تمتع كل منهما بالآخر، فبقيت نفقته عليها فى مقابل خدمتها له.

والذين قالوا بعدم وجوب الخدمة عليها احتجوا بأن عقد النكاح هو للاستمتاع فقط، لا للاستخدام، فلا يجب عليها، وردوا النصوص والأدلة التى احتج بها الموجبون بأنها ليست نصاً فى الوجوب، وبأن خدمة السابقات كانت تطوعاً لا وجوباً، وأجاب الأولون بأن النصوص وما يستنتج منها ترجح الوجوب وإن كانت لا تعنيه، وأن العقود المطلقة تنزل على العرف، وهو خدمة المرأة لزوجها وقيامها بمصالح البيت. وبعدم التسليم بتطوع السابقات بالخدمة، فإن النبى ﷺ أقرها مع ما فيها من مشقة كلت بها يد ابنته فمجلت من الرحى، وتعبت فيها أسماء بنت أبى بكر، وبأن تقسيم العمل بين على وفاطمة لا دليل عليه.

هذا عرض للأراء والأدلة، والذى أميل إليه أن يترك الأمر للعرف واعتبار حال الزوج ومكانته الاجتماعية ومقدرته المالية وكمية الأعمال ولياقتها، واعتبار الشعور بقيمة العلاقة بين الزوجين.

ذكر القرطبي^(١) أن الرجل يخدم زوجته فيما خف من الخدمة ويعينها، مستشهداً بما كان يفعل الرسول ﷺ فى بيته، ثم قال بعد ذلك:

(١) ج ١٠، ص ١٤٥.

وهذا أمر دائر على العرف الذى هو أصل من أصول الشريعة، فإن النساء الأعراب وسكان البوادي يخدمن أزواجهن حتى فى استعذاب الماء وسياسة الدواب، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها، وأما أهل الثروة فيخدمون أزواجهم، ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك، فإن كان أمراً مشكلاً شرطت عليه الزوجة ذلك، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها، فالتزم إخدمها، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه.

وقيام الزوجة بخدمة البيت سواء أكان ذلك بالمباشرة أم بالإشراف له آثار طيبة، منها:

١- إتقان العمل وإحسانه، فرب الدار أدري بما فيه، وما حك جلدك مثل ظفرك.

٢- توفير المال وتوجيهه إلى ما هو لمصلحة الأسرة.

٣- استغلال وقت المرأة وعدم تبرمها بالفراغ وصرفها عن اللهو.

٤- مساعدتها على الاستقرار فى البيت لعدم وجود الوقت الكافى للخروج.

٥- زيادة حب الزوج لها وإعجابه بها وعطفه عليها.

والمشاهد أن إتقان عمل البيت مقياس لمهارة المرأة فى كثير من البيئات، وأن التراخى والكسل عنه يضع من قدرها فى عين الزوج. والنساء فى قبيلة «تاجا» بالهند يعلقن أجراساً على أجسامهن، ليتأكد الزوج أنهن غير كسولات، فهى فى حركة مستمرة تدل عليها الأجراس. ويقول الرحالة محمد ثابت: إن المرأة تبكر بعمل البيت ولا تتركه للخدم، الذين هم من الطبقة الدنيا، خشية التنجيس.

٦- خدمة المنزل دليل على تفانى المرأة فى حب زوجها، ومحاولة كسب رضاه، وهناك بلاد ودول معروف عن نساؤها مهارتهن فى خدمة المنازل والقيام

بواجبات الزوجية، واشتهر منهن قديماً نساء «مالديف» كما يحكيه ابن بطوطة،
وحديثاً نساء رومانيا ونابلس كما يثبته الرحالة محمد بن ثابت في كتابه .

ولا ينبغي أن تستنكف المرأة من عمل البيت، وتتطلع إلى غيرها من
الزوجات، وتعد وجود الخادم عنوان التمدن والتحضر، فإن إسناد الأعمال إلى
الغير لا يكون أبداً كمباشرتها بالنفس . وإذا كنا نستحسن من المرأة خدمة البيت
فلا ينبغي للرجل أن يكون قاسياً عليها، يكلفها به حتى لو كانت لا تطيقه، بل
عليه أن يساعدها بنفسه أو بخادم، ولا يستنكف هو من المساعدة، فإنه في
الحقيقة يخدم نفسه ولا يخدم غيره وأولاده وزوجته قطعة من حياته .

وقد رأيت أن النبي ﷺ كان يباشر أعمال البيت أحياناً فيما يتكبر كثير
من الناس عن مباشرته، وذلك هو واجب الحياة الزوجية في التعاون، على أن
يكون ذلك عند الحاجة، أو في بعض الأحيان لا بصفة دائمة كما أشار به
المختصون .

إن بعض الإخصائيين ينصح بعدم الإسراف في مساعدة الزوج لزوجته في
أعمال المنزل . وحثهم في ذلك أنه يغريها بالكسل، وقد تقل هيبتة من نفسها،
نصح بذلك الدكتور «بيك» من أكبر الاخصائيين في علم الزواج بأمریکا في
كتابه «كل شيء عن الرجال» حيث يقول بعد حيل ذكرها للتخلص من أمر
زوجته له بغسل الأطباق وترتيب السرير ومسح البلاط : إن كل استثناء تقوم به
في بيتك تحول الزوجة إلى روتين واجب التنفيذ، فاحترس من المرة الأولى، حاول
أن تربك البيت وأنت تساعد زوجتك في هذه المرة، وإلا فستتحول إلى صبي
حريم، خير لك أن تسخر زوجتك من «خيبتك في البيت» من أن تعجب بك مرة
ثم تطالبك أن تمضي باقي أيام حياتك في الطهي ومسح البلاط وغسل الأطباق .
أهد. «فكرة لعلی أمين – جريدة الأخبار ١٥ / ٥ / ١٩٥٨» .

وإذا كانت هذه النصيحة بوحى من العلم بنفسية المرأة فإن للظروف
والبيئات أعرافها ومواضعاتها .

* حفظ المال :

الزوجة أصبحت شريكة للزوج، يتقاسمان معاً هموم الحياة ويواجهان مطالبهما، والرجل يتحمل العبء الأكبر في هذه الشركة، وذلك بالمال على وجه خاص. والمرأة تسهم بجهدا أكثر من إسهامها بأى شىء آخر، وعلى الشريكين أن يرعيا الأمانة حتى يبارك الله لهما، ولا ينبغى أن تكون المرأة كما يقول المثل العصرى: إن حساب البنك المشترك بين الزوجين يكون دور الزوج فيه إيداع النقود، ودور المرأة هو سحبها.

فالمرأة ملزمة من جهتها بالمحافظة على مال الشركة التى تقوم عليها حياتها، والمال إن لم يكن نقوداً فهو أثاث ومتاع وأشياء كثيرة يتركها الرجل أمانة عندها، ويتركها وحدها فى المنزل وهو خارج يكسب العيش ويكافح من أجل الأسرة، والأمانة مطلوب دينى من كل مسلم، والحديث الشريف جعل المرأة راعية فى مال زوجها وبيته، فقد كلفها بمهمة صيانته، وقد مدح النبى ﷺ نساء قريش لأنهن يحافظن على مال أزواجهن، وفى الحديث «نساء قريش خير نساء ركن الإبل، أحناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده» رواه مسلم عن أبى هريرة^(١)، وتقدم مدح الزوجة الصالحة بأنها إذا غاب زوجها نصحتة فى نفسها وماله^(٢).

إن ميزانية البيت إذا كانت الزوجة تشترك فى وضعها والتخطيط لها فإن نصيبها فى التنفيذ يكون أكبر من نصيب الزوج، لأنها تلمس مطالب البيت عن قرب، وتتخلص المحافظة على ماله فى أمور ثلاثة: عدم ضياعه وإتلافه، وعدم الإسراف فيه، وتنميته.

(أ) والضياع معناه فقدته فى غير مقابل يفيد الأسرة، وصيانته بهذا المعنى

تتمثل فى أمور، منها:

١- عدم سرقة أو خيانتة أو إتلافه بحرق أو كسر ونحو ذلك، ومعلوم من الدين بالضرورة أن السرقة والخيانة وإتلاف المال المملوك للغير حرام. يقول النبى

(٢) الترغيب، ج٣، ص٥.

(١) ج١٦، ص٨٠.

«إن الله كره لكم ثلاثاً، قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعه المال» رواه مسلم عن المغيرة بن شعبه^(١). والسرقه تتحقق حتى لو كان المسروق يصرف عليها وأولادها ما دامت عندها الكفاية. فإن لم تكن كفاية جاز لها أخذ ما يكفيها هي وأولادها، بدليل حديث هند مع النبي ﷺ، وقد مر في بحث الإنفاق على الزوجه. يقول النووي في شرح صحيح مسلم^(٢) تعليقاً على هذا الحديث: إن من له حق على غيره وهو عاجز عن استيفائه يجوز له أن يأخذ من ماله قدر حقه بغير إذنه، وهذا مذهبننا، ومنع ذلك أبو حنيفة ومالك رضى الله عنهما.

٢- عدم الإهمال فى الطعام حتى يفسد، أو الملابس حتى تتلف، أو أى شىء آخر تجب العناية به، ويتلفه الإهمال.

٣- عدم التصديق من ماله بغير إذنه. فى الحديث «لا يجوز لا مرأة عطية إلا بإذن زوجها» رواه أحمد وأصحاب السنن إلا الترمذى، وصححه الحاكم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ورواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو ابن العاص^(٣)، وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول فى خطبته عام حجة الوداع «لا تنفق المرأة شيئاً من بيت زوجها إلا بإذن زوجها» قيل: يا رسول الله، ولا الطعام؟ قال «ذلك أفضل أموالنا» رواه الترمذى وحسنه^(٤)، وروى أبو داود أن أبا هريرة سئل عن المرأة: هل تصدق من بيت زوجها؟ فقال: لا، إلا من قوتها والأجر بينهما - قال الحنابلة: يجوز لها أن تتصرف فى نفقتها ما لم يعد عليها بالضرر البدنى، كما جاء فى معجم المغنى لابن قدامة^(٥) ولا يحل لها أن تصدق من مال زوجها إلا بإذنه. زاد زرّ ابن العبدري فى جامعه: فإن أذن لها فالأجر بينهما، فإن فعلت بغير إذنه فالأجر له والإثم عليها.

(١) ج ٨، ص ١٢.
 (٢) ج ١، ص ٢٥٨، وبلوغ المرام ص ١٧٨.
 (٣) الترغيب، ج ١، ص ٢٥٨.
 (٤) الترغيب، ج ١، ص ٢٥٨.
 (٥) ص ٩٧٠.

وأما ما جاء من الأحاديث المجيزة لتصدقها من مال زوجها فمحمول على الإذن، ومنه حديث «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها - وفي رواية من طعام زوجها - غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما اكتسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئاً» رواه البخارى ومسلم عن عائشة^(١)، وكذلك حديث أسماء، قالت: قلت يا رسول الله مالى مال إلا ما أدخله على الزبير، أفأتصدق؟ قال: تصدقى ولا توعى فيوعى عليك» رواه مسلم^(٢) وفي رواية «أرضخى - تصدقى - ما استطعت، ولا توعى فيوعى الله عليك»^(٣). قال النووى فى شرح صحيح مسلم^(٤) ما ملخصه: لا بد من إذن الزوج، وإلا فلا أجر لها وعليها الوزر. والإذن إما صريح أو مفهوم من العرف والعادة كإعطاء السائل كسرة ونحوها مما جرت العادة به واطرد العرف فيه، وعلم بالعرف رضاه لاطراد العرف، وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس فى السماح بذلك والرضا به، فإن اضطرب العرف وشك فى رضاه، أو كان شخصاً يشح بذلك وعلم من حاله أو شك فيه لم يجز للمرأة وغيرها التصدق من ماله إلا بصريح إذنه، ثم قال النووى^(٥): واعلم أن هذا كله مفروض فى قدر يسير يعلم رضا المالك به فى العادة، فإن زاد على المتعارف لم يجز، وهذا معنى قوله ﷺ «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة...» ثم قال: ونبه بالطعام أيضاً على ذلك، لأنه يسمح به فى العادة، بخلاف الدراهم والدينير فى حق أكثر الناس وفى كثير من الأحوال.

ومما جاء من النصوص فى وجوب الإذن عند تصدقها من مال زوجها قوله ﷺ «لا تصم المرأة وبعلمها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته وهو شاهد إلا بإذنه، وما أنفقت من كسبه من غير أمره فإن نصف أجره له» رواه مسلم عن أبى

(١) الترغيب، ج ١، ص ٢٥٨، مسلم، ج ٧، ص ١١١.

(٢) ج ٧، ص ١١٨، ١١٩. (٣) المصدر السابق والترغيب ج ١، ص ٢٥٨.

(٤) ج ٧، ص ١١١. (٥) ج ٧، ص ١١٣.

هريرة^(١). ويجمع بين الأحاديث التي تذكر الأجر كاملاً والتي تذكر نصف الأجر، بأن إنفاقها مع إذنه يتحقق به الأجر كاملاً، وإنفاقها بغير إذنه يستحق به نصف الأجر، بشرط ألا يكون فقيراً أو بخيلاً، وإلا فإنفاقها بغير إذنه حرام، لأن مثل هذا لا يوافق على التصديق، بخلاف ميسور الحال الكريم النفس. وهنا يقال لها نصف الأجر إذا لم ياذن، ولها الأجر كاملاً إن أذن، كما قاله في «سبل السلام»^(٢).

وقيل في هذه الأحاديث: يجوز بغير إذنه أن تأكل وتتصدق من الطعام الرطب، بمعنى ما يفسد لو ترك، وورد فيه حديث: قالت امرأة: يا رسول الله، إنا كل على آباءنا وأبنائنا وأزواجنا، فما يحل لنا من أموالهم؟ قال «الرطب تأكلنه وتهدينه» رواه أبو داود عن سعد، وهو رجل من الأنصار غير سعد بن أبي وقاص، وورد مثله عن أبي داود والطيالسي والبيهقي من حديث ابن عمر^(٣).

فإذا كان التصديق، وهو بر وخير، لا يسمح به للمرأة بغير إذن زوجها، على ما تقدم بيانه، فإن إعطاء شيء من ماله إلى أقاربها أو أصدقائها أو أية جهة ليس إلا عطاء لها برأ غير جائز. ومثله عمل وليمة أو تقديم هدايا من ماله بغير إذنه. وكثيراً ما دخلت الشكوك في قلوب الأزواج من مثل هذه التصرفات. والتنبيه لها واجب حتى لا تفسد الحياة الزوجية. ومن أجل هذا مدحوا المرأة البخيلة للزواج منها حتى لا تتصرف في مال الزوج بصدقة أو غيرها. يقول على كرم الله وجهه: شر خصال الرجال خير خصال النساء، البخل والزهو والجبن، فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت ما لها ومال زوجها، وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب، وإذا كانت جبانة فرقت - خافت - من كل شيء فلم تخرج من بيتها، واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها^(٤).

(ب) وعدم الإسراف يصور بصور، منها:

١- عدم إرهاق الزوج بطلب الكماليات التي تؤثر على الميزانية تأثيراً سيئاً، والاهتمام بما هو أهم من الأمور، وسواء في ذلك ما يتصل بالمأكل والملبس

(١) ج ٧، ص ١١٥.
(٢) ج ٢، ص ١٤٢.
(٣) العراقي على الإحياء، ج ٢، ص ٥٤.
(٤) الإحياء، ج ٢، ص ٣٥.

والأثاث وما إلى ذلك، والحذر من تقليد الغير فى الكماليات، فإنها تؤدى إلى الاستدانة أو الاختلاس إن استجاب الزوج إلى ما تطلبه الزوجة، وإلا تغير قلبها وكان له أثره السيء فى حياتهما، وكما قلت من قبل: يجب أن ننظر فى مثل هذه الأمور إلى من هو دوننا وأقل منا، ولا ننظر إلى من هو فوقنا، والكماليات لا حدود لها، وهل تفى الواردات المحدودة، بمطالب غير محدودة؟ إن الكماليات التى تصر الزوجة على اقتنائها تُعدُّ سرقة مقنعة، ولها فى الحصول عليها أساليبها الفعالة، يقول المثل الحكيم: إن المرأة مخلوق عجيب، تطلب الفراء زاعمة أنه يقيها البرد، مع أنها تخرج فى جورب شفاف وحذاء مكشوف.

ويذم الإسراف أكثر فى اقتناء الخلى، لتأثيره البالغ على الاقتصاد العام للدولة، فهو مال مجمد غير سائل، وتنوع «المودات» فى هذه الأمور يصيب المرأة بسعار المبادرة فى الحصول عليها حتى تكون سابقة لغيرها فى مضمار التمدن الذى يملأ دماغها، وهذا المسلك هدد كثيراً من الأسر بالإفلاس.

٢- محاولة الزوجة فى إعداد الطعام أن تجعله كافياً لا زيادة فيه كما ولا كيفاً، فإن الإكثار منه إما ضار بالصحة إن أكل، وإما صائر إلى الفساد إن ترك دون حفظ وزاد على الحاجة، وهو لاشك خسارة كان ينبغى أن يعمل حسابها.

٣- إتقان بعض الأعمال المنزلية الخفيفة، التى توفر أجرها إذا عهد بها إلى غيرها، مثل كى الملابس وحياتها وزخرفة البيت، وعدم استنكافها من ذلك، وحرصها على تكليف غيرها بأدائها كصورة من حب الظهور أمر يكسر الظهور كما يقولون، ومن هنا ندرك قيمة الوصية العربية: اصحبيه بالقناعة. وقد تطلع نساء النبى ﷺ إلى إمتاعهن كما تتمتع نساء كسرى، فغضب منهن وخيرهن بين المقام معه على ذلك وتطليقهن ليتمتعن كما يشأن، فاخترنه، وبين لهن أن المرأة المثالية - وهذا ما يجب أن يكون عليه زوجات الرسول - يجب أن ترتفع بفكرها وهمها عن مثل هذه المظاهر الفانية، ولفت نظرهن إلى الطاعة فهى الباقيات الصالحات. وسلك مثل هذا المسلك مع ابنته فاطمة حين لم يجب طلبها

وهو الخادم، وقد بسطنا ذلك في بحث الحجاب وصلته بنساء النبي ﷺ، وفي بحث تعدد الزوجات، وبحوث أخرى في هذه الموسوعة.

(ج) وأما تنمية مال الزوج فيتحقق بأمور، منها:

١- العمل على توفيره بكل ما يمكن، وذلك بتجنب ضياعه والإسراف فيه، وبإتقان أعمال توفر مصاريف كثيرة، فكل ذلك تنمية للمال.

٢- وجوب معونة الزوج عند الحاجة، على ما رآه بعض الفقهاء، استناداً لحديث زينب الثقفية مع زوجها عبد الله بن مسعود كما تقدم ذكره.

٣- مزاولة أعمال داخل البيت كالخياطة، أو خارجه عند الحاجة، على ما سبق تفصيله في مبحث الحجاب، وهذا المال المكتسب من جهدها يعتبر ملكاً خاصاً لها، لا يتحتم عليها أن تضمه إلى ميزانية الأسرة، ما لم يكن هناك اتفاق فينفذ، أو عرف قائم فيرجع إليه، وسعادة الحياة الزوجية تقتضى أن تسهم الزوجة بمالها الخاص في تحقيقها، وكأن ذلك الإسهام تعويض عن الوقت الذي أخذته الزوجة من وقت رعاية المنزل، لصرفه في عملها الخاص، وبخاصة إذا كانت تزاوله خارج المنزل كالعاملات في دور الحكومة أو القطاعات العامة أو الخاصة.

وهذا المال الخاص أجاز الفقهاء لها أن تتصرف فيه كما تشاء، سواء فيما يعود على الأسرة بالخير، أو في غير ذلك، فلها أن تساعد أقاربها به أو تتصدق منه أو تتاجر فيه أو تكون جمعيات تعاونية مع غيرها بالصورة المعهودة للنساء، أو لغير ذلك، ما دام هذا التصرف مشروعاً.

غير أن هناك رأياً يقول: إن الزوجة لا تتصرف في ملكها الخاص إلا بإذن زوجها، سواء في القليل منه أو الكثير، وفي رأى أن تصرفها بغير إذنه لا يجوز إلا فيما دون الثلث. وقد استند الرأى الأول إلى حديث «لا يجوز للمرأة أمر في مالها إذا ملك زوجها عصمتها» رواه أحمد وأصحاب السنن إلا الترمذى، وصححه الحاكم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وهذا الرأى شبيهه بوضع المرأة الفرنسية في التصرفات المالية، كما تنص عليه المادة «٢١٧» من القانون المدنى،

وقد سبق ذكره عند الكلام على محافظة الزوج على مال زوجته، وكما في كتاب «المرأة في قانون حمورابي وموسى، ص ٩١» وهو موافق للقانون الموسوي القديم الموضوع منذ خمسة عشر قرناً، كما في سفر العدد «انظر الكتاب السابق، ص ٨٩». وقال الإمام مالك بالرأى الثانى، والمعتمد، وهو مذهب الجمهور والشافعى، إطلاق جواز تصرفها فى مالها الخاص. ودليله أن النبى ﷺ لما حث النساء على التصدق ألقين بالخواتم والحلى فى حجر بلال، ولم يسألهن النبى ﷺ: هل استأذن أزواجهن فى ذلك أم لا، وهل هو خارج عن الثلث أم لا، ولو اختلف الحكم بذلك لسأل. وقد أشار القاضى عياض إلى الجواب عن الرايين الأولين بأن الغالب حضور أزواجهن، فتركهم الإنكار يكون رضاء بفعلهن، قال النووى: وهذا الجواب ضعيف أو باطل، لأنهن كن معترلات لا يعلم الرجال: من المتصدقة منهن من غيرها، ولا قدر ما يتصدق به، ولو علموا فسكوتهم ليس إذناً.

ويدل للجمهور أن زينب بنت جحش أم المؤمنين كانت صناع اليمين، تدبغ وتخرز، وتتصدق بما تكسبه كله على المساكين، كما رواه ابن سعد عن أم سلمة. وأخبر عنها النبى ﷺ بأنها أطول زوجاته يداً، وذلك من أجل كثرة تصدقها، فهل كانت تستأذن النبى ﷺ فى ذلك مع الإخبار بأنها كانت تتصدق بكسبها كله؟ وقد أعطاهما عمر رضى الله عنه عطاءها، وهو اثنا عشر ألفاً، فلم تقم من مكانها حتى فرقته كله.

ومن الخير أن تطلع الزوجة زوجها على خطواتها المالية الخاصة حتى لا يشك فى تصرفاتها نحو ماله هو.

* * *

الفصل الخامس

تربية الأولاد

تربية الأولاد جسماً وعقلاً وخلقاً واجبة على الأبوين، كما فصلت ذلك في الجزء الخاص برعاية النشء، والأم مسئولة كالأب تماماً عن هذا الواجب، وسواء أكان تدبير المال اللازم للتربية هو على الأب فقط أم على الأب والأم جميعاً، فإن الأم مسئولة عن تدبير نفقة الطفل ولو بالرأى والمشورة، ودليل ذلك سؤال هند للنبي ﷺ عن عدم كفاية ما يعطيه أبو سفيان لها للإنفاق عليها وعلى ولدها، فسؤالها عن بنيتها أمانة مسئوليتها عنهم.

على أن الطبيعة تقضى بعطف الأم على أولادها بأية وسيلة من وسائل العطف - أما إذا كان الأولاد هم أولاد الزوج من غيرها فإن رعايتهم تكون من ضمن المعاشرة للزوج بالمعروف. وقد علق النووي على حديث هند الذي رواه مسلم بقوله^(١): ومنها أن للمرأة مدخلاً في كفالة أولادها والإنفاق عليهم من مال أبيهم. قال أصحابنا: إذا امتنع الأب من الإنفاق على الولد الصغير أو كان غائباً أذن القاضى لأمه في الأخذ من مال الأب أو الاستقراض عليه والإنفاق على الصغير، بشرط أهليتها. وهل لها الاستقلال بالأخذ من ماله بغير إذن القاضى؟ فيه وجهان مبنيان على وجهين لأصحابنا في إذن النبي ﷺ لهند امرأة أبي سفيان كان إفتاء أم قضاء. والأصح أنه كان إفتاء، وأن هذا يجرى في كل مسيك وشحيح. وقد ضبط اللفظ بفتح الميم وتخفيف السين، أو بكسر الميم وتشديد السين، والأشهر هو الثاني في روايات المحدثين، والأول أصح عند أهل اللغة، وهي جميعاً للمبالغة.

(١) ج ١٢، ص ٨، ٩.

وقد ذكرت في كتاب رعاية النشء أهمية دور المرأة في تربية الأولاد، وخطره على الأسرة والمجتمع كله. بدعوة الأجنبي لتعليم المرأة في مدارسهم لتكون أما في المستقبل تربي أولادها على شاكلتها^(١).

وأثرها على أولادها يتعدى مرحلة الطفولة، ولا يخفى موقف أسماء بنت أبي بكر من ولدها عبد الله بن الزبير وهي تشجعه ليثبت أمام الحجاج، وقد قالت له: عش كريماً ومِت كريماً، ولما قال لها: أخاف أن يمثلوا بي، قالت له: وما يضر الشاة سلخها بعد ذبحها، وحديثها مع الحجاج موجود في كتاب رعاية النشء، وكذلك موقف الخنساء وهي تشجع بنيتها على خوض معركة القادسية، ومن قولها لهم: يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار القانية، يقول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطربت لظي على سياقها - اشتعلت ناراً على سيرها ومجراها - وجلت ناراً على أرواقها - عظمت ناراً على خيولها الممتدة المسنة. وفي النهاية لابن الأثير: الروق والرواق ما بين يدي البيت، وقيل: رواق البيت سماوته، وهي الشقة التي تكون دون العليا، وقيل، الفسطاط والقبة وموضع الجلوس. وفيها أن الروق يراد به القرن، وفي بعض الأساليب يراد به الحرب الشديدة والداهية - فتمموا وطيسها - أخطر مكان وأحره فيها - وجالدوا رئيسها - وفي رواية رسيها، والرسيس أول الحمى - مختار الصحاح - عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة. فخرج بنوها قابلين لنصحها، فقاتلوا وهم يرتجزون، قال أحدهم:

(١) انظر كتاب الحجاب.

يا إخوتى إن العجوز الناصحة
مقالة ذات بيان واضحة
وإنما تلقون عند الصائحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة
أو ميتة تورث غنماً رابحة
وقال الثانى :

إن العجوز ذات حزم وجَلَد
قد أمرتنا بالسداد والرشد
فباكروا الحرب حماة فى العدد
أو ميتة تورثكم عز الأبد
وقال الثالث :

والله لا نعصى العجوز حرفاً
نصحا وبرا صادقاً ولطفاً
حتى تلفوا آل كسرى لفا
إننا نرى التقصير منكم ضعفاً
وقال الرابع :

لست للخنساء ولا للأخرم
إن لم أره فى الجيش الأعجم
إما لفوز عاجل ومغنم
ولا لعمرى ذى السناء الأقدم
ماض على الهول خضم خضم
أو لوفاة فى السبيل الأكرم

ولما استشهدوا جميعاً قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو أن يلحقنى الله بهم فى مستقر رحمته . وكلمة الجيش فى قول الرابع رويت خُتْسُ، كما فى أسد الغابة، ج ٥، ص ٢٤٢، جمع خُنُوس وهو الفرس المتقهقر، وقيل هى النبل المتوية كما فى لسان العرب .

هذه صورة من صور أثر الأم فى تربية الأولاد، ودورها يفوق دور الأب

خصوصاً في أيام الطفولة الأولى، لكثرة ملازمتها لهم وشدة حنوها عليهم وتعلقهم بها، وما تتمتع به من استعدادات كالصبر والتحمل، ولهذا جعل الله ثوابها كبيراً إزاء المتاعب التي تعانيها في أداء هذا الواجب. روى الطبراني وابن عساكر والحسن بن سفيان عن سلامة حاضنة إبراهيم بن الرسول عليه الصلاة والسلام: أما ترضى إحدانك أنها إذا كانت حاملاً من زوجها وهو عنها راض أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله، فإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفى لها من قرة أعين، فإذا وضعت لم يخرج من لبنها جرعة ولم يمص من ثديها مصة إلا كان لها بكل جرعة وبكل مصة حسنة، فإن أسهرها ليلة كان لها مثل أجر سبعين رقية تعتقهم في سبيل الله^(١). ولم أر حكماً على هذا الحديث، والقرآن كاف في بيان ما تعانيه الأم من الوهن في الحمل والأمر بالإحسان إليها، وهو مفصل في بحث بر الوالدين.

ومما جاء في ذلك أيضاً: عن عمر أو ابن عمر، مرفوعاً إلى النبي ﷺ «إن للمرأة في حملها إلى وضعها إلى فصالها من الأجر كالمشحط في سبيل الله، فإن هلكت فيما بين ذلك فلها أجر شهيد» لعبد بن حميد، وإسناده حسن، ولم يتكلم البوصيري على إسناده. وفي مسند أبي يعلى عن ابن عباس عن النبي ﷺ «إن المسلمة إذا حملت لها أجر القائم الصائم المحرم المجاهد في سبيل الله، فإذا وضعت فإن لها في أول رضعة أجر حياة نسمة». يقول البوصيري معلقاً عليه: هذا المتن وما قبله ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك، وقال: لا أصل لهذا الحديث. قلت- أي البوصيري- سند أبي يعلى: حدثنا وهب- وهو ابن بقرية- حدثنا خالد عن حسين (كذا) عن عكرمة عن ابن عباس^(٢).

إن الولد في يد الأم كالعجينة تشكل منه ما تشاء، فكل مولود يولد على الفطرة، وأبواه هما اللذان يميلانه نحو أي دين من الأديان كما جاء بذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة. والأم تستطيع أن تخلق بحسن توجيهها مع العوامل الأخرى، من الطفل شجاعاً بطلاً ومواطناً صالحاً

(١) مرآة النساء فيما حسن منهن وساء، ص ١٩. (٢) المطالب العالية، ج ٢، ص ٨٤.

وعضواً نافعاً في المجتمع، وقد أشاد بذلك الكتاب والفلاسفة. فهي إلى جانب تغذية الولد باللبن ووراثته لصفات الأبوين تنعكس فيه صورة أبيه وأمه في الأخلاق والسلوك، وصورتها ألصق وأشد تأثيراً فيه، فعليها أن تتبع القواعد الصحيحة في رعايته، حتى عندما ترقّصه نختار كلمات طيبة صادقة تنطبع في ذهنه معانيها فيتصرف على أساسها في المستقبل. فإن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، والمرأة المتعلمة لها وزنها في هذا المجال، وكذلك المتدينة التي تهتم أكثر ما تهتم بالعقيدة والسلوك.

والمرأة العربية كانت تعنى بتربية أولادها على الأخلاق الكريمة من الشجاعة والمروءة والأمانة وما إليها مما تتطلبه الحياة العربية، وقد ذكرت في بحث رعاية النشء قول فاطمة بنت الخرشب في تربية أولادها في أيام الطفولة الأولى. وأزيد هنا وصية أعرابية لولدها عند سفره، التي رواها أبان بن تغلب - وهو عابد من البصرة يروى عنه الأصمعي كثيراً من أخبار الأعراب.

أى بنى، اجلس أمنحك وصيتي، وبالله توفيقك، أى بنى، إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام. وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كَلَمَّتْهُ حتى يهيبىء ما اشتد من قوته، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك، وإذا هزرت فاهزز كرىماً يَلِنُ لهزتك، ولا تهزز اللعيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها، ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه. ومن كانت مودته لشره وخالف ذلك منه فعلة كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها^(١).

ولمثل عناية المرأة العربية بأولادها جاء قول النبي ﷺ في مدح نساء قريش بأنهن أحناه على طفل، كما رواه مسلم، وأحيلك أيها القارئ على كتابنا: الإسلام ورعاية النشء» وهو الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

* * *

(١) معراج البيان، ص ٥٣.

الفصل السادس

الوفاء

تحدثت في الباب الأول عند حقوق الزوجة على زوجها عن الوفاء، وبينت أنه لازمة من لوازم الحب والتقدير لقيمة الأسرة، وعامل مهم لإنتاجها وأداء رسالتها على الوجه الأكمل. والوفاء أيضاً واجب على الزوجة لزوجها، وضرورة تقتضيها الشركة القائمة بينهما، وأساس الوفاء بين الاثنين، كما قلت، هو الحب الذى إذا كان فى صورته النقية الخالصة كان الوفاء أقرب إلى التحقيق وأدنى للقوة والبقاء. وإذا فترت حرارة الحب نوعاً ونزلت إلى درجة الصداقة كان الوفاء أيضاً فضيلة يحتمها واجب الصداقة، وهو هنا فى الحياة الزوجية تدعو إليه عوامل كثيرة ربما لا تتوافر فى أية علاقة أخرى. ذلك أن العشرة الزوجية بعماملها المادية والأدبية تخط فى الأعصاب أحاسيس ليس من السهل إزالتها أو التأثير عليها بقوة، فالزوجان روح واحدة فى جسدين، إن قامت هذه الصلة على المعانى الكريمة والمثل العليا، ولعل مما يشهد لذلك ما روته كتب السيرة أن النبى ﷺ لما رجع إلى المدينة من «أحد» لقيته حمنة بنت جحش، فلما نعى إليها أخوها عبد الله استرجعت واستغفرت، وكذلك فعلت لما نعى إليها خالها حمزة بن عبد المطلب، وعندما نعى إليها زوجها مصعب بن عمير صاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ «إن زوج المرأة منها لمكان» وذلك لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها^(١).

والزوجة إذا وفّت لزوجها أخلصت له ولبيته وولده وكل ما يتصل به، وقدمت هواه على هواها، واجتهدت فى عمل كل ما يدخل السرور على قلبه

(١) نبى البر، ص ٨٤.

ويجلب رضاه عليها، وتفادت كل ما يجرح شعوره أو يحط من كرامته أو يمسه بأى سوء.

وميزة الوفاء فى العشرة الزوجية أنه لا يقف بواجباتها وحقوقها عند الرسميات أو الحد الأدنى، بل يسمو بها إلى التمام والكمال، وصور الوفاء كثيرة منها:

١- الإحساس بجميله عليها، وعدم التنكر لأى شىء يقدم لها منه مهما كانت الظروف التى تحمل على تناسى الخير، وهو نابع من الإحساس بعظم حق الزوج عليها، لدرجة جعلت الرسول ﷺ يقول فيه كما تقدم «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». كما رواه الترمذى وحسنه عن أبى هريرة، ويقول لمن سألت عن حق الزوج «لو كان من فرقه إلى قدمه دمياً فله حسته لم تؤد حقه» رواه الحاكم وصححه عن أبى هريرة، وجعلت أم هانئ تجرم عن الزواج كما تقدم ذكره.

والمعروف الذى يصل إليها من الرجل كبير، فهو حاميتها وراعيتها والمنفق عليها والموفر لها كل متعة والمتحمل عنها متاعب الحياة، غير أن المرأة أحياناً، وخصوصاً عند ثورة غضبها، تنسى كل ذلك وتكفره، وتدعى أنه لم يحسن إليها، بل تزيد على ذلك فتذكر المآسى التى تحملتها منه، وتبالغ حتى يُظن أنها فقدت عقلها أو إنسانيتها، وهذا طبع يغلب على المرأة لا ينجو منه إلا القليل، وهو ذو أثر سيئ فى العلاقة الزوجية، فليس أصعب على نفس الإنسان من أن تكفر نعمته، ويضيع جهده، ويستبدل به اتهامات وآلاماً، ومن هنا أوصى الإسلام المرأة بعدم كفران العشير ما يأتى إليها منه من جميل. يقول النبى ﷺ وهو يعظ النساء ويذكرهن يوم العيد «تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم» فقامت امرأة من سطة النساء- جالسة فى وسطهن- سفعاء الخدين- فيهما تغير وسواد- فقالت: لم يا رسول الله؟ قال «لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير»

رواه مسلم عن جابر^(١). وفي رواية ابن عباس « ورأيت النار فلم أر كالיום منظرًا قط، ورأيت أكثر أهلها النساء » قالوا: بم يا رسول الله؟ قال « بكفرهن » قيل: أيكفرن بالله؟ قال « بكفر العشير وبكفر الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأيت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط » رواه مسلم في باب صلاة الكسوف^(٢) وفي رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة: ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال « تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى لب منكن » قالت: يا رسول الله: وما نقصان العقل والدين؟ قال « أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلى، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين »^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضی الله عنهما عن النبي ﷺ « لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغنى عنه » رواه النسائي والبخاري بإسناد حسن، رواية أحدهما رواية الصحيح، والحاكم وقال: صحيح الإسناد^(٤)، وروى أن النبي ﷺ قال « إذا قالت المرأة لزوجها: ما رأيت منك خيراً قط فقد حبط عملها » رواه ابن عدی وابن عساکر عن عائشة بسند ضعيف .

٢- معونته على الخير، وأقصد بالمعونة هنا، وإن كانت حياتها كلها في البيت معونة، مساعدته على أموره الخاصة، كمساعدته على طلب العلم والاستزادة منه، أو على العبادة أو على الكسب أو على أى مشروع نافع آخر، فهو بالتالى يعود عليها بالخير. يقول النبي ﷺ « رحم الله رجلاً قام فى الليل يصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح فى وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت فى الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، والحاكم وصححه عن

(١) ج ٦، ص ١٧٥.

(٢) ج ٦، ص ٢١٣.

(٣) مسلم، ج ٢، ص ٦٦.

(٤) الترغيب، ج ٣، ص ١٢.

أبى هريرة^(١). وروى الترمذى وابن ماجه عن ثوبان قال: لما نزلت «والذين يكنزون الذهب والفضة...» قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، فقال بعض الصحابة: أنزلت فى الذهب والفضة، فلو علمنا أى المال خير فنتخذه؟ فقال ﷺ «لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه».

والمعونة كما تكون بالمال تكون بالجهد وبالرأى وبأية وسيلة من الوسائل، وهى بهذه المعونة تدل على عدم أنانيتها، وترى فى تمكينه من تحصيل ما يفيد خيراً لها. ولو كان فيه انصراف عنها غير مقصود، إذا شغل وقتاً كبيراً فى هذا الخير. وليس جهد الزوج قاصراً على إنفاق وقته كله معها، فإن وراء عمله الذى يدر الخير عليه، ويعينه على أداء مطالب الزوجية، والزوجة هى أقرب من يلجأ إليه الإنسان لطلب عونه، لشعوره بأن إحساسها معه وقلبيها معه كذلك.

وقد كان نساء النبى ﷺ خير معين له على أداء واجبه الضخم فى تبليغ الرسالة والجهاد والقيام على مصالح المسلمين، مؤثرات الأهم على المهم. وقد سبق لك بيان معونة خديجة له بالرأى يوم جاءه الوحى، وبمالها الذى تاجر فيه وواجه به أعباء الحياة الزوجية، كما مرت مساعدة رابعة بنت إسماعيل لزوجها على الطاعة وحسن عشرته لزوجاته^(٢) وكانت المرأة من السلف الصالح توصى زوجها بكسب الحلال، وتقول له: إننا نصبر على الجوع. ولا نصبر على حر النار^(٣). ولم تفعل كما يفعل غيرها من دفعه إلى الكسب بأية وسيلة كانت، لتستمتع هى ولا يههما بعد ذلك ما يجره من متاعب، وشجعت نساء الصحابة أزواجهن على القتال والنضال فى سبيل تثبيت أركان الدولة الإسلامية ونشر هداية الدين، غير عابئات بما فيه من مخاطرة تورث المتاعب والآلام لها ولأولادها، وقاسمنهم متاعب الحياة.

ومن خير الأمثلة على ذلك موقف زوجتى أبى خيثمة منه وهو قادم من السفر عليهما، وكان رسول الله ﷺ قد خرج من المدينة إلى «تبوك» فأبى أن

(١) الترغيب، ج ١، ص ٦٧، ورياض الصالحين، ص ٤٥٠، ونيل الأوطار ج ٣، ص ١٥٢.

(٢، ٣) الإحياء، ج ٢، ص ٥٣.

ينزل ويستريح ويترك رسول الله ﷺ في الجهاد، فوافقت زوجته على رأيه وهما المشوقتان للقاءه بعد غيابه، وزودتاه بأطيب زاد حتى لحق برسول الله ﷺ. والخبر طريف مذکور في كتب السيرة^(١) وقد رواه ابن اسحاق وأخرجه الطبراني كما في معجم الزوائد «ج ٦، ص ١٩٢» عن سعد بن خيثمة، وقال الهيثمي «ج ٦، ص ١٩٣»: وفيه يعقوب بن محمد الزهري، وهو ضعيف^(٢).

ومن خير الأمثلة على ذلك خبر أم الدحداح التي شجعت زوجها على التصدق بالبستان، على الرغم من حاجتهم إليه، ولطرفة خبرها أسوقه كما ذكره القرطبي في تفسيره^(٣): عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح: يا رسول الله، أو إن الله تعالى يريد منا القرض؟ قال «نعم يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك، فناوله، قال: فإني أقرضت الله حائطاً فيه ستمائة نخلة، ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح وعياله فيه، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي، قد أقرضت ربي عز وجل حائطاً فيه ستمائة نخلة، وفي رواية زيد بن أسلم أن أبا الدحداح عندما سمع هذه الآية أراد أن يتصدق بالحديقتين اللتين لا يملك غيرهما، فأمره رسول الله ﷺ أن يجعل إحداهما لله والأخرى له ولأولاده، فجعل خيرهما لله، فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول:

هداك ربي سبل الرشاد	إلى سبيل الخير والرشاد
بينى من الحائط بالأولاد	فقد مضى قرضا إلى التناد
أقرضته لله على اعتمادي	بالطوع لا من ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف في المعاد	فارتحلى بالنفس والأولاد
والبر لا شك فخير زاد	قدمه المرء إلى المعاد

(٢) حياة الصحابة ج ١، ص ٤٤٣.

(١) زاد المعاد، ج ٣، ص ٣.

(٣) ج ٣، ص ٢٣٧.

قالت أم الدحداح: ربح بيعك، بارك الله لك فيما اشتريت، ثم أجابته أم الدحداح بقولها:

بشرك الله بخير وفرح مثلك أذى ما لديه ونصح
قد متع الله عيالي ومنح بالعجوة السوداء والزهو البلح
والعبد يسعى وله ما قد كدح طول الليالي وعليه ما اجترح

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما فى أفواههم، وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال النبي ﷺ « كم من عذق - النخلة أو العرجون - رداح - أى ثقيلة، ودار فياح - واسعة - لأبى الدحداح » وقد تقدم أن زوجة أحد الصالحين أذنت له فى الحج، ولما سئلت: لم تأذنين له؟ قالت: اخترته زوجاً لا رازقاً، وقد غاب الزوج وبقي الرازق. فهياً الله لها من ساعدها هى وأولادها^(١).

إننا لا ننسى أبداً فى هذا المقام موقف هاجر من إبراهيم عليه السلام وهو يتركها مع ولدها إسماعيل فى مكان قفر، حين تعلقت به وسألته: إلى من يتركهما، وهل أمره الله بهذا؟ فلما أخبرها أن ذلك أمر الله قالت: إذا لا يضيعنا الله. إن هذه الزوجة الوفية لم تخرج على أمر زوجها ما دام ذلك تنفيذاً لأمر ربه، ووثقت أن هذا التدبير وراءه حكمة، فالله لا يضيع من وثق به، وكانت النهاية بركة فى المكان وتخليداً لذكرى ترددها بين الصفا والمروة ونبع زمزم والعكوف على البيت، كان ذلك كله بالحج والعمرة اللذين لا ينقطعان على مدى العام.

ومن المعونة المادية مساعدة زينب الثقفية لزوجها عبد الله بن مسعود كما تقدم، وقد قال بعض الفقهاء: إن الرجل إذا أعسر وكانت زوجته غنية وجب عليها أن تنفق عليه، استناداً لهذا الحديث، والحق أن الزوجة بحكم صلتها القوية بزوجها تستطيع أن تدفعه إلى الخير وتعاونه على كل جميل. ومن هنا قالوا: وراء كل بطل امرأة. والله در من قال:

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٥٣.

وزوجة المرء عون يستعين بها
 مسلاة فكرته إن بات في كدر
 في الحزن فرحته، تحنو فتجعله
 كم زوجة ذات عقل غير مسرفة
 تعامل الزوج في أحوال عسرتة
 والزوج يدأب في تحصيل عيشتة
 إن عاد للبيت يلقي ثغر زوجته
 هذى القرينة هذى من تحس لها
 على الحياة ونور في دياجيتها
 مدّت له لتواسيه أياديتها
 ينسى بذلك آلاماً يعانيتها
 تدبر الدار تدبيراً ينجسها
 وفي اليسار بما في النفس يشفيها
 دأباً ويجهد منه النفس يشقيها
 يفتقر عما يسر النفس يحييها
 نفس الأبى ولكن أين نلفيها

ومن الوفاء ما هو موجود في إحدى الجزر الصغيرة من جزر الهند الغربية، فعندما تكبر الفتاة تبدأ في إدخار مصروفها، وتعهده لا لتهدية به نفسها للزوج، بل لأمر آخر، فهي تخبئه في مكان في بيت الزوجية لا يعلم به أحد، حتى إذا كبر سن الزوج أو عجز عن العمل سألته: ماذا تتمنى؟ فتحقق له أمنيته بشراء أرض وقطيع غنم... وتعطيه هدية، مكافأة له على عسرتها السابقة^(١).

٣- ومن الوفاء، تخليص زوجها من ورطة يقع فيها، وتقديم أعز ما تملك لتدخل السرور على قلبه، وتزيح عنه همه، ومن أحسن الأمثلة على ذلك زينب بنت النبي ﷺ، فقد ذكرت كتب السيرة أنها كانت زوجة لابن خالتها وهو أبو العاص بن الربيع، ولم تستطيع أن تهاجر من مكة مع أبيها، وبقيت عند زوجها وهو مشرك، حتى وقع أسيراً في غزوة بدر، فأرسلت زينب لفدائه، وكان في الفداء قلادة كانت قد دخلت بها عليه عند الزفاف، فلما رآها النبي ﷺ رَقَّ لها رقعة شديدة، وقال «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا» فقالوا: نعم، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها، وشرط عليه أن يخلي سبيل زينب، فهاجرت إليه، ثم أسلم بعد ذلك ولحق بها.

(١) الأهرام، ٣١/٨/١٩٦١.

إن زينب كانت تقدر زوجها على الرغم من شركه، لأنه وقف منها موقفاً طيباً حينما أغراه الناس أن يطلقها، لأنها تبعت قول أبيها وآمنت به، ولكنه قدّر أولاً قربتها منه، وثانياً حسن خلقها معه وطيب عشرتها له. فكان النبي ﷺ يثنى عليه بسبب هذا الموقف، على خلاف ما فعله عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب، اللذان فارقا رقية وأم كلثوم.

وقد حدث أن استولت سرية زيد بن حارثة في العيص على تجارة كانت مع أبي العاص، فدخل المدينة سراً واستجار بزينب، فأجارته، واحترم النبي ﷺ جوارها، واستشار المسلمين في رد ما أخذوه منه، فوافقوا، وأكرمته زينب أيما إكرام من غير أن يمسه، وذلك رعاية للعشرة الأولى. وبعد أن رد الأمانات إلى أهلها في مكة أسلم، وهاجر إلى المدينة.

ومن أمثلة الوفاء عند غير المسلمين أن «اليانورا» بنت ملك أسبانيا تزوجها ادوارد ابن هنرى الثالث ملك إنجلترا، لضمان حسن الجوار وعدم التعدي بين الدولتين، وكان سنهما تسع سنوات، فذهب إليها زوجها ونقلها إلى فرنسا لتكمل تعليمها لمدة تسع سنوات، ولما طعن هو في بعض الحروب بخنجر مسموم امتصت دمه المسموم، فنجوا من الموت، ومكثت تمرضه خمسة عشر يوماً وهى تقارب الوضع، وسافرت معه لحرب اسكتلندا حيث مات من أثر البرد.

٤- ومن الوفاء، مبادلتة الحب، وتقديره واحترامه حتى لو رأت أنه يقصر فى واجباته نحوها طوعاً أو كرهاً، بل قد تتنازل عن حقوقها نحوه، راضية بحبه والعيش تحت كنفه أو التشرف بالانتساب إليه. وقد مر بك فى بحث إعفاف الزوجة تنازل سودة بنت زمعة زوجة الرسول ﷺ عن ليلتها لعائشة عندما كبر سنهما، وخشيت انصرافه عنها، مبررة ذلك بأنها تريد أن تحشر في زمرة أزواجه يوم القيامة، وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا...﴾

٥- ومن الوفاء قصر نظرها عليه، وعدم تعلق قلبها بغيره، وقد روت الأخبار

أن نساء كثيرات مال بهن الهوى، وكفرن بالعشرة الزوجية، وسلكن أدناً السبل للخلاص من الزوج، للوقوع في حب غيره، ذكر المفسرون عن جعفر الصادق (١) أنه قال: كان في بني إسرائيل رجل وكان له مع الله معاملة حسنة، وكانت له زوجة، وكان ضنيناً بها، وكانت من أجمل أهل زمانها، مفرطة في الجمال والحسن، وكان يغلّق عليها الباب. فهويت شاباً وهويها، فمكنته من نفسها في غيبة زوجها بفتح خاص للباب، ولما رأى زوجها تغير حالها عليه ارتاب في أمرها وطلب منها أن تقسم بالله ما رآها أحد غيره، وكان القسم عند جبل اعتادوا أن يقسموا عنده، فاتفقت مع الشاب أن يشتغل حمّاراً ويركبها إلى الجبل، ويحاول أن ينزل بها حتى تقع فتتكشف سواتها، ففعل، ثم حلفت أنه ما رآها غير هذا الشاب، فتزلزل الجبل. وهو يشير إلى قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وكما ذكرت قصص أخرى قديمة يراد بها توضيح قوله تعالى ﴿إِنْ كَيْدُكُمْ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] مذكورة في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري (٢).

يقول الزمخشري في تفسيره «الكشاف»: استعظم كيد النساء على كيد الشيطان، لأنه وإن كان في الرجال كيد إلا أن النساء أطف كيداً وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك رفق، وبذلك يغلبن الرجال، ومنه قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. والنفاثات من بينهن اللاتي لهن ما ليس لغيرهن من البوائق، ولما شك الأعرابي المازري الحرمازي إلى النبي ﷺ زوجته معاذة التي لاذت بغيره، وأنشد شعراً جاء فيه: «وهن شر غالب لمن غلب»، قال النبي ﷺ عند ذلك «وهن شر غالب لمن غلب» رواه أحمد وأبو يعلى الموصلي، وعبد الباقي بن قانع (٣). وتفصيلها مذكور في بحث الحجاب، نقلاً عن أسد الغابة.

(١) ولد في ١٧ من ربيع الأول سنة ٨٠هـ، وتوفي في ٢٥ من شوال سنة ١٤٨هـ، ودفن بالبقيع.

(٢) مادة حمّار، ض ٣١٤. (٣) حياة الحيوان الكبرى للدميري، ذئب.

وذكرت كتب التاريخ الإسلامي^(١) أن جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن بن علي رضي الله عنهما دسَّ إليها يزيد بن معاوية أن تسمه ليتزوجها، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إلى يزيد تسأله الوفاء بما وعد، فقال: إنا لم نرضك للحسن، وهو عدو له، أفنرضاك لأنفسنا؟

ولسنا في حاجة إلى ذكر وقائع تاريخية ربما لا تكون صحيحة، فبين أيدينا حوادث تنطق بإسفاف بعض الزوجات واشتراكهن فعلاً في التخلص من أزواجهن بوسائل وحشية لأسباب دنيئة، وذلك كله يتنافى مع واجب الوفاء.

ومن كثرة ما عانى الأزواج من هذه الناحية اشتدت حملتهم على المرأة، ووصفوها بالغدر والخيانة، مبالغين في ذلك إلى حد أن جعلوه كأنه صفة لازمة لها، لا يكاد ينجو منه إلا القليل من الفضليات، وقد تقدم في صدر البحث أمثلة لذلك، فارجع إليها، وإلى جانب ما ورد في هذا مما سبق، نذكر أن ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد^(٢) ذكر أن الغساني غزا الحارث بن عمرو آكل المزار الكندي، فلم يصبه في منزله، فأخذ ما وجد فيه، واستاق امرأته. فلما أصابها أعجبت به، فقالت له: انج، فوالله لكأني أنظر إليه يتبعك فاغراً فاه. كأنه بعير آكل مزار، وبلغ الحارث فأقبل يتبعه حتى لحقه فقتله، وأخذ ما كان معه، وأخذ امرأته، فقال لها: هل أصابك؟ قالت: نعم، والله ما اشتملت النساء على مثله قط، فأمر بها فأوقفت بين فرسين ثم استحضرهما - استنفرهما - حتى تقطعت، ثم قال:

كل أنثى وإن بدا لك منها آية الود حبها خيثفور

إن من غره النساء بود بعد هند لجاهل مفرور

ومعنى خيثفور لا يدوم على حال، بل يضمحل كالسراب. ويقول كثير بن عبد الرحمن:

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٢٩. (٢) ج ٣، ص ١٩٤، ٢٠٨.

تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن عليك شجى فى الصدر حين تبين
وإن هى أعطتك اللبان فإنها لآخر من خلائها ستلين
وإن حلفت: لا ينقض النأى عهدها فليس نخضوب البنان يمين^(١)

والغدر قد يحصل من الأزواج أيضاً نحو زوجاتهم، ولكنه من المرأة نحو الرجل فاحش، لأن الرجل إذا انصرف قلبه عنها أمكن أن يصل إلى غرضه بطريق حلال هو الزواج بغيرها، أما هى فلا تستطيع ذلك إلا فى الحرام، أو إذا سلكت سبلا دنيئة لتصل إليه حلالاً، بالتخلص من زوجها بالطلاق أو القتل أو بوسيلة أخرى.

٦- ومن الوفاء ثباتها على حبه عند كبر سنه، وإحسان عشرته عند مرضه أو تغيير حاله بوجه عام، وهذا متصل بما تقدم فى الفصل السابق، وهو المحافظة على شعوره، لكن فى هذا البند يظهر لنا أن عشرتها لزوجها حين صحته وشبابه كانت عشرة مادية جسدية لا روح فيها ولا عواطف ولا إخلاص، فلما انقضى ما حملها على عشرته بالخير ظهر معدنها الخبيث ونفسها الدنيئة. وهذا انصراف من المرأة عن التفكير فى مهمتها الأساسية وواجبها نحو الأسرة إلى ناحية مادية خالصة. يقول أبو دلف فيمن عابته بالمشيب:

تهزأت أن رأيت شيبى فقلت لها: لا تهزئى، من يطل عمر به يشب
شيب الرجال لهم زين ومكرمة وشيبكن لكن الويل فاكتئبى
فينا لكن وإن شيب بدا أرب وليس فيكن بعد الشيب من أرب^(٢)

وبعض النساء تأنف من أن تمرض زوجها إذا مرض، بل تتمنى له الموت لتذهب إلى غيره، ومن الأمثلة التاريخية على ذلك سليمان زوجة صخر بن عمرو ابن الشريد. ذكر ابن خلكان فى ترجمة الحسن بن عبد الله العسكرى أن صخرًا مرض وطال مرضه، وكانت أمه وزوجته سليمان تمرضانه، فسئلت زوجته يوماً عن

(١) زهر الآداب ج ١، ص ١٧، طبع الحلبي. (٢) العقد الفريد، ج ١، ص ٢٣١.

حاله، وكانت قد ضجرت منه، فقالت: لا هو حى فيرجى، ولا ميت فيبكي،
أو يُنسى، فسمعها صخر فأنشد:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمى مضجعى ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك، ومن يغتسر بالحدثان؟
لعمري لقد نهت من كان نائماً وأسمنت من كانت له أذنان
وأى امرئ ساوى بأى حليلة فلا عاش إلا فى شقاً وهوان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
فللموت خير من حياة كأنها مَعْرَسٌ يَعْسُوبُ برأس سنان

ذكرها ابن قتيبة فى عيون الأخبار^(١) والدميرى فى حياة الحيوان، مادة
يعسوب، واليعسوب طائر نحو الجرادة لا يُرى إلا واقفاً على رأس عمود أو طائراً
ومعنى البيت: الموت خير من الحياة المؤلمة التى تشبه وقوف اليعسوب على رأس
السيف. فهو وقوف مؤلم للغاية.

٧- إن الوفاء يقتضى من المرأة أن يمتد تعلقها بزوجها حتى بعد الوفاة،
ويتمثل ذلك فى عدة أمور منها:

١- الإحداد، وسيأتى الكلام عنه مفصلاً فى الفصل السابع.

٢- تنفيذ وصيته لها أو عهدتها معه، ما لم يعارض ذلك أمراً مشروعاً، ومن
أمثلة ذلك:

(أ) فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز، التى أطاعته فى رد
حليها إلى بيت المال، ولما توفى عرض عليها يزيد بن عبد الملك رد الحلى إليها
فأبت، وقالت: والله لا أطيب به نفساً فى حياته، وأرجع فيه بعد موته، وقد تقدم
ذلك.

(ب) زوجة هُدْبَةَ بن الخشم الذى قدم للقتل بحضرة مروان بن الحكم،

(١) ج٤، ص١١٨.

حيث قالت لمروان: إن لهدبة عندى وديعة، فأمهله حتى آتيك بها، فقال: أسرعى، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً من داره، فمضت إلى السوق، وأتت إلى قصاب واستعارت منه سكيناً، وفي خفية عن الأعين غطت وجهها بملحفته، وجدعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها، ثم دخلت بين الناس وقالت لهدبة: أترانى متزوجة بعدما ترى؟ فقال: الآن طابت نفسى بالموت، فجزاك الله من حليلة وفيّة خيراً^(١).

وذلك لأنه كان قد قال لها:

فلا تنكحى إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

وكان قتله للأخذ بثأر، لأنه قتل ابن عمه^(٢).

٣- تعلق قلبها به وداوم تذكره أو ذكره بالخير بعد موته، أو عمل شيء يرضيه كعدم الزواج بعده. ومن أمثلة ذلك:

(أ) شيرين، وهى من ولد خسرو كسرى أنو شروان، زوجة أبرويزبن هرمز، لما تزوجها فوض الأمر إليها، وعاهدته ألا تمكّن منها أحداً بعده، وكانت من أجمل النساء، أراد ابن زوجها من غيرها، واسمه «شيرويه» عندما قتل أباه أبرويز واستولى على ملكه، أن يتزوجها، كما تبيح شريعتهم، فأبت، فغضب عليها واغتصب أموالها، وقذفها بالفاحشة. فلما بلغها ذلك هان عليها المال، وغضبت للعرض، فأرسلت إليه تقول: إن أردت منى ذلك فاقض لى ثلاث حاجات: ردّ على ضياعى، واصعد على المنبر وتبرأ مما قذفتنى به، وأمر بفتح الناووس- اللحد- الذى فيه أبوك فإن له وديعة عندى أريد أن أردّها إليه، فأجابها لطلبها، فلما فتح الناووس احتضنت زوجها ومصت خاتمها المسموم حتى ماتت وهى معانقة له، وفاء بما عاهدته^(٣). وجاء في محاضرات الأدباء أنها طلبت إحضار الحكماء لتخطئهم فى معاونته على قتل أبيه، وأنها كانت قد عمدت إلى سم

(١) المستطرف، ج ١، ص ١٦٥. (٢) محاضرات الأدباء، ج ٢، ص ٩٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٩، ومرآة النساء، ص ٧٦.

فوضعتة في بعض الخزائن، وكتبت عليه أن مَنْ تناول منه وزن دائق أعانه على الجماع، فلما ظفر به تناوله فمات في مكانه.

(ب) الرباب بنت امرئ القيس زوجة الحسين بن علي، خطبت بعد وفاته فقالت: ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله ﷺ، وهي والدة السيدة سكينة رضی الله عنها^(١).

(ج) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلابية. وكانت نصرانية ثم تزوجها عثمان بن عفان فأسلمت. ولما توفي، وكانت تقيه بيدها من القتل، جذمت أناملها، فأرسل إليها معاوية بن أبي سفيان بعد ذلك يخطبها، فأرسلت إليه: ما ترجو من امرأة جذماء؟ وقيل: إنها قالت لما قُتل عثمان: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خشيت أن يبلى حزن عثمان من قلبي. فدعت بفهر- حجر- فهتمت فاهما، وقالت: والله لا قعد أحد مني مقعد عثمان أبداً^(٢).

[لها ترجمة في مجلة الأزهر- شوال ١٣٨٦هـ، يناير ١٩٦٧م، شعبان ١٣٩١هـ، ص ٩٥٣، وعيون الأخبار، الهامش، ج ٤، ص ٧٧، ومنبر الإسلام عدد ١٢٥، وأعلام النساء لعمر كحالة].

والفرافصة بفتح الفاء لا غير، يقول الدميري في حياة الحيوان- فرافصة: الفُرافصة- بالضم- اسم للأسد، وبالفتح اسم لرجل، وقيل: كل فرافصة في العرب فهو بالضم، إلا فرافصة أبا نائلة صهر عثمان فإنه بالفتح، وهو الذي ذكره مالك في الموطأ في أبواب الصلاة. وكان سعيد بن العاص قد تزوج أختها هنداً، فأشار على عثمان أن يتزوج نائلة، وكان أبوها نصرانياً، فزوجها أخوها «ضب» وكان مسلماً، لما رأت الثوار ينزلون من سطح منزل عثمان نشرت شعرها ليكفوا- حياء من النظر إليها- فقال لها عثمان: خذي خمارك، فلعمري لدخولهم عليّ أعظم من حرمة شعرك «أعلام النساء».

(١) أبو الشهداء للعقاد، ص ٥٤، والكتاب رقم ٤١، في سلسلة كتب ثقافية، صدر في ١٧ مارس ١٩٦٠.

(٢) العقد، ج ٣، ١٩٤.

(د) امرأة حذيفة، حبست نفسها عليه بعد وفاته لما علمت أنها ستكون زوجته في الجنة^(١).

(هـ) محبوبة وصيفة المتوكل على الله جعفر، الخليفة العباسي، لما قتل ضُمَّت إلى «بُغَا الكبير» فأمر بها يوماً للمنادمة، فجلست منكسة، فأقسم عليها أن تغنى، فغنت كارهة:

أى عيش يلذ لى لا أرى فيه جعفرا ملك قد رأيتَه فى نجيع معفرا
كل من كان ذا هيام وسقم فقد برا غير محبوبة التى لو ترى الموت يشتري
لاشترته بما حوته يداها لتقبرا إن موت الحزين أطيب من أن يعمر^(٢)
وكانت فى الأصل جارية لرجل من الطائف، علّمها وأدبها، ثم أهديت للمتوكل لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢هـ. ولما توفى سنة ٢٤٧هـ، أخذها المملوك التركى الأمير وصيف. فأرغمها على الغناء، فغنت فى رثاء المتوكل، فغضب عليها، وسجنها، فما زال أمير تركى آخر اسمه «بغا» يترضاها حتى أعتقها، فخرجت إلى «سامرا» ثم بغداد حتى ماتت سنة ٢٤٧ (٨٦١)^(٣).

(و) خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض مقابر الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر وهى تبكى، وكانت فى جمال رائع، فقال لها يزيد: هل لك فى أمير المؤمنين زوجاً؟ فنظرت إليه وأنشأت تقول:

فإن تسألانى عن هواى فإنه يجول بهذا القبر يا فتيانى
وإنى لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه وهو يرانى^(٤)

* تنبيه:

هل من الوفاء شرعاً أن تمتنع عن الزواج بعده؟

إن لم يكن عهد بينهما على ذلك فللمرأة أن تمتنع عن الزواج إذا كان هناك

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس، ص ٢٠٩. (٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٢٣٣.

(٣) مجلة مرآة الأمة بالكويت ١٢/١١/١٩٧٤م. (٤) المستطرف، ج ١، ص ١٦٥.

مببر، كأن تحبس نفسها على أيتام لتربيتهم، ولو تزوجت ضاعوا وتشرذوا، وكان العرب يأنفون أن يزوجوا أمهاتهم ويأكلوا من مهرها. قال الجاحظ: معنى قولهم: يا ماصّ بظر أمه، يا أكل مهر أمه من غير أبيه. وكان رجل قاعداً على باب داره وعنده صديق له، ورجل يدخل الدار ويخرج، فقال: من هذا؟ فقال: زوج أخت خالتي، يعنى أمه^(١).

جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة» وأوماً بالوسطى والسبابة «امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال، وحبست نفسها على يتامى لها، حتى بانوا أو ماتوا»^(٢). ومثلها أم هانيء بنت أبي طالب كما تقدم الحديث عنها.

كما يجوز لها أن تحبس نفسها لتكون زوجته في الجنة، كزوجة حذيفة^(٣). ومثلها هجيمة بنت حبي الأوصابية الدمشقية أم الدرداء الصغرى، أبت أن تتزوج معاوية، وقالت: والله لا أتزوج في الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء إن شاء الله في الجنة، (توفى سنة ٨١هـ) وجاء حديثها في «المطالب العالية لابن حجر»^(٤) أنها سمعت أبا الدرداء يحدث عن النبي ﷺ أن المرأة لآخر أزواجها. رواه أبو يعلى ورواه الطبراني، ورجال أبو يعلى ثقات. وفي الجامع الصغير أنه حديث صحيح. وتقدم شيء من سيرتها في القائمة الملحقه بآخر بحث الحجاب.

أما إذا لم يكن هناك مببر للامتناع عن الزواج فالأولى أن تتزوج، لأن حدة الحزن على زوجها ستفتر حتماً، ويعاودها الحنين إلى ما يحن إليه كل بشر، ولا ضير إذا استجابت لنداء الطبيعة ما دام في الحلال، ولذلك أوصى أبو سلمة أم سلمة أن تتزوج بعده وكانت تريد ألا تتزوج، فخطبها النبي ﷺ وتزوجها.

(١) محاضرات الأدباء، ج ٢، ص ١٢٤.

(٢) الترغيب، ج ٣، ص ١٤٤، زاد المعاد، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الأحزاب، ص ٢٢٩. (٤) ج ٢، ص ٦٣.

وإذا كانت هناك وصية أو عهد بينهما على عدم الزواج فلا يلزم تنفيذ هذه الوصية، ولا الوفاء بهذا العهد عند عدم المبرر كالأيتام، أخرج الطبراني في الصغير بإسناد حسن عن جابر أن النبي ﷺ خطب أم مبشر بنت البراء بن معرور، فقالت: إني شرطت لزوجي ألا أتزوج بعده، فقال ﷺ «إن هذا لا يصلح»^(١)، وقد تقدم.

ومن لم تنفذ وصية زوجها بذلك أم هشام بنت عبد الله بن عمر، تزوجها عبد الرحمن بن سهيل بن عمرو، وكان يحبها كثيراً، فأوصاها في مرض موته ألا تتزوج بعده، وحلفت على ذلك، فخطبها عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، وعوضها عن اليمين بكفارته أضعافاً، فمر عليهما رجل من قريش مُغفل، وقال يخاطبها:

تبدلت بعد الخيزران جريدة وبعد ثياب الخز أحلام نائم
فغضب عمر لوصفه له بالجريدة وبأحلام النائم، ولكنها ردت عليه وقالت له: ليس كما قلت، ولكن كما قال أرتاة بن سهية:

وكائن ترى من ذات بث ولوعة بكت شجوها بعد الحنين المرجع
فكانت كذات البو لما تعطفت على قطع من شلوه المتمزع
متى لا تجده تنصرف لطباتها من الأرض أو تعمد لإلف فتربع
عن الدهر فاصفح إنه غير معتب وفي غير من قدوارت الأرض فاطمع^(٢)

ويذكر أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل لما مات عنها زوجها ابن أبي بكر أنشدت:

وآليت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبراً
فلله عينا من رأى مثله فتى أعف وأمضى في الهياج وأصبراً
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرأ

(٢) أعلام النساء.

(١) نيل الأوطار، ج ٦، ص ١٥٤.

فلما تزوجها عمر استأذنه على أن يكلمها، فقال لها: يا عدوة نفسها:

وآليت لا تنفك عيني قريرة عليك ولا ينفك جلدى أصفرا

مذكراً لها في تهكم ما قالته بعد موت زوجها الأول، فبكت، فنهاه عمر، وقال له: لم هذا؟ كل النساء يفعلن ذلك. وقد تقدمت حكايتها في بحث الحجاب.

إن الإسلام في إباحته للمرأة أن تتزوج بعد وفاة زوجها يساير الطبيعة البشرية، ويوافق المعقول في تحقيق المصلحة العامة. كانت الأوضاع القديمة تحتم على الزوجات أن يكنّ خالصات لأزواجهن في الحياة وبعد الممات، ومن الطقوس في ذلك أن تدفن الزوجة حية لتكون بجوار زوجها تؤنسه في رحلته الأخروية، وقد عثر المنقبون في بعض مقابر «أورا» القديمة على ثمان وستين جثة لسيدات قتلن، وهن في كامل زينتهن، وإلى جوارهن جثة رجل هو أحد الملوك وهن زوجاته اللاتي ضحى بهن يوم مات، ودفن إلى جواره وهن أحياء.

وكان مثل ذلك متبعاً عند الهند إلى زمن قريب، وما يزال يمارس إلى الآن خفية، فإذا مات البرهمي قضى الدين أن تحرق الزوجة مع جثته^(١). وقد ذكر ابن بطوطة أن «راى كنبيلة» لما عزم على القتال قال لنسائه وبناته: إنى أريد قتل نفسي، فمن أرادت أن توافقنى فلتفعل، فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل، وتقبّل الأرض بين يديه، وترمى نفسها في النار حتى هلكن جميعاً، وفعل مثل ذلك نساء أمراءه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر الناس^(٢). وقد حاول الإمبراطور جلال الدين محمد أكبر المغولى الذى ارتقى عرش الهند سنة ١٥٥٦م أن يمنع هذا التقليد، وهو إحراق المرأة نفسها مع زوجها عند الموت، فلم يفلح، وسأقص عليك مشهداً رآه ابن بطوطة. كما ذكر في مهذب رحلته^(٣) يقول: إنه شهد موقعة بين أمير مسلم وجماعة من الكفار قتل منهم سبعة، وكان

(١) بنات حواء للرحالة محمد ثابت. (٢) مهذب رحلة ابن بطوطة، ج ٢، ص ٩٧.

(٣) ج ٢، ص ٢٠.

لثلاثة منهم ثلاث زوجات أتفقن على إحراق أنفسهن [وإحراق المرأة بعد موت زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها أحرز أهل بيتها شرفاً ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بأئسة ممتهنة، لعدم وفائها، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها].

ولما تعاهدت النسوة الثلاث على إحراق أنفسهن أقمن ثلاثة أيام فى غناء ومرح، كأنهن يودعن الدنيا، والنساء يأتين من كل جهة يشهدن ذلك، وفى صبيحة اليوم الرابع ركبت كل منهن فرساً، وهى متزينة وفى يمانها جوزة نارجيل تلعب بها، وفى يسراها مرآة تنظر وجهها فيها، والبراهمة يحفون بها مع أقاربها بالطبول والأبواق... وكل كافر يقول لها: بلغى السلام إلى أبى وأخى... وهى تقول: نعم وتضحك لهم. ثم يقول:

سرنا معهم حتى إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار والظلال، فيه أربع قباب، بكل منها صنم، وبين القباب صهريج ماء عليه ظلال وأشجار حتى لا تتخلله الشمس، ثم انغمسن فى الصهريج وجردن من الملابس والحلى وتصدقن بها، وأعطيت كل منهن ثوب قطن خشن، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها، والنيران كانت مضمرة بقرب الصهريج فى موضع منخفض، وصب عليها زيت «الجلجلان» - ثمرة الكريزة وحب السمسم كما فى القاموس - فزاد فى اشتعالها، وهناك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم حطب رقيق، ونحو عشرة معهم خشب كبار، والطبول تقرع مع الأبواق، والناس ينتظرون مجيء المرأة وقد حجبت النار بملحفة بمسكها الرجال لئلا يدهشها النظر إليها، فرأيت إحداهن تنزع الملحفة بعنف قائلة وهى تضحك: أبا لنار تخوفوننى؟ أنا أعلم أنها محرقة. ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار - تعظيماً - ورمت بنفسها فيها مع الطبول التى تدق، والناس يرمون عليها الحطب والخشب حتى لا تتحرك. لما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسى لولا أصحابى الذين غسلوا وجهى بالماء وانصرفت.

يقول أحمد حسين فى كتابه «أمة بعثت»: إن هذه العادة استمرت طوال حكم الإنجليز للهند حتى أبطلت عام ١٩٢٩م.

* تذييل :

جاء فى إذاعة لندن- الأحد ٢٧ / ١ / ١٩٥٢م- عن عادة إحراق الموتى : أنه كان سائداً قبل التاريخ للتخلص من الجثة وآثارها السيئة، وهو يشبه الدفن بهذا المعنى، وقد وجد قبل التاريخ فى غربى أوروبا، فكانت الجثة تحرق ويدفن الرماد، وليس الهند منفردين بذلك، بل كان قدماء الرومان وخاصة أمراؤهم ونبلاؤهم يقومون به، وفى أيام معينة تقام طقوس دينية للبقايا من الآباء الذين يحترم رمادهم بدفنه فى مكان مقدس.

وقد أثر الرومان بسلطانهم فى كل ممتلكاتهم، فانتشرت هذه العادة، والكنيسة المسيحية الأولى عارضته لأنها تعتقد فى بعث الأجسام، ولم تسمح بالإحراق إلا فى حالات استثنائية. ولهذا كان الدفن هو المتبع منذ ألفى سنة، لكن فى نهاية القرن التاسع عشر تحرر بعض الناس من سلطان الكنيسة، فأحرقوا الموتى تخلصاً من الجثة لا غير، وهو عمل صحى، ولتوفير مساحات من الأرض تستغل لغير الدفن، وهو غرض اقتصادى. ولكن هؤلاء يلقون معارضة شديدة، وهو منتشر فى غربى أوروبا وشمالى أمريكا.

ومتابعة لما سبق من عادة إحراق الزوجات- نقول: كانت زوجات شعوب الأنكا فى «بيرو» يتسابقن إلى قبره ليقدمن أنفسهن ذبائح وضحايا لبعلمهم المتوفى، والسعيدة هى السابقة إلى ذلك. وقد بلغ عددهن المئات. وفى «فيجي» وبعض جهات الصين وغربى أفريقيا لا يزالون يمارسون ذلك خفية، وقد حرمته القوانين الحديثة، وإن ظل مركز الأرملة تعيساً بائساً، وذلك لاعتقادهم أن الميت نجس، وكل من لمسه أو اتصل به نجس كذلك: ومن هنا نبذت الأرملة لأنها نذير شؤم، وقد شعرت هى بذلك فحاولت الابتعاد عن الناس بطريق الرهينة فى المعابد، وهناك فى المعبد يحلق شعرها، وتغضى بالسواد، وتخدم هناك حتى تموت «رحلات محمد ثابت وبنات حواء».

والهندوس يعدون ترمّل الأرملة كفسارة لما ارتكبته، فلا يحل لها الزواج ثانياً، وفي المعابد الهندوسية جموع من الفتيات فى سن الطفولة لايزيد على ثلاث سنوات يعشن فى تقشف، بعيداً عن مباحج الطفولة، لأن أزواجهن- والزواج مبكر حتى فى سن الطفولة- ماتوا. وقد حارب ذلك غاندى، وجوزه فى ترمّل البالغة. ويجرى المثل عند الصينيات «إن الوزير المخلص لا يخدم ملكين معاً» فالزوجة الأمينة لا تتزوج مرتين.

وإذا كان للأرملة أن تحزن فليس من الحكمة أن تبقى بغير زواج. وهو ما لجأت إليه الأمم الحديثة بعد أن قرره الإسلام ونظمه، على ما هو مفصل فى مبحث الإحداد.

هذا، ويحدث الآن امتناع بعض الكبار من الزوجات أن يتزوجن بعد موت أزواجهن ذوى المراكز المرموقة، تشبهاً بنساء النبى ﷺ، وهو تشبه باطل، ولعله ماخوذ من المأثور عن بعض السلف من الامتناع عن تزوج نساء كبار الصحابة تعظيماً لقدرهم، وذكراً لجميلهم عليهم وعلى الإسلام. فهم بمنزلة آبائهم، ولا يجوز نكاح ما نكح أبائهم من النساء.

ومن العجيب ما يحدث فى قبيلة اليابو فى غينيا الجديدة من الوفاء، فإن المرأة لا تتزوج بعد وفاة زوجها، ولا تخالط الرجال كما تشاء، وهى تتحلى بجميع حلى زوجها الثقيلة، كما تحمل على ظهرها الشبكة التى كان ينام عليها، وتصنع من السلسلة الفقرية لجثة زوجها عقداً تضعه حول عنقها فى المناسبات الكبيرة، فإذا لم تحافظ الأرملة على ذكرى زوجها المتوفى، وعبثت بشرفه فإنها تؤكل حية بعد تقطيعها قطعاً صغيرة^(١).

* * *

(١) آخر ساعة، ٩ فبراير، سنة ١٩٥٥م.

الفصل السابع

الإحداد

الإحداد مصدر أَحَدَّ، يقال: أَحَدَّتْ المرأة، أى امتنعت عن الزينة والحضاب بعد وفاة زوجها، فهى مُحَدَّةٌ، وكذا حَدَّتْ تُحَدُّ - بضم الحاء وكسرهما - حداداً، بكسر الحاء، فهى حاد، ولم يعرف الأصمعي إلا الرباعى، أى أَحَدَّتْ (١).

الإحداد مظهر من مظاهر الوفاء للزوج، وأسف على فراقه، وفترة من العيش فى ظلاله بالفكر والعمل، امتداداً للعيش الحقيقى الذى كان معه، وهو كبقية مظاهر الوفاء، يقوى مركز المرأة فى أعين الناس، لأنه يدل على عاطفة نبيلة، وقلب فيه خير كثير. وقد أفردت الحداد بفصل خاص لطول الكلام عليه، ولكثرة أحكامه. وقبل أن أبيت تنظيم الإسلام له ألقى نظرة على حال المرأة بعد وفاة زوجها عند بعض الشعوب. لنرى صورة الإسلام المعقولة فى هذا الموضوع، وقد مر شىء من ذلك عن الهند بنوع خاص، وتكملة للحديث أقول - ملخصاً من كتاب بنات حواء للرحالة محمد بن ثابت وبحث المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا -:

الترمل بعد وفاة الزوج قاس وشديد عند الهند كما سبق بيانه، وذلك لمن لم تحرق نفسها مع زوجها، وفى استراليا إذا مات رجل من قبائل «الأوزنتا» لطخت زوجاته الرأس والوجه والصدر والبطن، ولزمن الصمت المطلق مدة قد تصل اثنى عشر شهراً، لا يتفاهمن إلا بالإشارة. أما قبائل الياوروبا فى جنوبى نيجيريا فتظل الأرملة لا تستحم ولا تمشط شعرها أو تخلع ثيابها إلا بعد ثلاثة أشهر على وفاة

(١) مختار الصحاح، تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٩.

زوجها، وتظل طول النهار مختبئة في بيتها لا تخرج إلا ليلاً- ويشبه هذا ما هو موجود الآن في واحة سيوة بمصر، حيث يسمون الأرملة «الغولة» تقضى أربعين يوماً لا تقترب خلالها من أحد، ولا يفتح عليها باب غرفتها، ويلقى إليها الطعام من النافذة، وأولادها مبعدون عنها، وفي اليوم الأربعين تجرى العجائز عند الفجر لنشر نبال ذهاب الغولة إلى عين «طاوس» لتستحم فيها^(١). ومن العيون التي تستحم فيها عين «تل حرام» والعلماء يخافون من حرب هذه العادة، لأن أحدهم تحدث مع غولة قبل انقضاء الأجل فقوجيء بوفاة والده^(٢).

وعند شعوب البابوا بجزر المحيط الهادى تلازم الأرملة حظيرة زوجها وهي تغطى بالحصر والأغصان مدة الحداد في أشهر ثلاثة لا يراها أحد، ومثل هذا في سواحل غربى أفريقيا، حيث يظل الأرامل من قبائل «ميناس» ستة أشهر داخل الكوخ الذى دفن فيه الزوج، وربما لا تدفن الجثة وتظل الزوجة إلى جانبها حتى يبلى اللحم ويظهر العظم.

وأول واجب على الأرملة فى أفريقيا الشرقية البرتغالية أن تأخذ حمام بخار، ثم تحاط بدخان كثيف من نار أوقدت فى أكياس من العشب اليابس، ثم تربط خصرها بجداول الغاب، ثم تزحف وهي تولول إلى داخل الكوخ الذى كانت تقطنه مع زوجها، ثم يهدم الكوخ لتدفن الجثة تحته.

وفى ميلانيزيا تُلطخ المرأة جسدها بالطين، وتلبس رداء من عشب. وفى أعالي الكونغو يُلطخ الجسم بالطين الأبيض. وفى الهند تحلق السيدة رأسها، وتتخلص من حليها بالهبات، وتبتعد عن المجتمعات، وتظل خادمة لأهل زوجها. ويسود الاعتقاد بأن أرواح الموتى تزور الزوجات حيثما وجدن، حتى إنه حدث فى مقاطعة جورجيا بأمرىكا الشمالية أن المحكمة رخصت للزوج الثانى لإحدى الأرامل أن يطلقها، وذلك لأن روح الزوج الأول ظلت تضايق الزوج والزوجة بزيارتهما.

(١) الأهرام ٣/١٢/١٩٦٢ - جابر المجمعوى. (٢) الشعب ١٣/١١/١٩٥٨م.

ومن أعجب ما علمته عن أهل «توجولاند» أنهم يؤمنون باتصال روح الزوج المتوفى جنسياً بزوجته، وهم يحرمون على الزوجة أن تسمح له بذلك، وإلا وجب قتلها، ولهذا تأخذ المرأة حذرهما فلا تمكّن روح الفقيد من الاقتراب منها، فتظل ستة أسابيع بعد وفاة الزوج عارية، وتمكث كل وقتها تحت السقف الذى دفنت فيه الجثة، ولا تخرج إلا للضرورة ورأسها مطاطاة، وعيناها مغمضتان، وذراعاها مطوقتان إلى صدرها، ويدها مضرب لتطرد الروح إذا ما اعترضتها، ثم لا بد أن تخلط طعامها وشرابها بنوع من التراب ليصبح طعمه منفراً يزهّد الروح فى تناوله معها، وفى الليل تطلق فى المكان بخوراً عفناً كريحه الرائحة لتطارده، وبعضهم يسد جميع النوافذ ويحوطها بالحواجز، فإن ظلت الأرملة منزوعة وجب أن تهجر منزلها، وتغير لباس رأسها تضليلاً له.

وفى بعض قبائل نيجيريا الجنوبية لا يبيحون للأرامل البقاء طويلاً بدون زواج، فبمجرد انتهاء أيام الحداد يقمن جماعات إلى النهر وهن يولولن، والرجال من حولهن يطلقن الأعيرة النارية فى الهواء، وهناك يغتسلن ويغسلن أثوابهن، ثم يعدن إلى بيت الأزواج الجدد.

وعند أهل فرموزا بالصين يقام المآتم عند الوفاة تسعة أيام، توضع خلالها الجثة على مقربة من نار هادئة حتى تجف تماماً، وتترك فى العراء ثلاث سنين، لا يبقى بعدها من الجثة إلا العظام، وعندئذ يقام مآتم جديد يسمونه «المآتم الجاف» تمييزاً له عن المآتم الأول الأخضر، ثم توارى العظام فى القبر، وتصبح السيدة حرمه حرة تتزوج من تشاء.

ولا يزال الأرامل عند الغربيين والمتحضرين يبالغن فى الحزن ولبس شارات الحداد طويلاً، على أن التطور اكتفى بالحزن القلبى وترك تلك المظاهر من ملابس وغيرها. اهـ^(١).

وكان الإحداد عند عرب الجاهلية ذا طقوس غريبة، ذكرها النبي ﷺ فى

(١) بنات حواء للرحالة محمد ثابت.

حديث رواه البخارى ومسلم عن زينب بنت أبى سلمة^(١). جاء فيه « وقد كانت إحدانك فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول، فقالت زينب: وكانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشاً - وهو بيت مظلم صغير - ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى يمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة - حمار أو شاة أو طير - فتقتض به^(٢) - قال مالك: يعنى تدلك به جلدها - فقلما تقتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعة فترمى بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره.

وفى الصحيحين عن أم سلمة فى ضمن حديث... وقد كانت إحدانك تكون فى شربيتها، أو فى شر أحلاسها - الحلس هو اللباد تحت البرادع، أو الكساء الرقيق، أو ما يجلس عليه - فى بيتها حولاً، فإذا مر كلب رمته ببعرة فخرجت فلا أقل من أربعة أشهر وعشرا.

وفى رواية عن مالك يفسر معنى رمى البعرة أنها ترمى ببعرة من بعير الغنم أو الإبل أمامها، فيكون ذلك إحلالاً لها، قال ابن قتيبة: سألت الحجازيين عن الاقتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماء، ولا تقلم ظفراً، ولا تزيل شعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر. ثم تقتض، أى تكسر ما كانت فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها، فلا يكاد يعيش ما تقتض به، والمراد أنه يموت من نتن فرجها، [يؤكد تأثير دم الحيض فى الحيوان ما ذكره الدميرى فى كتابه - حياة الحيوان الكبرى - عن الفاطوس، وهو حوت كبير يسمى حوت الحيض، يؤذى السفينة الكبيرة، فيرمى النوتية إليه بثوب فيه حيض فيفر منهم].

ورمى البعرة على الكلب كان فى آخر العدة، تنتظر مرور الكلب لترميه بالبعرة وإن طال الزمن، وقيل: ترمى ما عرض لها من أى حيوان، وقيل: إن المعنى فى ذلك أن ما فعلته عن التربص فى تلك المشقة هو عندها بمنزلة البعرة التى ترميها، احتقاراً له، وتعظيماً لحق زوجها، وقيل: إشارة إلى رمى العدة والتفلة

(١) زاد المعاد، ج ٤، ص ٢٢٠.

(٢) روى بالقاف والفاء وهو الكسر مثل اقتضاض البكر كما قال ابن الأثير فى النهاية.

منها، وقيل: تفاؤلاً بعدم العودة إلى مثلها، وتمنياً أن تموت في كنف من عساها تتزوج به .

جاء الإسلام فنظم الإحداد على المتوفى، من جهة مدته ومن جهة مظاهره، فالمتوفى إما أن يكون غير زوج، وهو من الأقارب، وإما أن يكون زوجاً، والأول لم يوجبه الشرع، بل أباحه مراعاة لعواطف المرأة، وجعل مدته قصيرة، وهي ثلاثة أيام فقط، وحرّم ما يزيد على ذلك . ودليله ما ورد في الصحيحين^(١) أن زينب بنت أبي سلمة دخلت على أم حبيبة رضی الله عنها زوج النبي ﷺ حين توفى أبوها أبو سفيان، فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة، خلوق أو غيره، فدهنت به جارية، ثم مست بعارضيتها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة، غير أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا . قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفى أخوها، فدعت بطيب فمست منه ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة، غير أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر «...» قالت زينب: وسمعت أمي أم سلمة رضی الله عنها تقول: جاءت امرأة...

وفي إظهار السيدتين الطاهرتين عدم حاجتهما إلى الطيب، وتعمد استعماله ما يبين لنا مراعاة النهي الشديد عن الإحداد أكثر من ثلاثة أيام على غير الزوج، وهو ضربة قاضية لأولئك النسوة المنتظعات اللاتي ينغمسن في إحداد مؤلم لمدة سنة أو أكثر، ولا يكدن يحللن من هذا الأسر حتى يقعن في أسر آخر لوفاة أخ أو ابن أو أخت أو ابن عم... والحياة سلسلة آلام متصلة الحلقات، والمرأة التي تحرص على هذا الأمر لا تفرغ حياتها من بؤس يلازمها، خصوصاً إذا كثرت فروع أسرتها، وتناوبها الموت، وهو لأبد فاعل، فذلك قانون الحياة.

وإذا كان هذا محرماً على النساء فهو على الرجال أولى بالتحريم، وأحسب

(١) زاد المعاد ج ٤، ص ٣٢٠.

أن كثيراً من النساء يقمن بذلك مشاركة لمن لها حق الإحداد، لا أكثر، ولو سألت إحداهن عن مقدار ألمها لمن أحدث عليه لكان ذلك عادياً أو فوق العادى بقليل، ولكن مراعاة لخاطر قريبتها شاركتها هذا المظهر، وودد لو تخلصن من هذا التقليد الذى تضيق به النفوس، وذلك هو بعينه ما يشعر به الرجال الذين يشاركون فى مظاهر الإحداد، على وجه يشعر بالشخصية الضعيفة والرجولة الواهية.

أما الإحداد على وفاة الزوج فهو المظهر الحقيقى للوفاء والحزن، وسنتناوله من جهة دليله، ومدته، ومظاهره.

أما دليله فقد تقدم فى حديث زينب المروى عن أم حبيبة وزينب بنت جحش، وما يأتى أيضاً من منع النبى ﷺ أنواعاً من الزينة لمن مات عنها زوجها، وعدم الترخيص فى ذلك.

وهذا الإحداد واجب، والأمة مجمعة على وجوبه، ومن الغريب أن الحسن روى عنه أن المطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها زوجها تكتحلان وتمتشطان وتتنظبان وتختضببان وتتنقلان وتصنعان ما شاءتا، وأن الحكم بن عيينة ذكر عنه شعبة أن المتوفى عنها لا تحد، واحتج من قال بذلك بحديث عبد الله بن شداد بن الهاد أن رسول الله ﷺ قال لامرأة جعفر بن أبى طالب، وهى أسماء بنت عميس «إذا كان ثلاثة أيام فالبسى ما شئت» أو «إذا كان بعد ثلاثة أيام» - شك من شعبة الراوى - وفى رواية أنها استأذنته فى البكاء، فأذن لها ثلاثة أيام، ثم بعث إليها بعد ثلاثة أيام «أن تطهرى واكتحلى» وقالوا: إن ذلك ناسخ لأحاديث الإحداد، لأنه بعدها، لأن حديث الإحداد كان فى حادثة موت أبى سلمة، وهو متقدم على موت جعفر. [الترخيص لأسماء بعدم الإحداد فى المواهب اللدنية، ج ١، ص ٤١٨].

ورد بأن الحديث منقطع، فعبد الله بن شداد بن الهاد لم يسمع من النبى ﷺ ولا رآه، فلا يعارض حديثه الأحاديث الصحيحة المسندة، والأولى أن يجمع

بين هذه الأحاديث بأن حادثة أسماء خاصة بها، كما خص الرسول ﷺ من عادات الجاهلية عند الموت أم عطية فأذن لها أن ترد دَيْن النياحة لامرأة كانت ناحت لأجلها، وهو مروى في صحيح مسلم، وكما خص من الرضاعة المحرمة ومن النظر للعبور حادثة إرضاع سهلة لسالم مولى أبي حذيفة^(١).

وأما مدة الإحداد فكانت قبل الإسلام سنة كما ذكر، ولم يجعله الإسلام كالإحداد على غير الزوج ثلاثة أيام فقط، لأن عاطفة الزوجة نحو زوجها أقوى من عاطفة المرأة نحو قريب آخر. ولئن كانت قوة الحزن تخف بعد ثلاثة أيام إلا أن الوفاء للزوج شيء وراء الحزن الذي يحس به كثير من الناس. ولو نظرنا إلى إحداد الزوجة على زوجها من جهة عدم التحكم في عواطفها بعنف لكان ذلك رخصة، ولكن نظرنا إليه من جهة الوفاء والأسف على العشرة جعله عزيمة واجبة.

وقد جعل الله مدة الإحداد مرتبطة بعدة الوفاة، وهي أربعة أشهر وعشر لغير الحامل، أما الحامل فعدتها تنتهي بوضع الحمل، قال تعالى في غير الحامل ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. فخصت هذه الآية عموم الآية السابقة كما قال العلماء، وهو أرجح من قول بعضهم: إن عدة الحامل آخر الأجلين من وضع الحمل والأربعة الأشهر والعشر، ويقوى رأى الجمهور حديث سبيعة الأسلمية زوجة سعد بن خولة، الذي توفى بمكة بعد حجة الوداع، وهو الذى رثى النبى ﷺ لوفاته بمكة، فقد روى البخارى ومسلم^(٢) عن المسور بن مخرمة أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهى حبلى، فوضعت، فأرادت أن تنكح، فقال لها أبو السنابل: ما أنت بناكحة حتى تعتدى آخر الأجلين، فسالت النبى ﷺ فقال

(١) زاد المعاد، ج ٤، ص ٢٢٠، صحيح مسلم، ج ١٠، ص ١١١

(٢) زاد المعاد، ج ٤، ص ١٨٤، تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٥.

« كذب أبو السنابل، قد حللت فانكحى من شئت ». وفى رواية: نفست بعد وفاة زوجها بليال، وفى لفظ مسلم أنها وضعت بعد وفاة زوجها بأربعين ليلة، وقيل بعشر ليال كما ذكر فى « كشف الغمة »^(١).

وقد روى رأى الآخر عن على وابن عباس، واختاره سحنون، وهو أحد قولى مالك، وحجتهم أن الحامل قد تناولها عمومان، فلا تخرج من عدتها بيقين حتى تأتى بأقصى الأجلين، وقد ردّ ابن مسعود هذا رأى وقال: أيجعلون عليها التخليط ولا يجعلون لها الرخصة؟ أشهد لنزلت سورة النساء القصوى - الطلاق - بعد الطولى - البقرة - والمتأخر مقدم على المتقدم، لأنه إما ناسخ أو مخصص أو مقيد أو مبين للمراد.

واحتساب مدة العدة من يوم موت الزوج، وعليه الجمهور، وقيل: تحتسب من يوم أن يبلغها خبر الوفاة، وروى هذا عن على، وبه قال الحسن البصرى وجماعة، وقيل بالتفصيل، إن قامت بيينة فعدتها من يوم الوفاة، وإن لم تقم فعدتها من يوم بلوغ الخبر إليها، وقد سئل أبو العالية عن حكمة ضم العشر إلى الأشهر الأربعة فقال: لأن الروح تنفخ فيها، ونسب هذا لابن عباس كما فى تفسير سورة الحج للقرطبي^(٢).

وأما مظاهر الإحداذ فيجمعها الامتناع عن كل مظهر ينافى شرعاً أو عقلاً أو عرفاً حكمة الإحداذ وهى إظهار الحزن والأسف، والوفاء للحياة الزوجية السابقة، وهذه المظاهر تختلف باختلاف البيئات والعصور والنيات، ولا يقتصر فيها على ما وردت به النصوص.

فالمرأة ممنوعة من التزين بأية زينة تنافى هذه الحكمة، وكانت للعرب فى أيام الجاهلية مظاهر استمر النساء عليها حتى جاء الإسلام، فأقر بعضها، وأبطل البعض الآخر، وليس هناك ما يمنع من القياس على ما كان عند الجاهلية ولم يبطله الإسلام، ما دامت حكمة التشريع تساعد على اعتباره.

(١) ج ٢، ص ١٤٢.

(٢) ج ١٢، ص ٦.

وبهذا يحرم على المرأة الطيب بجميع أنواعه، وزينة بدنهما من خضاب ومساحيق وتطريف واكتحال وتزجيج حواجب وما إلى ذلك، وقد نص النبي ﷺ على النهى عن الخضاب، منبهاً على كل ما شاكله، أو كان أعظم منه منافاة لمقصود الإحداد، وكل ذلك ممنوع ليلاً ونهاراً، فقد ورد في سنن أبي داود من حديث الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنه قال « المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب ولا المشقة ولا الحلبي ولا تكتحل ولا تختضب ».

لكن لو احتيج إلى شيء من هذا على سبيل التداوى فلا بأس به، ويرخص فيه بقدر الضرورة، ودليله ما ورد في الصحيحين عن أم عطية رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « لا تحد المرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب، ولا تكتحل ولا تمس طيباً، إلا إذا طهرت نبذة من قُسط أو أظفار » والعصب نبت باليمن يصبغ به لا للزينة، وقيل: العصب من برود اليمن يعصب غزلها أي يربط ثم يصبغ ثم ينسج مصبوغاً، فيخرج موشياً لبقاء ما عصب منه أبيض ولم يصبغ، وإنما يعصب السدى دون اللحم، كما في هامش القرطبي^(١)، وزاد المعاد^(٢) والقُسط والأظفار نوعان من البخور وينطق أحياناً: الكُست والكُسط، والممشقة هي المصبوغة بالمشق وهو المغرة.

وفى سنن أبي داود عن أم حكيم بنت أسيد عن أمها أن زوجها توفي، وكانت تشتكى عينها، فتكتحل الجلاء - قال الشافعي: هو الصبر يصفر وليس بطيب - فأرسلت مولاة لها إلى أم سلمة، فسألته عن كحل الجلاء، فقالت: لا تكتحل به إلا من أمر لا بد منه، ويشتد عليك، فتكتحلين بالليل، وتمسحينه بالنهار، ثم قالت عند ذلك أم سلمة: دخل على رسول الله ﷺ حين توفي أبو سلمة، وقد جعلت على صبراً، فقال « ما هذا يا أم سلمة »؟ فقلت: صبر يا رسول

(١) ج ٣، ص ١٧٩.

(٢) ج ٤، ص ٢٢٦.

الله، ليس فيه طيب، فقال «إنه يشبُّ الوجه - من شبَّ النار أوقدها - فلا تجعليه إلا بالليل، وتنزعينه بالنهار، ولا تمتشطي بالطيب ولا بالحناء فإنه خضاب» قلت: بأى شيء أمتشط يا رسول الله؟ قال «بالسدر، تغلفين به رأسك»^(١).

وترخيص النبي ﷺ لها بالليل دون النهار لعدم اطلاع أحد عليه، ولكن في هذه الأيام يعطى الليل حكم النهار، فإن السهرات واللقاءات تمتد أحياناً إلى الفجر، وهي مظنة النظر وداعية التزين.

وهذا القول هو ما جرى عليه الجمهور، كمالك وأبي حنيفة وأحمد والشافعي وأصحابهم، ويقاس على حل ذلك كل ما لم يقصد منه الزينة، كالقطرة السائلة والجافة، والأصباغ الطبيعية كالميكروكروم، ولا تمنع المحدة من تقليص الأظفار ونتف الإبط وحلق الشعر المندوب حلقه، وكل ما يقصد منه النظافة لا الزينة.

لكن يشكل على جواز ذلك عند الحاجة ما ورد في الصحيح - وذهب إليه أهل الظاهر وجماعة من السلف - من عدم الاكتحال لمرض، فقد قالت زينب راوية الحديث عن أم حبيبة وزينب بنت جحش: سمعت أمي أم سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت، أفنكحلها؟ فقال «لا» مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول «لا» ثم قال «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية»^(٢). فلم يأذن لها النبي مطلقاً، وقد ذكر مالك عن نافع عن صفية بنت عبيد أنها اشتكت عينيها، وهي حادٌّ على زوجها عبد الله بن عمر، فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمضان - تحترقان - ويجاب عنه بأن الشكاة التي قال فيها الرسول ﷺ «لا» لم تبلغ - والله أعلم - مبلغاً لا بد فيه من الكحل، فلذلك نهاها، ولو كانت محتاجة مضطرة تخاف ذهابُ بصرها لأباح ذلك، كما فعل مع التي قال لها «افعليه

(١) زاد المعاد، ج ٤، ص ٢٢٠، نيل الأوطار، ج ٦، ص ٣١٤.

(٢) زاد المعاد، ج ٤، ص ٢٢٠.

بالليل وامسحيه بالنهار» والعقل يشهد بذلك، فالضرورات تبيح المحظورات، ولهذا كانت فتوى أم سلمة تفسيراً للحديث المسند في الكحل الذي روته، فهي أدرى بمعناه، والحادة أو المحدة نهيت عن الزينة لا التداوى، والأعمال بالنيات.

وكذلك يحرم على المحدة لبس الثياب التي يقصد منها الزينة أياً كان لونها أو نوعها، والعرف يختلف في تقدير الزينة وتخصيص أنواع وألوان لها، فإن ملابس الحداد في اليابان هي الكتان الأبيض، لأنه أرخص الأنواع، والهند تلبس الملابس البيضاء في الحداد^(١). وكذلك بلاد أخرى مثل كوريا^(٢) ومثل الأندلس^(٣). وفيه يقول الحصرى:

إذا كان البياض لباس حزن لأندلس فذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شيبى لأنى قد حزنت على شبابى

يقال: إن الملابس السوداء التي هي طابع الحزن في مصر، بل هي غالب ثياب النساء خصوصاً عند الخروج من المنزل، أساسها راجع إلى حزن المصريين على شهداء الأقباط في عصر «دقلديانوس» حيث ذبح مائة وثمانين ألف مسيحي في يوم واحد، فلبس النساء الثياب حزناً عليهم^(٤).

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً ما كان نساء العرب قد اعتدنه، فنهى عن الثوب المصبوغ، وهو يعم كل ما يقصد به الزينة، ولاشك أن بعض الألوان تكون للزينة في بعض البلاد، ولغيرها في بلاد أخرى، بل قد يكون غير المصبوغ أشد فتنة من المصبوغ.

وكذلك نهى الشرع عن لبس الخلى بجميع أنواعه، وصح عن الصحابة نهيمهم عن ذلك كابن عمر وابن عباس وأم سلمة وعائشة. وذكر عن أحمد تحريم النقاب قياساً على المحرمة، كما قيست عليها في تحريم الطيب، وليس ذلك بشيء،

(١) مهذب ابن بطوطة، ج ٢، ص ٢٦٥. (٢) أخبار اليوم ١١/١/١٩٧٥.

(٣) مجلة العربي، عدد يونيو ١٩٧١، ص ٦٩. (٤) الجمهورية، ١٢/٤/١٩٦٢.

إلا إذا كان على هيئة تسمى في عرف العصر الحاضر بالإيشارب، فيكون للزينة على الأغلب إن لم يكن متمحضاً له .

هذا، وهناك كلام في المكان الذي تعتد فيه المتوفى عنها زوجها، وما يكون لها من نفقة، وهو مذکور بالتفصيل في بحث الطلاق . وأقتصر هنا على ما يتصل اتصالاً وثيقاً بالوفاء، فإن جماعة قالوا: الواجب على المرأة هو الإحداد بالامتناع عن الزينة، وليس عليها ملازمة المسكن أثناء العدة، بل لها أن تخرج كما خرجت أم كلثوم بعد وفاة زوجها طلحة بن عبيد الله مع أختها عائشة إلى مكة للعمرة، وكانت عائشة تفتى بخروج المتوفى عنها زوجها، ولكن عمر كان لا يرضى خروجها حتى إلى الحج^(١) .

وكنت أريد أن أتحدث عن حكم ما يقوم به الزوج نحو زوجته، والزوجة نحو زوجها من مظاهر الحزن عند الوفاة، وإقامة المآتم والاجتماع للتعزية، وتجديدها في أيام معينة أو بعد مرور مدة معينة كخمسة عشر أو أربعين يوماً، أو النشر في الصحف مع العبارات الباكية الحزينة وما إلى ذلك مما يقال إنه من علامات الوفاء، لكنني وجدت أن هذه المظاهر مشتركة بين جميع الأموات، بصرف النظر عن العلاقة الزوجية، والكلام حولها كثير، فتركته لحينه، وعند المواضع المناسبة له في غير هذه السلسلة من بحوث الأسرة .

وأحب أن أبين أن أكثر مظاهر الحزن هي ميراث قديم، امتد حتى سحب المسلمين إلى وقتنا الحاضر، وبعضها دخيل بعامل التقليد، لكن الأكثر موروث، فمثلاً الجلوس للتعزية ثلاثة أيام في بيت المتوفى على فراش متواضع تقليد قبطي ذكره الدكتور مراد كامل^(٢) في كتاب «تاريخ الحضارة المصرية»^(٣) .

(١) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٣، زاد المعاد، ص ٢١٥ .

(٢) قبطنى كان يجيد أكثر من ثلاثين لغة، توفي عن ٦٨ عاماً في ١٦/١/١٩٧٥ - الأهرام ١٩٧٥/١/١٧ .

(٣) ج ٢، ص ٢٩١ .

وذكر أن أهل الميت والمعزين كانوا يجلسون ثلاثة أيام على حصيرة فى المنزل، ثم يقيمون صلاة على روحه بعد ذلك، ويسمون لها صلاة «رفع الحصير» أى انتهاء فترة الحزن الشديد، الذى لا يجلس فيه على الأرائك، إظهاراً لشدة الألم على الفقيد، وكذلك يقام قداس يوم السابع ويوم الخامس عشر ويوم الأربعين، وكذلك عادة الميت فى القبور وكسر أوانى الفخار عقب خروج الجنازة حتى لا تعود روحه، وذبح الثور عند القبر^(١).

كل هذه عادات مصرية قديمة اختلطت مع طقوس الأديان الوافدة على مصر ولازمتها حتى عصرنا هذا، ولم يرد فى الإسلام ما يبرر هذه الأفعال، لأنها مبنية على عقائد باطلة، ولما يحيط بها من منكرات أو تصرفات شاذة أو صرف أموال فى غير طائل.

يحدثنا الرحالة محمد ثابت أن عادة الأربعين أو فكرتها موجودة أيضاً عند قبائل اليوروبا فى نيجيريا، ويقول: إن الميت تبقى جثته يومين يخلع عليها الأقارب أحسن الثياب، ثم يدفن، وإن كان الميت مصاباً بمرض سيئ يحذر الناعى الناس من شهود الجنازة حتى لا يصيبهم سوء، وتعود الروح ليلة الأربعين إلى البيت، وعندئذ يجتمع الزوجات وأقاربهن حول مصباح يغنين ويصفقن حتى تصيح إحداهن قائلة: ها هوأت، ثم يقلد رجل حركات الفقيد، ويرتدى ملابسه، ويزور حجرات الدار جميعاً، والنساء يسجدون على الأرض ليباركهن الفقيد.

وإذا كان الإسلام يوجب على الزوجة أن تحمد على زوجها المتوفى فإنه فى ذلك يراعى عواطف المرأة أولاً، ويراعى قدسية الرابطة الزوجية ثانياً، حيث لا ينبغى أن تنهدم مرة واحدة دون تأثر، ليبنيتها رجل جديد مع الزوجة المحزونة بسرعة، وهنا لا يكون توافق بين الأثرين، أثر الحزن على من مضى، وأثر الفرح بمن حضر بسرعة، فلا بد من وجود فترة تخف فيها حدة الحزن شيئاً فشيئاً حتى يستطيع البناء الجديد أن يجد له قاعدة قوية يقوم عليها.

ومن الأسف أن بعض السيدات لا يحترمن واجب الإحداد، ويخرجن على

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٤.

تقاليدہ الشرعية، وينسين بسرعة تلك الرابطة التي عاشت المرأة فيها زماناً طويلاً، وهذا يدل على جمود العاطفة، واهتمام بالماديات أكثر من الأدبيات، ومثل هذه المرأة لا يرغب فيها كثير من العقلاء، لأنهم يعرفون أنها لن تقي لهم كما لم تف لغيرهم من السابقين.

إن إحداهن تبكى زوجها وتفعل ما تستطيع أن تفعله في الأيام الأولى عقب الوفاة، وبخاصة عند اجتماع المعزين والمعزيات والزائرات، لتظهر أمام الناس بمظهر الحزينة الوفية، على حين أن قلبها يحدثها بزواج آخر في أقرب فرصة، ومثل هذه المرأة تبدي من زينتها ما يتسم بسمة الحزن وفيه طابع الفتنة، كالملابس السوداء المنمقة المخيطة بشكل يبرز المفاتن، ويحسر عن مواطن الإغراء، وهذه الملابس سلاح ذو حدين، يقوم لونه بحد هو شعار الحزن والوفاء، ويقوم قصره أو تنميته بحد هو الفتنة والإغراء، ولا يشك أحد أن بعض النساء يكن في الملابس السوداء فاتنات، بل أشد فتنة منهن في ملابس أخرى.

لقد نظر أحد المحبين إلى امرأة مُحدَّة في ملابس إحداها تجلس على القبر تبكى زوجها، فكتب إليها:

قد كنت أحسب أن الشمس واحدة والبدر في نظري بالحسن موصوف
حتى رأيتك في أثواب ثاكلة سود وصدغك فوق الخد معطوف
فرحنت والقلب منى هائم دنف والكبد حرى ودمع العين مذروف
ردى الجواب ففيه الشكر واغتنى وصل المحب الذي بالحب مشغوف

ورمى الرقعة إليها، فلما قرأتها كتبت إليه:

إن كنت ذا حسب ذاك وذا نسب إن الشريف بغض الطرف معروف
إن الزناة أناس لا خلاق لهم فاعلم بأنك يوم الدين موقوف
واقطع رجلك، لحاك الله من رجل فإن قلبي عن الفحشاء مصروف^(١)

(١) روضة المحبين لابن القيم نقلًا عن الحافظ ابن الجوزي [غذاء الألباب، ج ١، ص ٧٨].

ولأمر ما جعل الله مدة الإحداد موقوتة بموعد قل أو ندر أن تغالط المرأة فيه الناس، فالحامل ظاهرة معروفة بحملها لا يمكنها أن تنكره على كل الناس، وغير الحامل موقوت إحداها بالزمن الفلكي الذي يعرفه كل الناس، وهو الأشهر، ولا يمكنها أن تغالط فيه، فهي ملزمة في كلتا الحالتين أن توفى حق الزوج بالإحداد المضروب عليها، أما المطلقة فقد جعل الله للحائل غير الحامل أجلاً قد يخفى على غيرها من الناس وهو القروء المرتبطة بالعادة الشهرية، والحيض، وإن كان الغالب فيه دورانه مع الأشهر، إلا أن مدة هذه الأقراء قد تزيد وقد تنقص عن مجموع الأشهر الثلاثة. فليس لها عدد محدود من الأيام في كل الحالات، والذي يطلع على الحيض هو الزوجة فقط، وهنا يمكن أن تغالط وتتلاعب على قدر ما عندها من التزام أو عدم التزام لأوامر الدين، ولذلك نبه الله على أهمية مراقبة الله فقال سبحانه ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وما في الأرحام في هذا المقام يظهر في الحيض أكثر مما يظهر في الحمل، وإن كان يمكن أن يراد به كلاهما.

* تكملة في التوارث بين الزوجين :

- ١- إذا ماتت الزوجة ولها ممتلكات خاصة فنصيب الزوج فيها كالاتى :
 - (أ) النصف، وذلك إذا لم يكن للزوجة ولد - ذكر أو أنثى - من الزوج أو من غيره، ومثله ولد الابن.
 - (ب) الربع، وذلك إذا كان للزوجة ولد أو ولد ابن - ذكر أو أنثى - من الزوج أو من غيره.

والدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيْنَ بِهَا أَوْ دِينَ﴾ [النساء: ١٢].

- ٢- وإذا مات الزوج وله ممتلكات خاصة فنصيب الزوجة منها كالاتى :

(أ) الربع، وذلك إذا لم يكن للزوج ولد - ذكر أو أنثى - من الزوجة أو من غيرها، ومثله ولد الابن.

(ب) الثمن، وذلك إذا كان للزوج ولد أو ولد ابن - ذكر أو أنثى - من الزوجة أو من غيرها.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ ﴾ [النساء: ١٢].

وهذا هو نصيب الزوجة من زوجها، ولو كان له أكثر من زوجة ومات وهن في عصمته اشتركن جميعاً في هذا النصيب، يقسم بينهما بالسوية.

والميراث يثبت بين الزوجين إذا حدثت الوفاة والزوجية قائمة، فإن كان هناك طلاق ينظر: إن كان رجعيًا ثبت التوارث إن حدثت الوفاة أثناء العدة، وإن كان الطلاق بائنًا فلا توارث، ويحصل ذلك إذا انتهت عدة الرجعية قبل الوفاة، أو كان الطلاق قبل الدخول أو كان خلعاً على مال، أو بائناً حسب قانون الأحوال الشخصية «يراجع حكم الطلاق في مرض الموت».

والتوارث بين الزوجين ثابت لا محالة، فلا يسقط أبداً بمعنى أنه لا يكون هناك حجب حرمان، مثلهما في ذلك مثل الأبوين وولد الصلب.

* * *